# شخصيات إباضية

تأليف
الشيخ الدكتور: فرحات بن علي الجعبيري

مكتبة الضامري للنشر والتوزيع
سلطنة عمان - السيب

1833

# شخصيات إباضية

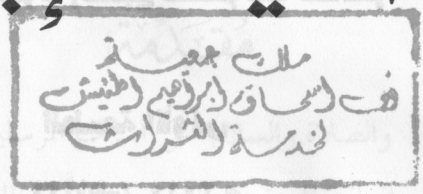


تأليف

الشيخ الدكتور: فرحات بن علي الجعبيري

**نشر وتوزيع**

مكتبة الضامري للنشر والتوزيع

هاتف: ٠٠٩٦٨٩٦٤٤٤٦٦٩

t-k-aldhamri@hotmail.com

ص ب: ٢ السيب. الرمز البريدي: ١٢١ سلطنة عمان

جميع حقوق الطبع مَحفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ/ ٢٠١٠ م

جميع الحقوق محفوظة ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون

نشر وتوزيع

مكتبة الضامري للنشر والتوزيع

هاتف: ٠٠٩٦٨٩٦٤٤٦٦٩

t-k-aldhamri@hotmail.com

ص ب: ٢ السيب. الرمز البريدي: ١٢١ سلطنة عمان

بسم الله الرحمن الرحيم

# مُقدِّمة

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

الحمد لله ربِّ العالَمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلاَّ على الظالمين...

الحمد لله الذي هدانا لِهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله...

الحمد لله الذي له ما في السموات وما فِي الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير.

الحمد لله نَحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له وأن مُحَمَّدا عبده ورسوله.

اللهم صلِّ على نبيِّنا مُحَمَّد وعلى آل مُحَمَّد كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على مُحَمَّد وعلى آل مُحَمَّد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنك حَميد مَجيد.

أَمَّا بعد..

فيقول عز من قائل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1]، وقديما قالوا «تَجارب الأقدمين مرايا للمحدثين».

ونحن على يقين أن صرَّح الحضارة الإنسانية تعاقبت على وضع لبناته أجيال وأجيال.. كُلّ جيل يترك بصمة من بصماته تستنير بِها الأجيال اللاحقة فتترك ما كان زبداً لتستبقي ما ينفع الناس ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾[2]، وتشاء العناية الربانية أن يستنير العالم بنور الرسالة المحمدية رسالة الإسلام الخالدة ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ

---

١) سورة يوسف، الآية: ١١١.

٢) سورة الرعد، الآية: ١٧.

﴿ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[1]، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[2] فيدفع هذا النور الحضارة الإنسانية أشواطاً إلى الإمام ما دام حاملو لوائه متمسكين به عقيدة وقولا وعملا.

ثُمَّ تدور عجلة الزمن - وما أسرع دوران هذه العجلة - فتقوم الحضارة العالمية المادية المعاصرة لتلتهم كُلّ روحي ومقدس ظناً منها أن السعادة في كُلّ ما هو مادي فحسب، فانبهر بزخرفها كثير من المنتمين إلى الإسلام، والإسلام منهم براء، وظلوا وراء سراب هذه الحضارة يلهثون، ومن عطائها الغث والسمين يكرعون، وتصوَّروا ألاَّ سبيل إلى نُهوض العالم الإسلامي إلاَّ بالاقتداء بِهذه الحضارة شبراً بشبر وذراعاً بذراع، وبنبذ كُلّ ما له صلة بالإسلام؛ لأَنَّ الإسلام دين، والدين لن يكون إلاَّ أفيونا للشعوب.

وفعلا سرت في كثير من الشباب فكرة أن الإسلام رجعية وتراث، ككلِّ تراث ليس له إلاَّ أن يبقى مُحنطاً في المتاحف، بعيداً عن واقع الحياة النابض؛ إلا أن الله يأبى إلاَّ أن يتِمّ نوره ولو كره الملاحدة والكافرون، فيقيض للإسلام من المسلمين رجالاً يشع من عقولهم المستنيرة بنور القرآن الكريم والسنة الشريفة نور صحوة إيمانية يقظة لَمع في أرجاء المعمورة يبين للعالمين ألاَّ سبيل إلى النجاة إلاَّ بالدين القيم، دين الفطرة الزكية ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

وفعلا قال هؤلاء المصلحون بأعلى أصواتهم: « لا للتراث من أجل التراث، ولكن نعم للتراث من أجل المستقبل؛ لأَنَّ كُلّ عاقل يدرك أن ليس الحاضر إلاَّ ومضة بين الماضي والمستقبل، بين ماض لا ينبغي أن نقف منه موقف المتأفف المتحسر، وَإِنَّما يجب أن نقف منه وقفة بناءه تنفض عنه

---

١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.

غبار الزمن عسى أن تقشع سماء وجهه، وبين مستقبل مشرق يستنير بأصالة أمتنا، هذه الأصالة التي لا يزال أعداء الإسلام يحاولون اجتثاثها من تحت أرجلنا ».

وإيماناً بهذه الصحوة الإسلامية المباركة نقدم بين يدي القارئ هذه الشخصيات المباركة، وهي ترمي إلى نفض الغبار عن كثير من مشاهير العالم الإسلامي الذي لن يطير عملاقاً في سَماء الحضارة العالمية إلاّ إِذَا التأمت جَميع أوصاله على درب واحد محوره كلمة الإيمان «**لا إله إلا الله محمد رسول الله**».

وقد تم اختيار هذه الشخصيات لتكون لكم نبراساً.

## إباضيّة المشرق:

١. الإمام عبد الله بن إباض (٨٦/ ٧٠٥).
٢. الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التّميمي (١٤٥/ ٧٦٢).
٣. الإمام عبد الله بن يحي الكندي- طالب الحقّ -(١٣١/ ٧٤٩).
٤. القائد أبو حمزة الشّاري (١٣٠/ ٧٤٨).
٥. الإمام الرّبيع بن حبيب الفراهيدي (١٧٥/ ٧٩١).
٦. محمّد بن محبوب بن الرّحيل (٢٦٠/ ٨٧٣).

## إباضيّة المغرب:

١. عمروس بن فتح النّفوسي (٢٨٣/ ٨٩٦).
٢. أبو خزر يغلا بن زلتاف (٣٨٠/ ٩٩٠).
٣. أبو نوح سعيد بن زنغيل (٤٠٠/ ١٠١٠).

٤. جماعة غار مجماج بجربة (٤٠٠/ ١٠١٠).

٥. أبو عبد الله محمّد بن بكر الفرسطّائي (٤٤٠/ ١٠٤٩).

٦. أبو الرّبيع سليمان بن يخلف المزاتي (٤٧١/ ١٠٧٨).

٧. تبغورين بن عيسى الملشوطي (٥٢٠/ ١١٢٦).

٨. أبو عمر وعثمان بن خليفة السّوفي (ق ٦/ ١٢).

٩. أبو العبّاس أحمد بن سعيد الدّرجيني (٦٧٠/ ١٢٧١).

١٠. عمر بن جميع اليهراسني الجربي (٧٢٠/ ١٣٢٠).

١١. أبو طاهر إسماعيل الجيطالي (٧٥٠/ ١٣٤٩).

١٢. عامر الشمّاخي (٧٩٢/ ١٣٨٩).

١٣. أبو الفضل أبو القاسم البرّادي (٨١٠/ ١٤٠٧).

لقد اجتهدنا في إعداد هذه التّراجم فتتبّعنا في شأنها كلّ ما بين أيدينا من مصادر ومراجع واستجلينا ما فيها من أخبار بنظرة نقديّة مكّنت من إقرار ما يجب أن يقرّ وتعديل ما يجب أن يعدّل ورفض ما يجب أن يرفض.

فجاءت التّراجم لتلبي رغبة القارئ وتعرفه ببعض علماء الأمة، ورأينا أن تنشر في عمل مستقلّ نسأل الله أن ينفع بها.

# عبد الله بن إباض

**عبد الله بن إباض** بن تميم بن ثعلبة، من بني مرّة بني عبيد، رهط الأحنف بن قيس، آل مقاعس التّميميّ (ابن حزم: جمهرة. ١٩٤٨ ص ٢٠٧. الحارثي: عقود. ١٩٨٣ ص ١٢١)، وتميم إحدى قبائل مضر الرّئيسيّة.

لا يعرف شيء عن تاريخ ولادته ولا عن حياته الأولى إلاّ أنّ امحمّد اطفيّش يذكر أنّ عبد الله بن إباض انتقل من نجد موطن قبيلته إلى البصرة (الرّسالة الشّافية. ١٢٩٩هـ ص ٤٩) كما يشير في نفس المصدر والصّفحة إلى أنّ بعض الرّوايات تفيد أنّه كان صحابيّا لفترة قصيرة. إلاّ أنّ كلّ المصادر الإباضيّة وغير الإباضيّة تجمع على أنّه من طبقة التّابعين الّذين عاشوا في النّصف الثّاني من القرن الأوّل للهجرة.

تجمع المصادر الإباضيّة وغير الإباضيّة، باستثناء (الملطي: التّنبيه. ١٩٦٨. ص ٥٢) على أنّه تنسب إليه الإباضيّة مع اختلاف بيّن تمثّل في أنّ المصادر غير الإباضيّة تعتبر الإباضيّة فرقة من أهمّ فرق الخوارج بينما تلحّ المصادر الإباضيّة على أنّهم من الخارجية براء.

وقبل الخوض في أدلّتهم على ذلك يحسن أن نشير إلى أنّ هذه النّسبة ليست قياسيّة ذاك أنّها نسبة إلى الأب لأنّه أكثر شهرة كما هي الحال في علم الأنساب عند العرب (المبرد: الكامل. ٣ / ١٠٥١. ١٠٥٤) وفي ذلك يقول الدّرجيني: « فإليه

النّسبة اليوم في العقائد، معدولا بها عن اسم الولد إلى اسم الوالد، طلبا للتّخفيف واختصاص الأشهر ». (طبقات ٢ / ٢١٤).

مع العلم أنّ هذه التّسمية بالإباضيّة لم ترد في المصادر الإباضيّة الأولى وإنّما كانوا يتسمّون بـ « جماعة المسلمين » أو « أهل الدّعوة » أو« أهل الاستقامة » ويؤكّد النّامي على أنّ هذه التّسمية بالإباضيّة ظهرت لأوّل مرّة عند عمروس بن فتح (٢٨٠ - ٨٩٣): (الدّينونة الصّافية. خ. البارونيّة. ص ٤) وقد استقرّت التّسمية بعد ذلك، وقبلها أهل العلم وعامّة أتباع المذهب لأنّهم يعتبرون أنّ عبد الله بن إباض علم من أعلامهم وإمام من أئمّتهم الأول الّذي كان ينافح عن مبادئهم إلى جانب الإمام المرسي لأسس المذهب عندهم بدون منازع الإمام جابر بن زيد (٩٣ - ٧١١)، وسنبيّن العلاقة بين هذين الإمامين بعد إثبات الأدلّة على نفي الخارجيّة عن هذه الفرقة.

يعتبر الإباضيّة أنّ الخارجيّة لقب سلّطه الأمويّون على هذه الطّائفة من النّاس قصد تبرير محاربتهم لهم وهو يعني المروق من الدّين استنادا إلى أحاديث مشهورة في كتب الفرق.

والأصل أن تعرف كلّ طائفة بما اختارته لنفسها من التّسميات، وهؤلاء النّاس اختاروا لأنفسهم تسمية « المحكّمة » لقولهم لا حكم إلاّ لله على أنّها ليست كلمة حقّ أريد بها باطل، وإنّما هي كلمة حقّ أريد بها حقّ، كما أنّهم يتسمّون بـ « جماعة

المسلمين »، ولم يرفضوا تسميتهم بأهل حروراء وبأهل النّهروان (الجّعبيري: البعد ١٩٨٧ ص ٣١، ٤٦ وعوامل نشأة الفرق ٢٠٠٠ كامل الكتاب.)

فالإباضيّة يعتبرون أنّهم ينتمون إلى كتلة الإمام عبد الله بن وهب الرّاسبيّ (٣٨ - ٦٥٨) الّذي قتل في معركة النّهروان فخلفه أبو بلال مرداس بن حدير (٦١، ٦٨٠) إلى أن قتل غدرا مع أصحابه في معركة توج (المبرد:الكامل٢/ ١٨٧) بقيادة عبّاد ابن علقمة المازنيّ من قبل عبيد الله بن زياد (٦٧ - ٦٨٧).

والحقيقة أنّه لا غرابة في أن تكون هذه المرحلة شحيحة بالمعلومات ذلك أنّ المحكمة بعد هزيمة النّهروان كانوا يسلكون مسلك الكتمان الّذي يقوم على السّريّة المطلقة مع تعمية كلّ الأخبار. فلم نعثر على أيّ خبر يفيد مشاركة عبد الله بن إباض في معركتي صفّين والنّهروان. لكن قد ورد ذكره في المرحلة اللاّحقة في الأخبار التّالية:

١. وجاء في سيرة أبي المؤثر الصّلت بن خميس الخروصيّ (من فقهاء عمان ٣ / ٩):

« فكانت سيرة المسلمين (المحكّمة) بعد أهل النّهروان واحدة وكلمتهم جامعة، غير أنّهم كانوا مقهورين في تقيّة بين ظهراني الجبابرة، إلاّ من وجد منهم روح الجهاد فنهض إليه حتّى يستشهد رحمهم الله، فخرج أهل النّخيلة، ثمّ قريب وزحاف، ثمّ المرداس، وغيرهم من **الخوارج المسلمين** على العدل، حتّى خرج نافع بن الأزرق عدوالله فدعا إلى دعوة لم يقل بها أحد قبله، ثمّ إنّه خالف سيرة المسلمين، فانتحل الهجرة، وأضاف الشّرك إلى أهل القبلة، واستحلّ السّبي

والغنيمة، فبرئ منه المسلمون. وقام نجدة ابن عامر، وعبد الله بن الصّفار فدعوا إلى مثل ما دعا إليه نافع، غير أنّهما خالفاه في أمور أخرى... فخالفهم عبد الله بن إباض إمام المسلمين رحمه الله هووالمسلمون وبرئوا منهم ودعوا إلى دعوة المسلمين » (السّير والجوابات. عمان. دت. ٢ / ٣٠٧ - ٣٠٣ و٣١٤).

٢. يذكر الطّبريّ أنّ عبد الله بن إباض اشترك مع رؤوس المحكمة في الدّفاع عن الكعبة المشرّفة إلى جانب عبد الله بن الزّبير ضدّ الجيش الأمويّ عام ٦٣ - ٦٨٢ (٥ / ٦٥٣).

٣. جاء في أنساب الأشراف للبلاذري (٢٦٩ - ٨٣٣): « قال أبو عبيدة معمّر بن المثنّى: كان في سجن عبيد الله بن زياد نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر الحنفيّ وعبد الله بن إباض وعبيد بن هلال العنزيّ ... وكانوا غضبوا للبيت فقاتلوا مع ابن الزّبير، وهم لا يرون نصره ولكنّهم احتسبوا في جهاد أهل الشّام ثمّ إنّهم قدموا البصرة فالتقتهم ابن زياد وحبسهم، فيقال إنّه كان في سجنه من الخوارج مائة وأربعون » (١٩٣٨، ج ٣ ق ٢ ص ١٠١ - ١٠٢).

٤. يذكر البغطوري (٦ / ١٢) ما يلي: « وذلك أنّ المسلمين (يعني المحكّمة) بعد قتل أبي بلال اجتمعوا بجامع البصرة وعزموا على الخروج، وفيهم عبد الله بن إباض ونافع بن الأزرق ووجوه المسلين، فلمّا جنّ اللّيل سمع عبد الله دويّ القرّاء وترنين المؤذّنين وحنين المسبّحين فقال لأصحابه: أعن هؤلاء أخرج معهم، فخرج وكتم أمره. » (سير: خ ص ٣. برّادي: جواهر. ١٨٨٥ ص ١٥٥).

٥. وجاء في كتاب الطّبقات للدّرجيني (٦٧٠ - ١٢٧١) ما يلي: « كان عبد الله بن إباض إمام أهل الطّريق وجامع الكلمة لمّا وقع التّفريق، فهوالعمدة في الاعتقادات، والمبيّن لطرق الاستدلالات والاعتمادات، والمؤسس لأبنية هي مستندات الأسلاف ... » (٢ / ٢١٤)

٦. يورد الرّقيشي (١٠ / ١٦): « فقد بلغنا أنّ أبا بلال وغيره من أئمّة المسلمين لم يكونوا يخرجون إلاّ بأمر إمامهم في دينهم جابر بن زيد العمانيّ رحمه الله ومشورته ويحبّون ستره عن الحرب، لئلاّ تموت دعوتهم، ويكون ردءا لهم » مصباح الظّلام ورقة ٢٠. خ القاهرة، دار الكتب.

٧. يذكر الشّماخي (٩٢٨ - ١٥٢٢): « أنّ عبد الله بن إباض يصدر في أفعاله وأقواله عن جابر بن زيد. » سير: ٧٧.

يتّضح من هذه الأخبار الّتي أحببنا أن تكون بين يدي القارئ أنّ عبد الله بن إباض رأس من رؤوس المحكمة إلى جانب أبي بلال مرداس بن حدير وأنّهم « لم يكونوا يخرجون إلاّ بأمر إمامهم في دينهم جابر بن زيد العمانيّ رحمه الله ومشورته، ويحبّون ستره عن الحرب. »

فإمام الجميع حينئذ في الدّين على المطلق هوجابر بن زيد في مرحلة الكتمان تلك الّتي كان يعيشها المسلمون (المحكّمة): « فكانت سيرة المسلمين (المحكّمة) بعد أهل النّهروان واحدة وكلمتهم جامعة، غير أنّهم مقهورين في دار تقية بين ظهراني الجبابرة ». وإن لم تذكر المصادر مشاركة الإمام جابر بن زيد في صفّين والنّهروان فإنّها

تذكر أنّه كان قد أتى عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها وأبا بلال واستتاباها عن موقفها مع طلحة والزّبير في معركة الجمل فتابت (الدّرجيني: ٢ / ٢٠٦)

وفعلا فقد ظلّ الإمام جابر بن زيد يرسي أسس مسالك المسلمين عقديا وسياسيّا وشرعيّا وظلّ الكلّ لا يتحرّكون إلاّ بمشورته، وطبيعيّ والحال هذه أن تبرز عناصر على الواجهة العلنيّة تجاه الأحداث الكبرى في دولة بني أميّة.

ومن ذلك بروز عروة بن أديّة (٥٨ - ٦٧٨)، وهوأوّل من قال: لا حكم إلاّ لله، فجيء به إلى زياد بن أبيه، فسأله عن أبي بكر وعمر فقال خيرا، وسأله عن عثمان وعليّ فأثنى على عثمان في ستّ سنين وشهد عليه بالكفر (كفر نعمة لا كفر شرك) في البقيّة، وأثنى على عليّ إلى يوم التّحكيم ثمّ كفره، فسأله عن نفسه فأغلظ له فأبقى عليه إلى أن كانت أيّام عبيد الله ابن زياد (٦٧ - ٦٨٦) فقتله (الدّرجيني: طبقات ٢ / ٢١٤ - ٢٢٥).

ومن ذلك خروج أبي بلال مرداس بن حدير (٦١ - ٦٨٠) وهوأخوعروة، شاريا: « إلاّ من وجد منهم روح الجهاد فنهض إليه حتّى يستشهد رحمهم الله، فخرج أهل النّخيلة ... ثمّ المرداس ... » وقد أذاع في النّاس أنّه لم يخرج ليفسد في الأرض ولا ليروّع أحدا، ولكن هربا من الظّلم، وأنّه لا يقاتل إلاّ من يقاتله، فوجّه إليهم عبيد الله بن زياد جيشا كبيرا فهزموه في آسك فوجّه إليهم جيشا ثانيا بقيادة عباد بن علقمة المازنيّ فقتلهم غدرا بعد أن توادعوا لأداء الصّلاة. (الدّرجيني: طبقات ٢ / ٢١٤، ٢٢٥).

ثمّ بعد ذلك استقرّ الرّأي بالإجماع على ضرورة الدّفاع عن بيت الله الحرام « فقاتلوا مع ابن الزّبير وهم لا يرون نصره ولكنّهم احتسبوا في جهاد أهل الشّام » وكان ذلك سنة ٦٣ - ٦٨٢.

والملاحظ أنّ جميع المصادر الإباضيّة وغير الإباضيّة تتّفق على مشاركة عبد الله ابن إباض في هذا الحدث إلى جانب بقيّة رؤوس المحكمة ممّا يؤكّد أنّه كان له دور قياديّ بدون منازع، ولا نغفل هنا عن التّذكير بأنّه « يصدر في أفعاله وأقواله عن الإمام جابر بن زيد ».

وفعلا عندما انسحب الجيش الشّاميّ عقب موت يزيد بن معاوية حاول ابن إباض ومن معه من المحكمة إقناع ابن الزّبير بوجهة نظرهم، ووعدوه بالنّصرة والمساعدة إن وافقهم لكنّه أبى إلاّ أن يبقى على عثمانيّته فتخلوّا عنه.

وما أن رجعوا من الحجاز إلى البصرة حتّى التقتهم ابن زياد وسجبهم « كان في سجن عبيد الله بن زياد نافع ابن الأزرق ... وعبد الله بن إباض ... ، إلى أن وثب النّاس بابن زياد فكسّر الخوارج أبواب السّجون » الطّبريّ: ٥ / ٥٦٦.

وإثر فرارهم من السّجن تتّفق المصادر على تفرّق كلمة المحكمة إلى تيّارين، تيّار دعا إلى العنف المطلق على رأسه نافع بن الأزرق وفريق دعا إلى الاستمرار على التّقية والتّخطيط للمستقبل وعلى رأسهم عبد الله بن إباض وكان ذلك في اجتماع البصرة سنة ٦٤ - ٦٨٣ « فقال (عبد الله بن إباض) لأصحابه: أعن هؤلاء أخرج معهم فخرج وكتم أمره. »

إنّها لحظة ميلاد جماعة « أهل الدّعوة » أو« أهل الاستقامة »، فهذه الفرقة الّتي عرفت بعد ذلك بالإباضيّة نسبة إلى عبد الله بن إباض لأنّه أوّل من دعا إلى الاستمرار على مسلك الكتمان والاعتدال، مسلك المحكمة الأول إثر معركة النّهروان معتبرا أنّ استعمال العنف خروج عن الأصل.

وفعلا سلك عبد الله بن إباض بمشورة الإمام جابر بن زيد مع من انضمّ إليهم من التّميميّين والأزديّين وغيرهم مسلك القعود، وانطلقوا يخطّطون في الكتمان المطلق للمرحلة اللاّحقة، وقد أنيطت عهدة الإعلان عن أراء هذه الجماعة لابن إباض عند الحاجة إلى ذلك. وعلى هذا الأساس كانت المكاتبات بين ابن الأزرق وابن إباض كما جاء عند الطّبريّ: « فكتب ابن الأزرق لهما كتابا فردّ عليه ابن إباض: قد كذب فيما يقول، إنّ القوم كفّار بالنّعم، وهم براء من الشّرك، ولا تحلّ لنا دماؤهم، وما سوى ذلك من أموالهم فهوعلينا حرام »، فقال ابن الصّفار: برئ الله منك، فقد قصرت، وبرئ الله من ابن الأزرق فقد غلا، وقال الآخر (عبد الله بن إباض): « فبرئ الله منك ومنه. وتفرّق القوم ... » تاريخ ٥/ ٥٦٦، ٥٦٨.

وهكذا كان لا بدّ لهذه الجماعة الّتي يقودها الإمام جابر بن زيد من رجل منها ينافح عنها علنا فلم تجد أفضل من عبد الله ابن إباض التّميميّ - ولقبيلته وزن لا يستهان به في البصرة - وذلك حتّى تتمكن السّلطة القائمة من التّمييز بين خوارج الجور وتطرّفهم وبين القعدة واعتدالهم.

وفي هذا الإطار تندرج المراسلات بين عبد الله بن إباض وعبد الملك بن مروان هذه الّتي سكتت عنها المصادر غير الإباضيّة وأقرّتها النّصوص الإباضيّة خلفا عن سلف وهي وثيقة هامّة كشفت عن موقف الإباضيّة من أحداث صدر الإسلام من موت الرّسول عليه السّلام إلى فترة عبد الملك بن مروان (٨٦ - ٧٠٥).

ومنها قوله: « إنّا برآء إلى الله من ابن الأزرق وصنيعه وأبتاعه. لقد كان حين خرج على الإسلام في ما ظهر لنا، ولكنّه أحدث وارتدّ وكفر بعد إسلامه، فنبرأ إلى الله منهم » (البرّادي: جواهر: ١٦٥).

هكذا تختفي أخبار عبد الله بن إباض في خلافة عبد الملك ابن مروان، وقد أخطأ الحميري في ما ذكره عن رجوع ابن إباض إلى الاعتزال (الحور العين ١٩٨٥. ص ٢٢٧ - ٢٢٩).

كما خلط كلّ من الشّهرستاني (الملل ١٩٧٧. ص ١٣٧ - ١٤٠) والرّازي (اعتقادات. ١٩٨٧ ص ٦٤) بين عبد الله بن يحيى طالب الحقّ وعبد الله بن إباض والصّحيح الّذي لا مراء فيه باتّفاق جميع المصادر أنّ الّذي ثار على مروان بن محمّد آخر خلفاء بني أميّة هوعبد الله بن يحيى الكنديّ طالب الحقّ وليس عبد الله ابن إباض.

ولا سبيل إلى قبول رواية ابن حوقل الّتي تشير إلى أنّ ابن إباض وعبد الله بن وهب الرّاسبي ارتحلا إلى جبل نفوسة وماتا هناك (صورة الأرض: ص ٤٣).

معجم أعلام الإباضيّة بالمغرب دار الغرب الإسلاميّ ١٩٩٩ ج ٢ / ٢٦٣ وقد ذكر جميع المصادر والمراجع. د. محمّد حسن النّابودة: عبد الله بن إباض ونشأة المذهب الإباضيّ. دراسات تاريخيّة. مجلّة علميّة محكمة. تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق. السّنة ١٤ العددان ٤٥ - ٤٦، آذار - حزيران ١٩٩٣. ص ٢٩ - ٥٠. دائرة المعارف الإسلاميّة الكبرى بإشراف كاظم الموسوي البجنوردي. مركز دائرة المعارف الإسلاميّة الكبرى. طهران ١٣١٦ - ١٩٩٥، م ٢ / ص ١٤ - ٣٥.

# أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التّميمي بالولاء

**أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التّميمي بالولاء** (٤٥/ ١٤٥-٦٦/ ٧٦٢)، مولى عروة بن أديّة (٥٨-٦٧٨)، وسواد بشرته يرجّح أنّه إفريقيّ الأصل، ولد على الأرجح بالبصرة حوالي (٤٥-٦٦٥). هوالإمام الثّاني لأهل الاستقامة بعد وفاة الإمام الأوّل جابر بن زيد ٩٣-٧١١.

١. أدرك بعضا من الصّحابة منهم: عبد الله بن عبّاس (٦٨-٦٨٧) والبراء بن عازب (٧٢-٦٩١) وعبد الله بن الزّبير (٧٣-٦٩٢) وأبو سعيد الخدري(٧٤-٦٩٣)، وجابر ابن سمرة (٧٤-٦٩٣)، ورافع بن خديج (٧٤-٦٩٣)، وعبد الله بن عمر (٧٤-٦٩٣)، ووائلة بن الأسقع (٨٣-٧٠٢)، وسهل بن سعد السّاعديّ (٩١-٧٠٩)، والسّائب ابن يزيد (٩٢-٧١٠)، وأنس ابن مالك (٩٣-٧١١)...

٢. صحار بن عبّاس العبديّ (١٠٠ تقريبا – ٧١٨). وهو من الصّحابة، إلاّ أنّنا خصّصناه بالذّكر لأنّه أخذ عنه أكثر من غيره.

٣. جعفر بن السّمّاك العبدي (بعد ١٠٢-٧٢٠) تابعيّ.

٤. أبو الشّعثاء جابر بن زيد (٩٣-٧١١) تابعيّ.

إنّ هؤلاء الصّحابة الأجلاّء وبقيّة شيوخه من أهل الدّعوة وجدوا فيه الأرض الخصبة فبذروا كلّ ما لديهم ليؤتي أكله بعد حين.

فهذا عروة بن أديّة مولاه وقد نوّهت المصادر بشجاعته وشرائه وعبادته الشّيء الكثير، قد ورّث هذا المولى كلّ تلك الخصال.

وينضاف إليه حديث جابر وفقهه وحسن تدبيره، دون أن ننسى ما أخذ عن صحار العبدي من معرفة للأخبار وقدرة على البيان وبراعة في الجدل والاحتجاج.

كلّ هذه الخصال مكّنت هذا الفتى المتفاني في طلب العلم وفي خدمة الجماعة في مركزها الأساسيّ في البصرة وفي بيت الله الحرام من أن تبوّئه هذه الجماعة المكانة الّتي تليق به ألا وهي إمامة الكتمان الّتي تحرص على الاستعداد لإمامة الظّهور.

ولم يكن أبو عبيدة رغم ما آتاه الله من علم أن يندفع إلى الاعتداد بالرّأي، وإنّما أرسى في مدرسته التّعلّق بالآثار ممّا جعلها مدرسة سنّيّة راسخة القدم لا تبتغي عن حديث الرّسول عليه السّلام وأخبار صحابته بديلا.

وقد قال قبله شيخه جابر في هذا الصّدد: « ومن ضيّع للّناس أمرا مخالفا للسّنّة فإنّه لا يمكن أن يكون على صواب. » [جابر بن زيد: الرّسائل ص ٥.]

وها هو الإمام أبو عبيدة يقول: « من لم يكن له أستاذ من الصّحابة فليس هو على شيء من الدّين، وقد منّ الله علينا بعبد الله بن عبّاس بن عبد المطّلب عمّ رسول الله ﷺ، وعبد الله بن مسعود (٣٢-٦٥٢)، وعبد الله ابن سلاّم (٤٣-٦٦٣)، وهم الرّاسخون في العلم، فعلى آثارهم اقتفينا، وبقولهم اقتدينا، وعلى سيرتهم اعتمدنا، وعلى مناهجهم سلكنا. » [الجيطالي: (٧٥٠-١٣٤٩) شرح النّونيّة خ ١/ ٢٤.]

فلا قيمة لمذهب ليس له سنده المتين الّذي يربطه بالرّسول محمّد ﷺ، ولا قيمة لمدرسة ليس لها مرجع راسخ في العلم، وفي هذا المعنى يقول أبو عبيدة: « كلّ صاحب حديث ليس له إمام في الفقه فهو ضالّ مضلّ، ولولا أن منّ الله علينا بجابر بن زيد رضي الله عنه لضللنا. » [ن.م: ١ / ٢٤.]

ولا قيمة للرّأي عند أبي عبيدة إلاّ بعد أن يستنفد البحث في السّنّة والآثار.

قال الشّيخ أبو عبيدة: « اعلم أنّ المسلم إذا رزقه الله نفسا طيّبة مستقيمة على طاعة الله، كلّما بلغه شيء يتقرّب به إلى الله اجتهد فيه فيكون مأجورا على نحو ما تقدّم. » [الجيطالي: قناطر الخيرات. تحقيق النّامي: [١٧ - ١٨.]

وقال: « وإذا كان للإنسان نفس خبيثة ملّ العمل لله، واستثقل العبادة فكان أكثر همّه في الجدل والمراء، فإذا بلغه حديث فيه الرّغبة في العمل عارضه بالقياس، وقال: إنّ هذا ليس صحيحا لأنّ رأيه وما يوافق هواه ليس فيه العمل بطاعة الله. » [ن. م والصّفحة.]

كيف تأتّى للإمام أبي عبيدة في محيط البصرة بما فيه من ضغط سياسيّ عنيف في تلك الفترة أن يحيي سنّة رسول الله ﷺ، وأن ينشر سبل الخير في تلاميذ أجلاّء تمكّنوا من نشرها في أطراف العالم الإسلاميّ آنذاك شرقا وغربا.

إنّه التّأسيّ بالرّسول ﷺ بإقامة مجالس سرّيّة في مرحلة الكتمان، هذه الأحوال الشّبيهة بأحوال المسلمين في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

وإن عرفت هذه المجالس مع مولاه عروة بن أديّة ومع شيخه جابر بن زيد فإنّها لم تبلغ ما وصلته من الإحكام مع أبي عبيدة، ويتّضح من عديد من الشّواهد أنّها كانت تنقسم إلى ثلاثة أنواع: مجالس الشّيوخ، ومجالس العامّة، ومجالس تكوين الدّعاة [النّامي: دراسات عن الإباضيّة: ١٠١-١٠٤].

أمّا مجالس الشّيوخ ولا يتجاوز عدد الحاضرين فيها أكثر من سبعة فهي الّتي تحدّد جميع خطط العمل مع التزام كتمان القضايا الّتي تناقش التزاما كليّا.

وأمّا مجالس العامّة وهي أيضا سريّة يحضرها عامّة أهل الدّعوة، ويخصّص جانب للنّساء فإنّها تكون محروسة من أفراد الجماعة وهي مجالس وعظ وتبليغ وهي موكولة إلى المشائخ يتولّى كلّ واحد منهم أمر أحدها.

النّوع الثّالث: مجالس تكوين الدّعاة: هذه المجالس كان يتولاّها أبو عبيدة بنفسه، وكان يرسل الدّعاة ليتخيّروا له النّخبة من أطراف البلاد ليعبّئهم تعبئة تامّة بعد أن يثبت لديه نبوغهم.

وقد جمع هذا المجلس طلبة من الحجاز واليمن وعُمان وخراسان ومصر والمغرب ممّن كان لهم شأن في مواطنهم في بثّ الدّعوة وإرساء قواد إمامة الظّهور، الأمر الّذي لم يرد أن يضطلع به أبو عبيدة بنفسه، إذ يعلم أنّه بالإقدام على مثل ذلك في البصرة إنّما يقدم على عمليّة انتحاريّة تفجّر كلّ البناء من أساسه.

لقد كان هذا المجلس أهمّ مراكز إشعاع عرفه الفكر الإباضيّ إذ في ما نعلم لم تخرّج مدرسة قبل هذا المجلس ولا بعده مثلما خرّج هذا المجلس، إنّه مجلس لا ينعقد

في أضخم قاعات القصور وإنّما هومجلس في سرداب من سراديب البصرة يتظاهر فيه الإمام بتعاطي صناعة القفاف مع من حواليه ولذلك عرف بالقفّاف، وعلى باب السّرداب حارس أمين، فإذا رأى شخصا مقبلا مهما كان شكله حرّك السّلسلة، وإذا بالسّرداب يتحوّل مصنعا للقفاف، فإذا أمن القفّاف ويلات العدو المترصّد حوّل السّرداب إلى مصنع للرجّال الأفذاذ الأبطال، إذ لم تحش أدمغتهم علما فحسب، وإنّما عمروا إيمانا صادقا أناروا به السّبل وأقاموا الإمامات في اليمن وعمان والمغرب.

ومن هذا المجلس تخرّج: من العراق: مثل أبي غسّان مخلّد بن العمرد الغسّانيّ العراقيّ، وعبد الملك الطّويل الّذي تحمّل مسؤوليّة إحدى المجالس العامّة، وأبي سعيد عبد الله بن عبد العزيز الّذي رويت عنه كثير من أخبار مدوّنة أبي غانم الخراسانيّ.

ومن الحجاز: أمثال محمّد بن سلمة المدني، وأبي سفيان محبوب ابن الرّحيل بن هبيرة القرشيّ المكّيّ، وأبي الحرّ عليّ ابن الحصين.

ومن عمان: أمثال الرّبيع بن حبيب الفراهيدي (١٧٥-٧٩١) الّذي دوّن ما رواه من أحاديث عن شيخه (وهذه الموسوعة) وأبي حمزة المختار بن عوف الأزدي (١٣١-٧٤٨)، وبلج بن عقبة الفراهيدي (١٣١-٧٤٨)، (وهذه الموسوعة) والجلندى بن مسعود (١٣٤-٧٥١) (الّذي أقام إمامة الظّهور بعمان)، وشبيب بن عطيّة (بعد ١٣١-٧٤٨)، والفضل بن جندب (؟).

ومن اليمن: أمثال سلمة بن سعد الحضرمي ناشر الدّعوة في بلاد المغرب، وعبد الله بن يحيى الكندي المعروف بطالب الحقّ (١٣١-٧٤٨) الّذي أقام إمامة الظهور باليمن، وأبي الخطّاب عبد الأعلى المعافري الحميري (١٤٤-٧٦١) الّذي أقام إمامة الظّهور بطرابلس ليبيا، وأبي المؤرّج عمر بن محمّد العمدى وهو واحد ممّن رويت عنهم مدوّنة أبي غانم الخراسانيّ...

ومن خراسان: أمثال هلال بن عطيّة الخرسانيّ وأبي عبد الله هاشم بن عبد الله الخراسانيّ، وأبي عيسى الخراساني...

ومن مصر: أمثال محمّد بن عبّاد المصريّ، وعيسى ابن علقمة المصريّ.

ومن شمال إفريقيا: أمثال أبي عبد الله محمّد بن عبد الحميد بن مغطير الجناوني النّفوسيّ، وقد أخذ العلم عن الإمام قبل أن يحرّر المسائل، وحملة العلم إلى المغرب وهم: أبو درار إسماعيل ابن درار الغدامسيّ اللّيبيّ، وعبد الرّحمان ابن رستم الفارسيّ القيروانيّ الّذي أقام إمامة الظّهور بتاهرت بالمغرب الأوسط (١٧١ - ٧٨٧)، وعاصم السّدراتي ولعلّه من المغرب الأوسط، وأبو داود القبليّ النّفزاوي التّونسيّ...

وإنّه لمن المفيد هنا ما دمنا مع الإمام أبي عبيدة الحركيّ أن نعدّد ذكر من أقاموا إمامة الظّهور في حياته وبأمر منه وإثر وفاته لأنّ عملهم لم يكن إلاّ ثمرة مكابدته الطّويلة وتخطيطه القويم.

أمّا في حياته وبمشورة منه ومن معه فكانت:

١. دولة الإمام طالب الحقّ عبد الله بن يحيى الكندي وقد كان أبو حمزة الشّاري بطلها المغوار وقد كانت قاب قوسين على تحقيق إمامة المسلمين جميعا، إذ انطلقت من اليمن فإنّها أدركت الحرمين الشّريفين وبلّغت صوت أهل الدّعوة إلى المسلمين جميعا.[ر. طالب الحقّ في هذه الموسوعة].

٢. دولة الإمام أبي الخطّاب عبد الأعلى المعافري بطرابلس (١٤٠/ ١٤٤- ٧٥٧/ ٧٦١) [د.عوض خليفات. نشأة الحركة الإباضيّة. ١٤٦].

٣. دولة الإمام الجلندى بن مسعود في عمان وقد انعقدت إثر سقوط دولة الإمام طالب الحقّ باليمن. [ن.م: ١١٦]

وأمّا إثر وفاته فكانت دولة الإمام عبد الرّحمان بن رستم بتاهرت بالمغرب الأوسط. (١٦٠/ ١٧١-٧٧٦/ ٧٨٧). [بحّاز إبراهيم بكير: الدّولة الرّستميّة. ١١٠.]

ولا يفوتنا هنا أن نبيّن أنّ هذه النّتائج لم يحصل عليها بجهده الخاصّ وإنّما قد أعانه عليها ثلّة من المشائخ الفضلاء هم النّواة الأساسيّة لأهل الدّعوة نذكر منهم أبا داود حاجب الطّائيّ، وحيّان الأعرج، وأبا نوح صالح الدّهّان، وضمام ابن السّائب. وغيرهم كثير. [مبارك الرّاشديّ: الإمام أبو عبيدة. ملحق ٢. ٥٨٥.]

لقد عرف أبو عبيدة غياهب سّجون الحجّاج بن يوسف وذاق من أصناف عذابها لكنّ هذا لم يثنه عن مواصلة دعوته وحال موت الحجّاج (٩٥ – ٧١٣) تيسّر

له الفرار مع ثلّة من أصحابه فزادهم ذلك عزما على السّعي إلى إقامة إمامة عادلة وقد تمكّنوا من ذلك كما أشرنا آنفا.

وما كان ليتمّ لهم ذلك إلاّ عن طريق الاتّصال الدّؤوب بمركز القيادة لتتبّع تحوّلات الأحداث الّتي تتحوّل بسرعة في أخريات دولة بني أميّة. وواضح أنّ هذا كان يتمّ في منهج الإمام السّياسيّ بمسلكين واضحين.

أوّلهما: اللّقاء في موسم الحجّ، وقد كان أبو عبيدة مثل شيخه جابر لا يتخلّف عن الحجّ، وقد كان للمجموعة المقيمة في مكّة والمدينة الدّور الفعّال في ربط الصّلة بين جميع الأنصار في أطراف البلاد. كما أنّ هذا اللّقاء كان فرصة لبثّ الدّعوة في الحجيج الوافدين من أطراف العالم الإسلاميّ وتنبيههم إلى ظلم الأمويّين وبعدهم عن تطبيق أحكام الشّريعة الإسلاميّة.

**ثانيهما:** المراسلات وعادة ينقلها أنصار ثقات مغمورون ومن ذلك رسالة الإمام أبي عبيدة لأهل المغرب في الزّكاة إذ لا نعلم من نقلها ولا كيف وصلت إلى مركز الإمامة بطرابلس.

ولا يفوتنا أن ننبّه هنا إلى أنّ مثل هذه المراسلات لا يمكن أن تبقى مع الزّمن لأنّ مركز القيادة كما نعلم ذلك مع الإمام جابر يأمر بإتلافها حال الاستفادة منها.

وبهذا تمّ لأبي عبيدة بناء مجتمع مترابط الأواصر رغم بعد الدّيار لأنّه يقوم على منهج واحد، تردعه سلطة أدبيّة تتمثّل في البراءة من كلّ من ينحرف على المنهج السّويّ فكريّا أو مادّيا، ومن ذلك براءة الجماعة بإذن الإمام من بعض من ولّوا

وجههم شطر النّزعة القدريّة الّتي بدأت تنتشر في تلك الأيّام مع رؤوس أهل العدل والتّوحيد. [الجّعبيري: أبو حمزة الشّاري. ط عُمان د.تا. ٣٠]

فللرّجل باع في جميع علوم عصره من تفسير وحديث وكلام وفقه، ونلحّ خاصّة على عطائه في بابي الحديث والفقه، ذلك أنّ سلسلة سند الحديث عند الإباضيّة تقوم على ثلاثيّة محورها الأوّل أبو عبيدة [ر. الرّبيع بن حبيب ضمن هذه الموسوعة] . أمّا عن الفقه فهو بدون منازع فقيه أهل الدّعوة في زمانه وإمامها ومرجع الفتوى في كلّ ما يطرأ من القضايا المستجدّة وإليه يرجع الفضل بعد الإمام جابر بن زيد في إرساء منهج المدرسة الإباضيّة في الفقه وهو يقوم على الأخذ بالقرآن الكريم ثمّ بالسنّة الشّريفة ثمّ بالإجماع والقياس [الرّاشدي: الإمام أبو عبيدة ٤٥١-٤٦٥] .

من مؤلّفاته: ١- رسالة لأهل المغرب في الزّكاة حقّقها مبارك الرّاشديّ ضمن دراسته الموسومة بـ: الإمام أبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة التّميميّ وفقهه ٤٥ - ١٤٥ مطابع الوفاء المنصورة ط ١، ١٤١٣ - ١٩٩٣ ص ٤٩٧ - ٥٧٢.

يرجح المحقّق أنّها جواب على رسالة وردت من إسماعيل ابن سليمان المغربي، من معاصري الإمام أبي الخطّاب المعافريّ بطرابلس.

وقد رتّب مسائلها الّتي جاءت متداخلة ومتكرّرة إلى إحدى وأربعين مسألة تبدأ بجمع الزّكاة وتفريقها وتنتهي بقضيّة بناء المساجد من الزّكاة.

ويثبت المحقّق أنّ هذه الرّسالة تتميّز بميزتين أولاهما أنّها تمثّل فقه الإمام أبي عبيدة المباشر من غير واسطة تلاميذه ذلك أنّ أغلب آرائه جاءت من مدوّنات هؤلاء التّلاميذ.

ثانيتهما أنّها تبيّن الارتباط الوثيق بين أبي عبيدة في مركز الدّعوة بالبصرة وبين أهل المغرب وهم جناح من أجنحة أهل الدّعوة مثل خراسان واليمن والحجاز. وفي هذا دلالة على وحدة السّياسة العامّة الّتي يسير عليها الإباضيّة، وتخصّ الرّسالة هنا السّياسة الماليّة في أحد محاورها وهو الزّكاة.

وللرّسالة أبعاد حضاريّة جمّة إلى جانب قيمتها الفقهيّة فهي نموذج لدراسة الأحوال الاجتماعيّة المتحوّلة في الأربعينيّة الأولى من القرن الثّاني للهجرة في حيّز طرابلس وإفريقيّة، يتمثّل في الاحتكاك بين الخلافة العبّاسيّة النّاشئة وأتباعها وبين الإمامة الإباضيّة النّاشئة هي الأخرى وأتباعها، ولكلّ منهما مدرسة فقهيّة يعتدّ بها.

٢ - رسالة الإمامين أبي عبيدة وحاجب بن مودود الطّائي إلى أهل المغرب.

[الرّاشديّ: الإمام أبو عبيدة ملحق ١ ص ٥٧٩، ٥٨٣] تعالج هذه الرّسالة قضيّة أساسيّة من قضايا الفكر الإباضيّ وهي قضيّة الولاية والبراءة المندرج ضمن باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

وهي تعتبر من النّصوص الأولى الّتي اعتمدت في ما بعد للتّنظير لهذه القضيّة إلى جانب مواقف للإمام جابر بن زيد وأبي عبيدة نفسه وخطب لطالب الحقّ ولأبي حمزة وغيرهما.

وتتميّز الرّسالة بتهوينها لقضيّة الإمام الحارث والقاضي عبد الجبّار اللّذين وجدا مقتولين وسيف كلّ منها في جوف الآخر، والدّعوة إلى الائتلاف والسّكوت عن هذه القضيّة وذلك لأنّ الإمام أبا الخطّاب عندما تولّى الإمامة اشترط على المبايعين ألاّ يثيروا هذه القضيّة لما أحدثته من فتنة قبله.

ولقد كان لهذه الرّسالة أثرها الفعّال إذ سكت عن القضيّة على أنّها ليست من أسس الدّين وليست ممّا لا يسع جهله حسب التّعبير الإباضيّ.

ولمزيد الاطّلاع على قضيّة الولاية والبراءة والوقوف في الفكر الإباضيّ [ر. النّامي: دراسات ٢٣٩ - ٢٧٥].

٣ – مسائل أبي عبيدة خ ٣٨ صفحة (غير كاملة في حوزة الشّيخ يوسف العطفاوي، العطف، مزاب) (ر. النّامي دراسات: ص ٢٩٨): حسب النّصوص الّتي اعتمدها النّامي في بحثه تعالج هذه المسائل قضايا في السّياسة والفقه والحديث (ر. ص ٥٣ - ٨٠. ١٢١ –١٢٣-١٢٤-١٢٧-١٢٨-١٤٢) من ذلك تعليق أبي عبيدة على اعتبار الإمام عليّ شعار المحكّمة:« لا حكم إلاّ لله » كلمة حقّ أريد بها باطل. قال أبو عبيدة:« لقد علم عليّ أنّ شعارهم هو الحقّ، فمن أخبره أنّهم يريدون به باطل » (مسائل ٢٥. النّامي: دراسات: ٥٣)

ومن ذلك قول أبي عبيدة:« كلّ صاحب حديث ليس له إمام في الفقه فهو ضالّ، ولولا أنّ الله منّ علينا بجابر بن زيد لضللنا.» (مسائل ٣٧. النّامي: دراسات: ٨٠)

ومن ذلك قول أبي عبيدة:« لا يؤثّر تغيير موقع لا كلمات في أحاديث الرّسول عليه السّلام أو الآثار، بأن نقدّمها أو نؤخّرها إذا بقي المعنى واحدًا.» (مسائل ٢٣-٢٤. النّامي: دراسات: ١٢٧).

أبو زكريّاء: السّيرة وأخبار الأئمّة تحقيق عبد الرّحمان أيّوب. ط ١ الدّار التّونسيّة للنّشر ١٤٠٥ - ١٩٥٨، المطبعة العربيّة التّونسيّة. ٥٥ - الدّرجيني. طبقات المشائخ بالمغرب. مطبعة البعث الجزائر. إخراج إبراهيم طلاّي ط ١. دتا، ١٩٧٤. ٢ / ٢٣٨ - ٢٤٦. - الشّماخي: كتاب السّير. وزارة التّراث القوميّ والثّقافة، سلطنة عمان تحقيق أحمد بن سعود السّيابي. ١ / ٨٧. - د. النّامي: دراسات عن الإباضيّة، ترجمة ميخائيل خوري. مراجعة د. ماهر جرّار. دقّق أصوله وعلّق عليه د. محمّد صالح ناصر. د. مصطفى صالح باجو. دار الغرب الإسلاميّ ط ١. ٢٠٠١، ٩٥ - ١٠٨. - مبارك بن عبد الله الرّاشديّ: الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التّميميّ وفقهه. ٤٥ - ١٤٥. مطابع الوفاء. المنصورة ط ١ - ١٤١٣ - ١٩٩٣. - معجم أعلام الإباضيّة من القرن الأوّل الهجريّ إلى العصر الحاضر قسم المغرب الإسلاميّ. دار الغرب الإسلاميّ ١٤٢٠ - ١٩٩٩. ط ٢. ج ٢، ٤١٨ - ٤٢٠. فرحات الجعبيري: أبو عبيدة ضمن تراجم أخرى. ط. النّهضة عُمان ٢٠٠١.

# عبد الله بن يحيى بن عمر الكندي الحضرمي اليمني

**عبد الله بن يحيى بن عمر الكندي الحضرمي اليمني** يكنى بأبي يحيى واشتهر **بطالب الحقّ** (حوالي ٩٠/ ١٣١-٧٠٩/ ٧٤٩) نشأته الأولى بحضرموت، وتعلّم بالمدرسة الإباضيّة بالبصرة.

**شيوخه:**

١. أبو عبيدة مسلم ابن أبي كريمة ١٤٥/ ٧٦٣.

٢. ضمام بن السّائب. لعلّه توفّي قبل الإمام أبي عبيدة.

٣. أبو نوح صالح الدّهان (النّصف الأوّل ق ٢/ ٨).

**خلاّنه:** لا يمكن أن نتحدّث عن تلاميذ طالب الحق وإنّما نذكر خلاّنه الّذين عيّنهم الإمام لمؤازرته في إقامة الإمامة:

١. أبو حمزة المختار بن عوف [الشّاري].

٢. بلج بن عقبة الفراهيدي الأزدي.

٣. يحيى بن حرب.

٤. أبرهة بن عليّ.

٥. ابن عيسى.

٦. أبو أيوّب وائل بن أيّوب الحضرمي.

وصول الدّعوة الإباضيّة إلى اليمن: لقد فنّد عوض خليفات في كتابه نشأة الحركة الإباضيّة ما جاء عند الطّبري وابن الأثير [الطّبري: ٢ / ١٤٩٢ - ١٤٩٣. ابن الأثير ٥/ ٣٥١] من أنّ طالب الحقّ لم يكن إباضيّا في الأصل وإنّما التقى في موسم الحجّ سنة ١٢٨ / ٧٤٦ أبا حمزة الشّاري الّذي كان يدعو لمذهب الإباضيّة فأعجب طالب الحقّ بدعوة أبي حمزة الشّاري، ودعاه إلى مرافقته إلى حضرموت ففعل. وهناك بايع أبو حمزة طالب الحقّ بالخلافة ودعا معه إلى محاربة مروان الثّاني آخر خلفاء بني أميّة، وأدلّته على ذلك ما يلي:

١. إنّ هذا الموقف ليس من عادة الإباضيّة في تعيين إمام، وإنّما مسلكهم في ذلك يعتمد على غاية التّحري داخل مركز دعوتهم في البصرة وعلى رأسهم الإمام أبو عبيدة مسلم ابن أبي كريمة مع العلم أنّ أبا حمزة لم يصل بعد إلى مثل هذه الدّرجة كما تثبت ذلك المصادر الإباضيّة.

٢. وهل يكفي لقاء واحد ليصبر عبد الله ابن يحيى من أقطاب المذهب ليعيّن إماما وقائدا لثورة مثل الثّورة الّتي قادها طالب الحقّ؟.

٣. تجمع المصادر الإباضيّة وبعض من المصادر الأخرى على أنّ أبا حمزة ومن معه أرسلوا لتدعيم طالب الحقّ في حضرموت. وسنعود إلى بعض التّفاصيل في هذا الشّأن في ما بعد... تبعا لما تقدّم فإنّ الباحث يعتقد أنّ طالب الحقّ كان في الأصل إباضيّا وكان يدعو لمذهبه سرّا في حضرموت حتّى لا يتعرّض لأذى من الولاة القيسيين هناك. ولذلك فإنّ المصادر غير الإباضيّة قد أغفلت ذكره قبل

إعلان ثورته عام ١٢٩ / ٧٤٨، وخاصّة أنّ تلك المصادر كانت تجهل التّنظيم الإباضيّ في تلك المرحلة وفي تلك المنطقة. [ر. عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضيّة:١١٧ - ١١٩]

عبد اللهّ بن يحيى قاضي حضرموت: لقد درج أهل الدّعوة على القدرة الكاملة على التّقيّة في مسلك الكتمان، وإن استطاع كاتب الحجّاج بن يوسف (يزيد ابن أبي سلمة) أن يكون من أهل الدّعوة أومن المناصرين لهم، وأن يبعد كلّ تهمة عن الإمام جابر [الدّرجيني: طبقات ٢/ ٢٦٢.] فلا غرابة في أن يصل عبد الله بن يحيى وهو من هؤلاء أن يكون قاضيا في حضرموت لعامل عمّ الحجّاج القاسم بن عمر الثّقفيّ على حضرموت وهو إبراهيم بن جبلة ولم يكن قبوله لهذه الخطّة من أجل الإثراء ومؤازرة الثّقفيّين في ظلم قرابته وذويه وبني بلده، وإنّما هو التّخطيط المحكم للمستقبل لتخليص البلاد من كلّ عسف واستبداد.

وكتب التّاريخ تطنب في تصوير عسف الثّقفيّين بأهل اليمن، ذاك أنّ قرابة نصف الولاة على اليمن زمن الدّولة الأمويّة كانوا ثقفيّين. [أحمد جابر عفيف: الحركة الإباضيّة في بلاد اليمن.٤٠] [مهدي طالب هاشم: الحركة الإباضيّة في المشرق العربي ١٠٢].

وفعلا إنّ خطّة القضاء قرّبت طالب الحقّ من بني جلدته الّذين كان كثير منهم يكتم انتماءه في انتظار الفرصة السّانحة.

ولمّا تهيّأت الأسباب المناسبة لإعلان الثّورة لم يكن من هذا القاضي إلاّ أن يعلّل ضرورة قيامها بما يلي كما جاء في كتاب الأغاني: « رأى (عبد الله بن يحيى) باليمن جورا ظاهرا وعسفا شديدا، وسيرة في النّاس قبيحة فقال لأصحابه: ما يحلّ لنا المقام على ما نرى ولا يسعنا الصّبر عليه. » [الأصبهاني: كتاب الأغاني ٢٣/ ١١١ - ١١٢]

ولم يكن من طالب الحقّ أن يقول مثل هذا الكلام إلاّ وهو على يقين ممّا كان يدور من حديث حول الاستعداد للثّورة في الحلقات الخاصّة في مجلس أبي عبيدة بالبصرة، والتّذكير بهذا الحديث يدعّم ذلك. ويروي أبو سفيان وهو شاهد عيان فيقول: « فجئنا فأذن لنا فوجدنا المختار بن عوف ورجلين أو ثلاثة من المشائخ. فقال لنا حاجب: أخبرا بلج بن عقبة وأخبراه بمكاننا، فأخبرناه فأتى فلمّا صلّينا العتمة أخذوا في الكلام فيقوم أحدهم فيتكلّم ما شاء الله ثمّ يجلس فيقوم الآخر فكذلك حتّى أضاء الصّبح... » [الشّماخي: السّير: ٩١]

هكذا نتبيّن أنّها تهيّأت الأسباب الدّاخليّة لهذا القاضي إذ لا يمكن أن يتخلّى عنه كلّ الكنود وغيرهم من أهل حضرموت لما رأوا من حسن سيرته ومن سعيه لطلب الحقّ ونشر العدل والإنصاف بين المتخاصمين مقابل ما يعرفونه من الثّقافيّين وعمّالهم من الحيف والظّلم.

والأسباب الخارجيّة في مستويين: في مستوى الخلافة الأمويّة الّتي تناهشتها الثّورات من كلّ مكان وعلى رأسها الثّورة العبّاسيّة ممّا جعلها تصل إلى مرحلة الشّيخوخة مع مروان بن محمّد.

وفي مستوى مركز قيادة أهل الدّعوة في البصرة حيث كان الجميع يتحيّن الفرصة السّانحة للتّحوّل إلى الظّهور بعد أن طالت مرحلة القعود والكتمان الّتي قرّرها الإمام عبد الله بن إباض بإذن الإمام جابر بن زيد سنة ٦٤/ ٦٨٤ في صومعة البصرة فلم لا تكون هذه الفرصة حينئذ في بلاد اليمن؟.

عبد الله بن يحيى وإعلان الإمامة: لم يبق لطالب الحقّ إلاّ طلب الإذن من الإمام أبي عبيدة في مركز الدّعوة بالبصرة في كنف الكتمان والسّريّة الكاملة، وفعلا حالما استشار طالب الحقّ الجماعة هناك لم يكن منهم إلاّ أن هلّلوا وقالوا بصوت واحد: « إن استطعت ألاّ تقيم يوما واحدا فافعل، فإنّ المبادرة بالعمل أفضل. ولا تدري متى يأتي عليك أجلك، ولله خيرة في عباده يبعثهم إذا شاء لنصر دينه، ويختصّ بالشّهادة منهم من يشاء. » [الأغاني: ٢٣/ ١١٢]

نعم إنّ عبد الله خيرة من عباد الله، تلك هي شهادة شيخه وخلاّنه بمركز الدّعوة بالبصرة، وهوأهل ليقود هذه الثّورة الّتي طال انتظار أهل الاستقامة لها، ولولا حكمة القيادة، وانقياد القاعدة لانفجرت من زمان.

وقد كانت المؤازرة قوليّة وفعليّة: أمّا القوليّة: فتمثّلت في تقديم النّصيحة للإقبال على الثّورة حسب قواعد الشّريعة السّمحة، ومن ذلك ما جاء في إحدى رسائل الإمام أبي عبيدة ما يلي: « إلى عبد الله بن يحيى إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تعدوا، واقتدوا بأسلافكم الصّالحين، واستنّوا بسنّتهم، فقد علمتم إنّما أخرجهم على السّلطان العيب لأعمالهم. » [الرّقيشي: مصباح الظّلام. ورقة ٣٢ أ] وأمّا الفعليّة

فتمثّلت في توفير العدد والعدّة بقدر الإمكان، وقد عيّن الإمام أبو عبيدة للاضطلاع بهذه التّعبئة عضده الأيمن في البصرة ألا وهو حاجب بن مودود الطّائيّ، من أصل عمانيّ ولد في البصرة، فقام بها أحسن قيام لأنّ أمره كان مطاعا. [الدّرجيني: طبقات: ٢/ ٢٦٢]

هكذا اجتمع السّلاح والمال فقدّما إلى أبي حمزة ليقود الجيش المتوجّه إلى اليمن فيصفه أبو عبيدة: « إنّا بعثنا لك اثني عشر رجلا وألفا ويعني بالألف بلج بن عقبة الفراهيدي الأزدي. » [الشّماخي: سير: ٩٩]

ونحن نعلم أنّ الشّراء لا يعتمد على كثرة العدد بقدر ما يعتمد على التّعبئة الإيمانيّة، كما أنّ جمعا كهذا لا يلفت الأنظار في رحلته إلى اليمن.

الاستيلاء على حضرموت: وحالما وصل الرّكب، مع من وصل في طيّ الكتمان والتأم مع من تجمّع من إباضيّة حضرموت، هبّت الجماعة لمبايعة عبد الله بن يحيى إماما للظّهور، ولم تدقّ في هذه المناسبة الطّبول، وإنّما خرّ الحاضرون ساجدين لربّ العالمين راجين منه حسن القبول، وهم على علم بما ينتظرهم من العمُل الدّؤوب لإرساء قواعد هذه الإمامة في واقع الحياة، وبما سيلقون من بلاء ممّن تربّعوا على كرسيّ (الخلافة) منذ ما يقارب القرن، هؤلاء الّذين انطلت حيلهم على كثير من النّاس إذ اعتبروا معهم أنّ كلّ ثائر على الأمويّين خارج عن الحقّ يجب أن يحارب.

وإثر هذه البيعة لم يكن من طالب الحقّ، وقد صار طالب الحقّ بحقّ إلاّ إن انطلق ليسترجع الحقّ من مغتصبيه، فاتّجه إلى دار الولاية وهو بها عليم، لكن لا يجلس إلى العامل وإنّما ليجلس مجلس الإمامة مكان العامل وهو آنذاك إبراهيم ابن جبلة.

ويحوّل العامل من مركز القيادة إلى السّجن لكنّه ليس كسجن الحجّاج وأمثاله من الثّقفيّين وغيرهم، وإنّما هي إقامة مؤقّتة في الحفظ والأمان، الغرض منها حماية العامل لا تعذيبه.

وفعلا لم يمض يوم حتّى خيّر العامل بين الإقامة في دولة الإمام عبد الله بحضرموت، له ما للأمّة وعليه ما عليها، والمغادرة حيث يشاء بدون قيد ولا شرط.

إنّها السّماحة بعينها، وإنّها لأقوى دليل على أنّ الدّولة الجديدة لا رغبة لها في سفك الدّماء، وإنّما همّها أن تنصف المظلوم، وتقيم العدل في ظلّ شريعة الإسلام، ولكن أنّى لإبراهيم بن جبلة مثل هذه المعاني السّامية وهو أحد تلاميذ بني ثقيف، وإنّه الكرسيّ في النّهاية فكلّ النّاس يرغب في الصّعود إليه ويكره النّزول منه ولو برفق مثل هذا الرّفق.

وما أن أطلق سراحه حتّى سارع إلى صنعاء حيث يقيم القاسم الثّقفيّ والي الدّولة الأمويّة على اليمن بما له من قوّة وعتاد، وما أن بلغه الخبر وتأكّد ذلك بوصول عامله إبراهيم ابن جبلة حتّى بدأ يستعدّ للمواجهة.

أمّا حضرموت فقد صارت مركز إمامة الظّهور، وطار الخبر إلى أطراف البلاد، ووصلت الجموع الإباضيّة من كلّ مكان لتعيش في ظلال الإمامة الفتيّة ولتضحّي من أجلها بالمال والنّفس، وبكلّ غال ونفيس.

ولا شكّ في أنّ الإمام عبد الله يعلم أنّه لا يمكن أن يستقرّ له الأمر إلاّ بالتّمكّن من صنعاء، وما قيمة إمامة ظهور لا تنشر الحقّ إلاّ في مدينة واحدة، لقد مضى عهد السّرية والكتمان، ولا بدّ من إظهار الحقّ لا في اليمن فحسب، وإنّما في أطراف البلاد، ولم لا يكون ذلك في الحجاز؟ وحتّى في الشّام معقل الأمويّين ومركز قوّتهم وعسفهم، وتلك كانت الخطّة فعلا.

بعد إقرار إمامة الظّهور بحضرموت ولّى الإمام طالب الحقّ وجهه شطر مدينة صنعاء وهي « قصبة اليمن وأحسن بلادها » [ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ٤٢٦] ، وبعد معركتين حاسمتين تمكّن من الاستيلاء عليها وهذا صاحب كتاب الأغاني يصف نهاية المعركة الأخيرة. [الأغاني: ٢٣/ ١١٤] : « ودخل عبد الله بن يحيى صنعاء، فأخذ الضّحاك ابن زمل وإبراهيم بن جبلة في مغرمة فحبسهما، وجمع الخزائن والأموال فأحرزها ثمّ أرسل إلى الضّحاك وإبراهيم فأرسلهما وقال لهما: حبستكما خوفا عليكما من العامّة، وليس عليكما مكروه فأقيما إن شئتما أو اشخصا، فخرجا. »

نفهم من هذا النّص وغيره أنّ الإمام طالب الحقّ حالما كتب له النّصر اتّخذ عدّة إجراءات قلبت مجرى حياة أهل اليمن ظهرا على عقب إذ بعد أن كان « يرى باليمن

جورا وعسفا شديدا وسيرة قبيحة » يجمع المؤرّخون على أنّه أحسن في النّاس السّيرة وكان ليّن الجانب كافّا عن النّاس. الإجراء الأوّل: عسكريّ. - لا سبيل إلى الإجهاز على المدبّرين: القدوة في ذلك موقف الإمام عليّ كرّم الله وجهه عند الانتصار يوم معركة الجمل. - لا سبيل إلى استحلال الدّماء والأموال والفروج. - عودة الجنود المتطوّعين إلى الحياة العاديّة. الإجراء الثّاني: سياسيّ - حسن التّصرّف مع عامليّ القاسم الثّقفيّ. - الاعتذار على ما أصابهما من حبس مؤقّت، ولم يكن إلاّ من أجل مصلحتهما: وأيّ حبس هو. - تخييرهما بين الانصراف والبقاء. - لا ينبغي أن نغفل عن أنّ إبراهيم بن جبلة يطلق سراحه للمرّة الثّانية.

الإجراء الثّالث: ماليّ نورد نصّ الشّماخي بدون أيّ تعليق:

« إنّ عبد الله بن مسعود وابن خيران وهما من الإباضيّة قد أتيا بالأموال الّتي أحرزها طالب الحقّ إلى المسجد فقسّمها (الإمام) على فقراء صنعاء بالسّويّة، ولم يسمح للإباضيّة أن يأخذوا منها شيئا. » [الشّماخي: سير: ١٠٠]

الإجراء الرّابع: اجتماعيّ وهذا الإجراء نقتطعه من خطبته الّتي ألقاها بصنعاء عندما تمّ له النّصر: « أيّها النّاس نخيّركم من ثلاث خصال أيّها شئتم، فخذوا لأنفسكم، رحم الله إمرءا اتّخذ الخيار لنفسه:

١. « على أن يجاهد معنا بنفسه فيكون له من الأجر ما لأفضلنا ومن قسم الفيء ما لبعضنا »

٢. « أو أقام في داره فدعا النّاس إليه بقلبه ولسانه فعلّه ألاّ يكون ذلك أخسر منازله »

٣. « أو كرهنا فليخرج بأمان إلى ماله وأهله، ويكفّ عنّا يده ولسانه، فإن ظفرنا لم يكن عرض لنا نفسه، ولم يحملنا على سفك دمه، وإن قتلنا كان قد كفي مؤازرتنا عسى ألاّ يعمّر بعدنا إلاّ قليلا. »

فواضح أنّه: - إمّا الولاء الكامل. - وإمّا الولاء دون تحمّل المسؤوليّة. - وإمّا ملازمة الحياد.

ولم يتمّ تحويل هذه الإجراءات إلى صميم الواقع إلاّ بعد أن ألقى الإمام في جموع أهل اليمن بصنعاء خطبة وضّح فيها مسلك أهل الاستقامة: إنّه مسلك يعرف بالظّهور، يستمدّ أسسه من كتاب الله تعالى، وسنّة المصطفى ﷺ، وسير الصّالحين من الخلفاء الرّاشدين، ومن تبعهم بإحسان على المسلك القويم. [ر.الجّعبيري: تراجم إباضيّة عمان ٢٠٠١].

من اليمن إلى الحرمين الشّريفين: لم يكن تخطيط الإباضيّة لينحصر في السّيطرة على اليمن، بل كان أملهم أوسع من ذلك بكثير، ويتمثّل ذلك في الإطاحة بالملك الأمويّ الوراثيّ الجائر وإقامة الإمامة العادلة على مسلك الخلافة الرّاشدة، وللوصول إلى ذلك لا بدّ من الانطلاق من المحيط الّذي يقدّسه المسلمون جميعا ألا وهو الحرمان الشّريفان مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة.

ولم يكن هذا التّفكير وليد الصّدفة وإنّما كانت قد هيّئت له الأسباب من قبل إذ لم يكن أئمّة الإباضيّة وشيوخهم يتخلّفون عن موسم الحجّ إلاّ للضّرورات القاهرة كذا كان الإمام جابر بن زيد وكذا هو الإمام أبو عبيدة في هذه المرحلة.

وقد أقامت جماعة منهم هنالك يقودها في هذا الظّرف أبو الحرّ عليّ بن الحصين، وتتّضح هذه الحقيقة من نصّ لابن سلاّم [ابن سلاّم: بدء الإسلام: ١٠٩] ومن حدثين هامّين ذكرتهما كتب السّير.[الشّماخي: سير ١٠٠]

أمّا نصّ ابن سلاّم فيتمثّل في التّعريف بنشاط أهل الاستقامة بمكّة والمدينة وأمّا الحدثان فيتمثّلان في نجاة كلّ من أبي الحرّ عليّ بن الحصين وأبي حمزة من اعتقال الأمويّين.

وفعلا انطلق الجيش بقيادة أبي حمزة الشّاري صوب الحرمين الشّريفين مكّة المكرّمة ثمّ المدينة المنوّرة ففاجأ عامل الأمويّين في عرفة والنّاس وقوف يوم الحجّ الأكبر فلم يكن من العامل إلاّ أن دعا إلى الهدنة فتقاسم الموسم طرفان طرف الدّولة وطرف أبي حمزة ثمّ تمّ اللّقاء في جولتين أسفر عن فرار العامل عبد الواحد « وخلّى مكّة لأبي حمزة فدخلها بغير قتال » [الأغاني: ٢٣ / ١١٨] وهنالك ألقى أبو حمزة خطبته الشّهيرة الّتي حيّرت المبصر وبصّرت المرتاب على حدّ عبارة الإمام مالك ومن المفيد أن نذكّر باستسلام مدينة الطّائف لأبي حمزة عند مروره بها نحو مكّة المكرّمة [مهدي طالب هاشم: ١٣٢].

وما كان أبو حمزة ينوي الهجوم على المدينة وإنّما أراد المرور بها للوصول إلى دمشق مركز الخلافة لكنّ العامل الفارّ من مكّة أبى إلاّ الصّدام فكانت معركة حاسمة انتهت بنصر أبي حمزة فألقى على منبر رسول الله ﷺ بيانا آخر من صنف البيان الّذي ألقاه بمكّة فبيّن فيه ما يرفضه أهل الدّعوة من الظّلم وما يقرّونه من العدل [الأغاني ٢٣ / ١٢٤:]

لم يكن مروان آخر خلفاء بني أميّة ليسكت على هذه الهزيمة في الموطن الّذي يعتبر شعار المسلمين فعبّأ جيشا قوامه أربعة آلاف مقاتل بقيادة عبد الملك بن عطيّة تمكّن بما اعتمده من خطط حربيّة جديدة « ومنهم من عليه درعان أودرع وسنور تجافيف عدّة لم ير مثلها في ذلك الزّمان » [الطّبريّ: تاريخ ٤ / ٣٣١] من أن يهزم الإباضيّة بالحرمين الشّريفين وأن يسترجعها لحكم الأمويّين. [هذه الموسوعة: أبو حمزة الشّاري].

ثمّ انطلق بعد ذلك إلى اليمن ليتمكّن من إمامها طالب الحقّ بعد أن صمد في وجهه غاية الصّمود وبعث برأسه إلى دمشق [الأغانيّ ٢٣ / ١٤٧] لكن فئة من الإباضيّة اعترضوا طريق ابن عطيّة وثأروا لإخوانهم.

ولم تكن بلاد اليمن السّعيدة لتستسلم رغم ما أقامه فيها ابن عطيّة من مجازر، إذ قد رسخت في نصيب من أهلها عقيدة أهل الاستقامة بل ظلّت معقلا من معاقل الإباضيّة حتّى القرن الثّامن للهجرة / ١٤.

وليس لنا إلاّ أن نختم هذه النّبذة عن الإمام طالب الحقّ وعمّن آزروه وناصروه بهذه الفقرة من خطبته في اليمن: « الإسلام ديننا ومحمّد نبيّنا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا ... » [نايت معروض: ديوان الخوارج. دار المسيرة، بيروت ط ١ ١٤٠٣ - ١٩٨٣، ص ٢٥٩ - ٢٦٠.]

الدّرجيني: طبقات: ٢ / ٢٥٨ - ٢٧٢. الشّماخي: سير بارونيّة: ٩٨ - ١٠٢ الأغاني: ٢٣ / ١١١ [أهمّ مصدرة عن ثورة طالب الحقّ] . النّامي: دراسات عن الإباضيّة. دار الغرب الإسلامي. النّصر المعرب. بيروت. ٢٠٠١. عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضيّة. عمّان الأردن ١٣٩٨ - ١٩٨٩. مهدي طالب هاشم: الحركة الإباضيّة في المشرق العربيّ بغداد. ١٣٩٧ - ١٩٧٧. تاج الدّين اليمانيّ: تاريخ اليمن المسمّى بهجة الزّمن في تاريخ اليمن. تحقيق مصطفى حجازي صنعاء. ط ٢. ١٤٠٢ - ١٩٨٥.

Radhi Daghfous: Le Yaman Islamique. Des origines jusqu'à l'avènement des dynasties autonomes. (١-٣/VII-IX) I.M.P. stag. Tunis. ١٩٩٥.

# المختار بن عوف بن عبد الله السّليمي الأزدي العماني الشّاري (أبو حمزة)

## (جمادى الثّاني ١٣٠-٧٤٨)

يثبت ابن مداد في سيرته أنّه ولد بمجز « وخرج المختار ابن عوف وهومن مجز » السّيرة ص ٦. وهي إحدى قرى مدينة صحار « قصبة عمان » ياقوت معجم البلدان ٣ / ٣٩٣ الّتي استقبلت رسول رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ثمّ كانت ملاذا للإمام جابر بن زيد عندما نفاه الحجّاج. في هذا المحيط نشأ المختار بن عوف فنهل من ينابيع أهل الاستقامة وسمع عن مركز أهل الدّعوة في البصرة.

فارتحل إلى هذه المدينة لينضمّ إلى حلقات أبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة (١٤٥ - ٧٦٢) إمام الإباضيّة الثّاني فارتقى في درجات مجالسه إلى أن صار من أهل الحلّ والعقد. قال المليح: « فوجدنا عنده (أبي عبيدة) المختار بن عوف ورجلين أوثلاثة من المشائخ. » (الدّرجيني: طبقات ٢ / ٢٤٩).

وهذا شيخه أبو عبيدة ينوّه بسعة اطّلاعه فيقول عنه: « رجل إنجيله في صدره » (الشّماخي: سير ٩٩)

لقد عايش المختار بن عوف مجالس أبي عبيدة وأصحابها في نهاية العقد الثّالث من القرن الثّاني للهجرة وهم يخطّطون لإقامة إمامة الظّهور وللإطاحة بالحكم الأمويّ لما قاسوا من عسف ولاته في البصرة وسجونهم، كما كانت تخطّط لذلك حركات أخرى في أطراف العالم الإسلاميّ مثل حركة العبّاسيّين النّاشئة.

ولتحقيق الغرض المتمثّل في الرّغبة في الوصول إلى تحقيق إمرة المؤمنين جميعا تمّت التّعبئة في البصرة بإثارة مسلك الشّراء « وقال: سمعت عبد الملك الطّويل يحدّث عن المختار بن عوف الكنديّ قال: أدركت المسلمين إذا كان الرّجل منهم ما لا يستزاد في صلاة ولا صيام ولا في حجّ ولا في عمرة ولا في وجه من الوجوه إن عرف منه أنّه ليس بشديد الحرص في الشّراء سقط من أعينهم ونقصت منزلته عندهم » (الشمّاخي: سير: ٩٩) وأساسه أنّ الشّاري لا سبيل له إلى الرّجوع إلى الحياة العاديّة إمّا النّصر وإمّا الشّهادة، وبجمع الأموال لإعداد العدّة للثّورة في أحد المواطن المناسبة حيث يتوفّر عدد الأنصار وقد تكفّل بذلك صديق أبي حمزة وهو أبو مودود حاجب الطّائيّ.

وفعلا لقد خطّط مركز الدّعوة في البصرة لذلك إذ أرسل دعاة لأطراف البلاد بعيدا عن دمشق عاصمة الخلافة وبعيدا عن البصرة وما جوارها لما للولاة من نفوذ وقوّة فيها فكان ذلك في بلاد المغرب بداية من مصر إلى المغرب الأوسط، وفي بلاد اليمن، وفي الحرمين الشّريفين.

أمّا عن صلة أبي حمزة بالحرمين الشّريفين فقد كانت سنويّة إذ يقول الطّبريّ: « كان أوّل أمر أبي حمزة أنّه كان يوافي كلّ سنة مكّة يدعوالنّاس إلى خلاف مروان بن محمّد وإلى خلاف آل مروان » (تاريخ: ٤ / ٣٠٢).

كما كانت له سابقة زمن هاشم إذ يقول لأهل المدينة: « يا أهل المدينة مررت بكم في زمن الأحوال هشام بن عبد الملك، وقد أصابتكم عاهة في ثماركم » (طبريّ: تاريخ: ٤ / ٣٢٩)

وما كان أبو حمزة يقدر على مثل هذه الحركيّة لولا النّواة الإباضيّة الصّلبة الّتي كانت تقيم بمكّة، والّتي يرعاها أبو الحرّ عليّ بن الحصين خاصّة في موسم الحجّ للرّبط بين أنصار أهل الاستقامة في المشرق والمغرب ولتعريف الحجيج جميعا بالدّعوة عامّة. وسنذكر بعد حين ما سيكون له من دور فعّال في مؤازرة أبي حمزة عندما عيّن على رأس الجيش الّذي وجّهه طالب الحقّ للإطاحة بالخلافة الأمويّة مرورا بالحجاز.

ولا نطيل الحديث عن انتصار عبد الله بن يحيى بحضرموت وصنعاء وإعلانه إمامة الظّهور فلينظر في ترجمة طالب الحقّ.

تتفّق المصادر على أنّ طالب الحقّ أحسن السّيرة باليمن كما وعد من قبل لكن همّ أهل الدّعوة ليس في اليمن ذلك أنّهم آمنوا أنّ دعوتهم ليس دعوة إقليميّة وإنّما اختاروا اليمن لتكون منطلقا للمسيرة الكبرى لما تهيّأ لهم فيها من الأسباب المادية والمعنويّة.

إنّها دعوة إسلاميّة عامّة ترمي إلى محاربة الجور فإمّا تحقيق الإمامة العظمى الّتي توحّد العالم الإسلاميّ وإمّا الشّهادة في سبيل الله.

وهنالك صدر أمر الإمام طالب الحقّ باتّفاق مع مركز الدّعوة بالبصرة بتحقيق الغرض المنشود فأسندت القيادة العليا للجيش بضمّ ألف ومائة مقاتل من المتطوّعين لأبي حمزة المختار بن عوف مع تعيين مساعدين هما بلج بن عقبة وأبرهة ابن الصّباح.

وتوجّه الجيش نحومكّة المكرّمة عن طريق الطّائف وأعلن المختار بن عوف الثّورة يوم التّاسع من ذي الحجّة ١٢٩ / ٤٤٦ على جبل عرفات بمرأى ومسمع الحجّاج الوافدين من أطراف العالم الإسلاميّ وانضمّ إليه أهل الدّعوة العاملين بمكّة المكرّمة بقيادة أبي الحرّ هذا الّذي توجّس الأمويّون منه خيفة فألقوا عليه القبض وساقوه مكبّلا إلى الشّام لكن أربعة عشر من أصحابه الشّراة بقيادة عيسى بن أبي عمرو تمكّنوا من تخليصه منهم بعدما جاوزوا المدينة بمراحل (الشّماخي: سير: ١٠٠).

ولا نطيل الحديث في شأن هذه الأحداث فذاك مفصّل في المصادر خاصّة منها كتاب الأغاني ج ٢٣ فبعد هدنة ومفاوضات مع عبد الملك بن سليمان والي بني مروان على مكّة ذاك الّذي « نفر من النّفر الأوّل، وخلّى مكّة لأبي حمزة فدخلها بغير قتال » الأغاني ٢٣ / ١٨، ألقى أبو حمزة واحدة من خطبه الشّهيرة تلك الّتي ما تزال كتب التّاريخ والأدب تتناقلها لما فيها من فصاحة وبيان، ولما تثبته من معان إسلاميّة في العلاقة بين الرّاعي والرّعيّة.

وقبل أن نتحوّل مع أبي حمزة إلى المدينة نذكر أنّ مدينة الطّائف لم تعترض سبيله عندما كان متوجّها إلى مكّة ثمّ عندما كتب له النّصر لم يكن منها إلى أن تستسلم.

لم تكن رغبة أبي حمزة مع مساعديه بلج وأبرهة في محاربة أهل المدينة وإنّما رجوهم أن يخلوّا سبيلهم للعبور إلى بلاد الشّام « خلّوا سبيلنا لنسير إلى من ظلمكم وجار في الحكم عليكم، ولا تجعلوا حدّنا بكم، فإنّا لا نريد قتالكم » (الأغاني ٢٣ / ١٢٣).

لكن ما كان لعبيد العزيز بن عبد الله بن عمروبن عثمان ابن عفّان الّذي استعمله الوالي عبد الواحد بن سليمان على النّاس أن يقبل هذا الطّلب فقامت معركة قديد الّتي انتهت بانتصار أبي حمزة الّذي ألقى خطبته الشّهيرة الثّانية الّتي يقول فيها الإمام مالك ابن أنس: « خطبنا أبو حمزة بالمدينة خطبة شكّ فيها المستبصر وردّ بها المرتاب. » (ابن عبد ربّه: العقد ٥ / ٤٥).

وما أن بلغ خبر الهزيمة لمروان بن محمّد في مركز الخلافة حتّى أعدّ العدّة بجيش قوامه أربعة آلاف مقاتل بقيادة عبد الملك بن عطيّة.

وقامت معارك ضارية بين جيش مدجّج بوسائل جديدة تقوم على الدّروع الواقية وجيش قليل العدد يعتمد على سرعة الحركة والمناورة فكان النّصر للجيش الأمويّ في وادي القرى على بلج بن عقبة ذاك الّذي نصب رأسه على رمح وطاف به الطّائف في أطراف البلاد.

ثمّ تأتي معركة مكّة وبعد مواجهتين عنيفتين استطاع ابن عطيّة أن يأسر رؤوس الجيش وهم أبو حمزة وأبرهة بن الصّباح وأبو الحرّ عليّ بن الحصين ورجلان من

أصحابهم فصلبهم جميعا على فم شعب الخيف « ولم يزالوا مصلوبين حتّى أفضى الأمر إلى بني العبّاس. » (الأغاني: ٢٣ / ١٤٤).

وبعد هذه المعركة الضّارية على الحجاز رجع هذا الإقليم إلى الحكم الأمويّ بعد أن أقام فيها أبو حمزة وأصحابه مبادئ أهل الاستقامة ما يقارب السّبعة أشهر ابتداء من دخلوهم مكّة في التّاسع من ذي الحجّة ١٢٩ / ٧٤٦ حتّى لحظة انتهاء أغلبهم في معركة مكّة الّتي كانتِ في جمادى الثّانية ١٣٠ - ٧٤٧.

هذا هو أبو حمزة الشّاري لا الخارجيّ عاش حميدا ومات شهيدا في سبيل إحياء إمامة العدل، وما يزال كلّما ذكر الشّراء اعتبر رمزا من أهمّ رموزه، وكلّما ذكرت الخطابة شهد النّاس أنّه علم من أعلامها.

وبعد هذه النّكبة في الحجاز الّتي تبعتها نكبة اليمن (طالب الحقّ) حوّل الإباضيّة وجّههم شطر عمان وبلاد المغرب.

أ) خطب أبي حمزة:

إنّ المتأمّل في ما أوردته كتب التّاريخ والطّبقات والأدب من خطب أبي حمزة يتبيّن أنّها تتداخل في بعضها البعض ولا يهمّنا في هذه التّرجمة إلاّ نتبيّن بعدها الحضاريّ مثبتين أنّها مجموعة من الوثائق التّاريخيّة المتكاملة تعبّر عن عديد من مواقف الشّراة في العقيدة السّياسة وما إلى ذلك دون أن نقف عند جانبها البياني ذاك ما لم يختلف في شأنه أهل الأدب الّذين أوردوا بعضا من هذه الخطب على أنّها روائع أدبيّة.

والملاحظ أنّ هذه الخطب ألقيت في فترة زمنيّة واحدة في الحجاز لم تتجاوز سبعة أشهر من سنتي ١٢٩ و١٣٠ هـ. وهوعدد أقلّ بكثير ممّا ألقي من خطب، ذلك أنّ خطب الجمعة الّتي لم يكن أبو حمزة ليغفل عنها لا تقلّ عن اثنتي عشرة خطبة عدا المواعظ الأخرى الّتي كانت تلقى في رحاب الحرمين الشّريفين وغيرهما طيلة هذه المدّة الّتي أحسن فيها أبو حمزة السّيرة في هذه الرّبوع.

إنّ هذه الخطب تنمّ عن وعي سياسيّ واضح ذلك أنّ أبا حمزة تتبع سيرة الرّسول عليه السّلام مع سيرة العمرين باعتبارهما المسلك الأسمى الّذي يجب أن يحتذى، ثمّ نوّه بستّ سنين من خلافة عثمان وعاتبه على السّت الأواخر كما نوّه بشرعيّة الإمام عليّ وعراقته في الإسلام وحرصه على العدل وعاتبه على قبول التّحكيم. ثمّ جاء إلى خلفاء بني أميّة واحدا واحدا فوضّح ما تميّز به حكم هؤلاء من خصائص تثبت للعيان أنّهم استووا جميعا في الجور، وإن تفاوتوا في قدر هذا الطّغيان، كما أنّ البعض منهم تجاوز الأخرين في اللّهو. واستثنى عمر ابن عبد العزيز من هؤلاء جميعا.

ولا أطيل الحديث عن السّياسة المرفوضة إنّها سياسة قوامها الجور وكفى، وسأقف عند المنهج المقترح في مستوى السّياسة العامّة، وفي مستوى السّياسة الماليّة.

لقد حدّد أبو حمزة بوضوح أنّ العامل الأساسي للثّورة لم يكن الرّغبة في الملك، « إنّا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرا ولا بطرا، ولا عبثا ولا لهوى، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه... ».

فموقف أبي حمزة واضح تمام الوضوح، لأنّهم لو أرادوا الملك ما سلكوا مثل هذا المسلك، ولتقرّبوا مثلا إلى بني مروان، ونالوا مثل ما نال غيرهم من اللّقم السائغة الّتي تسعد في الدّنيا وتسخط الله في الآخرة.

نعم إنّهم باعوا أنفسهم في سبيل الله لتصحيح مسار التّاريخ، ولإرجاع العدل إلى نصابه، وفعلا خيّروا أهل المدينة بين عدّة اختيارات أبرزها أن يتركوا سبيلهم في مسيرتهم نحوإزهاق الباطل في معدنه، وهنا وعد أبو حمزة بمنهج الحكم المنتظر: « يا أهل المدينة، إنّا خارجون لحرب مروان، فإن نظهر نعدل في أحكامكم، ونحملكم على سنّة نبيّكم ونقسم بينكم ».

تلك هي سياسة الفئة الّتي سمعت داعيا يدعوإلى طاعة الرّحمان وحكم القرآن فأجابت داعي الله ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ [٤٦ الأحقاف ٣٢] عدل في الأحكام، وقسمة بالعدل. وكيف لا تكون سياستها على هذا النّسق وقد كان عامل قيامها ما ذكر من تلبية من يدعوإلى حكم القرآن؟

لكن القرآن نصّ وكلّ يدّعيه، لقد بيّن أبو حمزة بكلّ وضوح أنّ الإمامة المثال لديهم تتمثّل في دولة الرّسول عليه السّلام وفي خلافة العمرين وفي ستّ من خلافة عثمان وفي خلافة الإمام عليّ قبل التّحكيم.

فهذه الخلافة نعلم أنّ الخليفة فيها لم يجد إمرة ضائعة، وإنّما تمّت البيعة فيها عن طريق الاختيار بالنّسبة إلى أبي بكر لأنّ من اختاره الرّسول عليه الصّلاة والسّلام للصّلاة أولى بأن يختار للدّنيا، وعن طريق ولاية العهد بالنّسبة إلى عمر، وعمر ليس

من رهط أبي بكر الأقربين، وعن طريق الشّورى بين ستّ لم يكن واحد منهم من قرابة عمر في شيء بالنّسبة إلى عثمان، وعن طريق البيعة للإمام علي، فالأساس في بيعة الخليفة « إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم».

* ولم يكن هذا مجرّد ادّعاء وإنّما هو واقع إذ قد تمّت بيعة عبد الله بن يحيى طالب الحقّ لما منّ به عليه المولى تعالى من تقوى، إذ لم يكن قرشيّا، ولا من آل البيت، وإنّما كان مؤمنا بالله حنيفا، والنّاس جميعا يعلمون أنّ مصدر الشّورى لتحديد هذه الإمامة بيد مولى من الموالي وهو أبو عبيدة مسلم ابن أبي كريمة مولى عروة بن أديّة التّميمي.

* وليس الإمام في مثل هذه الدّولة إلاّ واحدا من الرّعيّة لا يحتجب عنهم، كذا فعل الخلفاء الرّاشدون وكذا كان طالب الحقّ في اليمن، والكلّ يشهد أنّه أحسن السّيرة، وكذا يشهدون في قائده أبي حمزة، فلم يكن واحد منهما يعرف للحياة في القصور ولا بين القيان طعما، بل كان كأبسط واحد من الرّعيّة، يسعدان لأفراحها ويألمان لآلامها.

* فالحاكميّة لله وحده في هذه الإمامة، ولا ننسى أنّ شعار هذه الطّائفة من النّاس من يومها الأوّل لا حكم إلاّ لله، وليست كلمة حقّ أريد بها باطل كما قيل، وإنّما هي كلمة حقّ أريد بها حقّ، ولا منارة للحقّ إلاّ إذا خضع الحاكم والمحكوم لحكم الله المتجلّي في كتابه الكريم وفي سنّة نبيّه الشّريفة.

ولا أريد أن أمضي في تفصيل ما جاء في القرآن الكريم من كلّيات في ضبط علاقة العدل والإنصاف بين طرفي الأمّة، بين الرّاعي والرّعيّة، أي بين الإمامة

والأمّة، لأنّ هذا مبسوط في كتب الأحكام ولا يخفى على أحد، إلاّ أنّ المهّم في أنّ هذه المعاني الّتي أشار إليها أبو حمزة جاءت قبل أن يعرف النّاس التّنظير بل هي عند الإباضيّة خاصّة أصل التّنظير.

* ثمّ إن هذه السّياسة قائمة على أساس أرقى من « إن نظهر نعدل في أحكامكم » وهوأساس « أحسن إلى من أساء إليك » وفعلا فقد أساء أهل صنعاء وعلى رأسهم الوالي وعامله في حضرموت لطالب الحقّ، فما كان منه إلاّ أن عفا عنهما، ومكّنهما من حرّيتهما المطلقة، ولكن كما يقال: « إن اللّئيم إذا أكرمته تمرّد».

* ولم يكن هذا النّوع من الإمامة ليتوجّه وجهة وراثيّة، وقد ذكرنا أن أبا حمزة ألحّ كلّ الإلحاح في تحوّل الخلافة بين الخلفاء الرّاشدين على نفي عنصر القرابة والوراثة، وحقيق لمثل من يؤمن بهذا المبدأ أن يثور على حكم توارثه الأمويّون قرنا من الزّمن.

أمّا عن العلاقة بين عناصر الأمّة فهي الأخوّة في الله وفي الله وحده « فأقبلنا من قبائل شتّى قليلون مستضعفون في الأرض فآوانا الله وأيّدنا بنصره وأصبحنا – ولله الحمد – بنعمته إخوانا ».

يا لها من أمّة، أليست صورة طبق الأصّل للأمّة الّتي اجتمعت حول الرّسول محمد عليه السّلام، وخلفائه البررة الكرام، لا تربط بين أفرادها لا الرّابطة العرقيّة البغيضة، ولا العلاقة المصلحيّة الآنية، وإنّما هي الأخوّة الصّادقة لإعلاء كلمة الله.

وإذا أردت أن تتعرّف على معدن أفرادها فإنّهم اهتدوا بهدي الرّحمان، وانطلقوا في محاربة الطّغيان، ومهما أوتيت وأوتي غيري من بيان، فلن نصل إلى تعريف أصحاب أبي حمزة كما عرّفهم هو في خطبته الّتي سارت بها الرّكبان، وصارت أحسن رمز للبيان، على مرّ الزّمان.

لقد عيّره أهل الحجاز بحداثة أصحابه، فقلب الذّمّ إلى مدح، وشاهده في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ. نعم إن أصحابه شباب ولكنّهم ليسوا كالشّباب، إذ يعلم النّاس أن الشّباب شعبة من الجنون، إنّهم شباب في أجسامهم وأعمارهم لكنّ عقولهم قد اكتهلت واكتملت فهي في منتهى الرّصانة لا يعرف التّهوّر إليها سبيلا.

وقد كان لهذا الاكتهال أحسن الأثر في السّلوك، فإنّ كان أمثالهم من الشّباب يرتع، ويمرح، وينحرف، فإنّهم أعرضوا عن الباطل إعراضا، وولّوا وجوههم شطر الخير والصّلاح، فعميت أبصارهم عن كلّ منكر، أمّا أرجلهم فلم تعرف إلى الحرام طريقا.

ولم تكن هذه الإستقامة ناتجة عن الاكتهال فحسب، لأنّه كم من كهل انحرف، وكم من شيخ تصابى، وإنّما هوالتّعايش المتواصل مع القرآن الكريم، لا يقرأونه فلا يتجاوز حناجرهم كما يدّعي خصومهم الغارقون في القراءة الّتي لا تتجاوز الشّفتين، وإنّما هم بكّاؤون عند قراءته على مسلك أبي بكر، يتضاعف هذا البكاء فيتحوّل إلى شهيق بين آيات الوعد وآيات الوعيد.

وماذا تظنّ أن يكون هذا الّذي يصل كلال اللّيل بكلال النّهار، هذا الفارس في النّهار الرّاهب في اللّيل، - وقد علمنا أنّ مولى عروة يقول عنه إنّه لم يقدّم له طعاما في النّهار أبدا ولم يفرش له فراشا في اللّيل أبدا - هذا الّذي أكلت الأرض جبهته وركبتيه من كثرة السّجود لله. إنّه المؤمن الحقّ الّذي يلتزم بحدود الله فلا يتعدّاها بل لا يفكّر حتّى في الاقتراب منها.

تلك هي حالهم أيّام السّلم تقوى وصلاح، وأخوّة ووئام، حتّى تخال أنّهم لا يعرفون إلى ميدان الحرب سبيلا، ولكن أبا حمزة يفجؤك وهويتحوّل بك مع هؤلاء في نصرة الحقّ، ومقاتلة الجحافل المناصرة للباطل: إنّه إقدام منقطع النّظير، تتلقّى فيه الضربات بالنّحور، لا بالظّهور، لأنّهم الكرّار وليسوا بالفرّار. إنّه الشّراء في سبيل الله في أعلى مراتبه، فإمّا النّصر وإمّا الشّهادة ولا ثالث لهما.

إنّه لمشهد مثير يختم به أبو حمزة هذا التّعريف بأصحابه الّذين تحوّلت خيرة أعضائهم إلى أفواه السّباع ومناقير الطّيور الكواسر.

إنّه التّرحّم على شهداء أهل الاستقامة بما فيه من دفع للأصحاب حتّى يبقوا على العهد، وردع للأعداء الّذين كانوا سببا في أن تتحوّل هذه الأعضاء الخاشعة، والعيون الدّامعة، إلى أشلاء في أفواه السّباع الضّارية، ومناقير الكواسر الجارحة.

**ب) السّياسة الماليّة:**

بقيت السّياسة الماليّة للإمامة الّتي يدعوإليها أبو حمزة إنّها تتلخّص في سطور قلائل: « إن نظهر... نقسم بينكم » « النّفر منّا على بعير واحد، وعليه زادهم،

وأنفسهم، يتعاورون لحافا واحدا ». وهذا متى، بعد أن أظهرهم الله على اليمن، وآلت إليهم خزائن بني ثقيف ولاة اليمن الّذين جمعوا الأموال تجميعا، وقد علمنا ما فعلوا بهذه الأموال، طبّقوا فيها شرع الله إذ المال الّذي جهل أصحابه الفقراء أولى به.

إنّها سياسة تقوم على التّقشّف، أساسها رفض المال الحرام والاكتفاء بالحلال من الموارد الّتي حدّدتها الشّريعة، وهي ليست بالقليل عند أصحاب الصّلاح، والنّاس جميعا على علم أنّ زكاة الأغنياء من المسلمين زمن عمر بن عبد العزيز كفت مؤونة الفقراء والمتزوّجين والمدينين.

تلك هي إذن إمامة من أجابوا داعي الرّحمان، دستورها القرآن، والقائم على حظوظها واحد من عباد الرّحمان، تتمّ بيعته لتقواه، بقطع النّظر عن لونه وقبيلته وجنسه، لا حقّ له في أن يورّثها لأحد من ورثته، إذا تمّ له الأمر يعدل في الأحكام، ويحمل النّاس على الشّريعة السّمحة، ويعدل في القسم، يقول بأعلى صوته: « النّاس منّا ونحن منهم إلاّ مشركا عابد وثن، أوكافرا من أهل الكتاب، أوإماما جائرا »، وبهذا يصبح النّاس في إمامته إخوانا يؤثرون على أنفسهم ولوكانت بهم خصاصة، يعيشون مع القرآن، وبالقرآن، وللقرآ ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [٤٨ الفتح ٢٩]، لا تأخذهم في الله لومة لائم، شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، همّهم إمّا في تحقيق الإمامة العادلة، أوالفوز بالشّهادة.

واضح إذن أنّ رغبة هؤلاء لم تكن في إقامة ملك قيصريّ، وإنّما كان غرضهم الأساسي يتمثّل في تحقيق الإمامة العادلة.

ورغم المجازر الانتقاميّة الّتي أقامها ابن عطية لم تكن اليمن لتستسلم، وقد رسخ فيها جانب العقيدة الإباضيّة بل ظلّت معقلا من معاقل الإباضيّة حتّى القرن الثّامن/ ١٤.

وما أن عرف الإباضيّة بمركز الدّعوة فشل إمامة الظّهور في اليمن حتّى ولّوا وجوههم شطر عُمان حيث بايعوا الجلندى ابن مسعود إماما للظّهور (سنة ١٣٢/ ٧٤٩)، ثمّ شطر المغرب حيث بويع أبو الخطاب عبد الأعلى المعافري إمام ظهور في طرابلس (١٤٠/ ٧٥٧).

عن المراجع انظر معجم أعلام الإباضيّة عدد ٨٧٠.

# الرّبيع بن حبيب الفراهيدي (أبو عمرو)

## (٧٥/١٧٥-٦٩٤/٧٩١)

عمانيّ الأصل والموطن، بصريّ المنشأ ولد بإحدى قرى السّهل السّاحليّ المسمّاة بودام من الباطنة بعمان حوالي ٧٥ - ٦٤٩ وأمضى طفولته المبكّرة والمتوسّطة في موطنه الأصليّ عمان منفى الإمام جابر بن زيد (٩٣ - ٧١١) ثمّ انتقل إلى البصرة لطلب العلم من مركز أهل الدّعوة الأساسيّ، وتثبت المصادر أنّه أدرك الإمام جابر بن زيد وروى عنه في المسند حديثا، وقد نزل الرّبيع في محلّة يقال لها الخريبة وكانت عامرة بصغار الصّحابة كأنس بن مالك وكبار التّابعين وصغارهم وتابعيهم، وقد أخذ العلم خاصّة عن الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة (١٤٥- ٧٦٢) وضمام بن السّائب (النّصف الأوّل من ق ٢ - ٨) وأبي نوح صالح الدّهان (النّصف الأوّل من ق ٢ - ٨). [عمرومسعود: الرّبيع بن حبيب: ١٥٩، ١٨٧]

لقد أدرك المدرسة الإباضيّة في البصرة في أوج عطائها فكرع العلم في مجالس أبي عبيدة وتخلّق بأخلاق أهل الدّعوة وارتقى بين أقرانه في درجات القدرة على القيادة والرّيادة. وكان إمام الجميع يهيئه لذلك في مجالسه الخاصّة والعامّة من ذلك أنّه ذكر عنده الرّبيع فقال عنه: « فقيهنا وإمامنا وتقيّنا » (الدّرجيني، طبقات: ٢ / ٢٧٦)، ومن ذلك أنّه أنابه عنه لقيادة موسم الحجّ عندما أصيب بالفالج في آخر عمره ولم تكن آنذاك قيادة موسم الحجّ مجرّد إفتاء في مسائل الحجّ وإنّما هي إمامة بحقّ في جميع

شؤون الأمّة المتمثّلة في الرّبط بين جميع أهل الدّعوة شرقا وغربا، والتّعريف بمسلك أهل الاستقامة عند مختلف الفرق والمذاهب النّاشئة تلك الّتي تقبل جميعا على بلاد الله الحرام.

وينتقل الإمام أبو عبيدة إلى الرّفيق الأعلى بعيد سقوط إمامة الظّهور بطرابلس. إمامة أبي الخطّاب عبد الأعلى المعافري (١٤٠-١٤٤/ ٧٥٧-٧٦١)، فتختار جماعة أهل الدّعوة الرّبيع ليخلفه في إمامة الكتمان هذه بمركز الدّعوة في البصرة فيكون خير خلف لخير سلف، ويضطلع بهذه الأمانة كأحسن ما يكون، ويصدق فيه حدس شيخه كما وضّحنا ذلك من قبل.

ويتجلّى هذا في الأخبار التّالية، وفي ما سنذكره عن آثاره العلميّة الّتي بقي أحدها أحسن دعامة تثبت سنّيّة المدرسة الإباضيّة رغم ما يرميها به بعض النّاس من أنّها تنتمي إلى الخوارج أهل البدع والأهواء.

الخبر الأوّل: مراقبة أحوال أهل الدّعوة جميعا.

الخبر الثّاني: الاستمرار على موقف أبي عبيدة في البراءة ممّن يقولون بالقدر. [الحارثي: العقود الفضيّة ١٥٤-١٥٥]

- البراءة من يزيد بن فندين وشعيب بن المعروف اللّذين تناصرا في الاعتراض على إمامة الإمام عبد الوهّاب بن رستم (١٧١-٢٠٨/ ٧٨٧-٨٢٣)، ونحن نعلم أنّ شعيبا هذا كان من القائلين بالقدر وممّن برئ منهم أبو عبيدة ثمّ الرّبيع بعده. [ر. الدّرجيني: الطّبقات: ٢/ ٢٧٦ - ٢٧٧]

الخبر الثّالث: إرسال المدد المالي إلى الإمام عبد الرّحمان ابن رستم (١٦٠-١٧١/ ٧٧٧-٧٨٨) عندما أعلن الإمامة بتاهرت. [الدّرجيني: طبقات ١/ ٤٥]

يستنتج من هذه الأخبار ما يلي:

١. العمل على إحصاء دقيق لكلّ من يعيش من أهل الدّعوة في البصرة، والتّعرّف على أحوالهم، وهذا لا يقوم به إلاّ من أرست المسؤوليّة على عاتقه. [يذكر أبو سفيان محبوب ابن الرّحيل (النصف الأوّل ق ٢-٨) وهو زوج أمّه للرّبيع وقد كلّفه بإحصاء أهل الاستقامة في البصرة أنّ عددهم يبلغ ثمانمائة ألف. [الحارثي: العقود الفضيّة ١٥٤-١٥٥]

٢. إنّ هذا الإحصاء بمثابة الدّيوان لضبط الأعطيات ولإعانة أصحاب الحاجة، ولجمع أموال الزّكاة.

٣. إنّ هذا الإحصاء أثبت أن عدد أهل الدّعوة في البصرة ليس بالهيّن فهم يمثّلون جانبا كبيرا من المجتمع البصريّ، وجلّهم من الأزديّين والتّميميّين وممّن تبعهم من الموالي.

٤. سعة أفق الرّبيع في تمكين يتامى كانت أمّهاتهم إباضيّات تزوّجنا من مخالفين (العقود الفضيّة ١٥٤) من أموال الزّكاة حتّى ينشأوا في كنف أمّهاتهم في محيط أهل الدّعوة ويكونوا من أنصارهم.

٥. إنّ إعلان البراءة من جماعة خالفوا في قضيّة كلاميّة شائكة لا يكون إلاّ من مركز القيادة، والرّبيع في هذا الموقف يتابع مسيرة شيخه الإمام أبي عبيدة لِمَا

عَلِمَا عمّا تورثه هذه القضيّة من اضطراب في صفوف الجماعة، وفعلا لقد أحدثت هذه النّزعة بلاء مبينا في صفوف إباضيّة المغرب ذلك أنّها كانت سببا من أسباب انقسام الجماعة إلى قسمين، عرف أحدهما بالوهبيّة نسبة إلى الإمام عبد الوهّاب، وعرف الثّاني بالنّكّار لأنّهم أنكروا إمامة الإمام عبد الوهّاب. وسنورد بعد حين رسالة الإمام الرّبيع في هذا الشّأن.

٦. اختيار الإمام الرّبيع مسلك المرونة مع ابن عطيّة وهو أحد المخالفين من أهل الشّام ممّن اشتهروا بإثارة قضيّة القدر لما رأى منه من رغبة في السّكوت عن قضيّة القدر في مجلسه. [العقود الفضيّة ١٥٤]

٧. نزوله عند طلب أهل الدّعوة في البراءة من ابن عطيّة لمّا رأى من إجماعهم على ذلك الموقف بناء على ما صدر من الرّجل من بثّ لذلك الفكر، وهذه سمة من سمات القيادة تتمثّل في تغليب رأي الجماعة على الرّأي الذّاتي إذا كان فيه وجه من وجوه الصّواب. [العقود الفضيّة ١٥٥]

٨. متابعة أحوال أهل الدّعوة حيثما حلّوا، والسّعي إلى إيصال المساعدة إليهم مهما بعدت الشّقّة. وليس من اليسير أن تصل ثلاثمائة أحمال من المال من البصرة إلى تاهرت وعيون العبّاسّيين قلّ أن تغفل عن كلّ شاردة وواردة.

٩. لولا حماس الإمام الرّبيع لما تجمّع مثل هذا القدر من المال.

١٠. حرص القيادة على أن يوضع هذا المال في نصابه وذلك أن لا يسلّم إلاّ بعد التّثبّت في أحوال الإمام مع العلم أنّ مؤسّس الإمامة الرّستميّة كان رفيق

الدّرب في حلقات أبي عبيدة، ولكن من يدري لعلّ المركز السّياسيّ يحوّل الطّباع، والأمر يتعلّق بأموال المسلمين. [الدّرجيني: طبقات ١/ ٤٥]

١١. استمراريّة مركز الدّعوة في توفير المدد المالي عند الاطمئنان إلى حسن السّيرة، ورفض مركز إمامة الظّهور هذا المدد لأنّ أصحابه من أهل الكتمان أولى به. ولعلّ الأولى أن يكون العكس، لأنّ الكتمان يأخذ من الظّهور والعكس لا يكون.

هذه سمات تدلّ دلالة واضحة على ما ذكرنا من حسن اضطلاع الرّبيع بإمامة الكتمان هذه، بالإضافة إلى ما تذكره المصادر من عدد التّلاميذ الّذين تخرّجوا على يديه، وخاصّة منهم حملة العلم إلى بلد عمان الّذي تأصّل به المذهب بفضل الله وبفضلهم، واستمرّ يعطي ثماره زكيّة عبر الزّمن إلى يومنا هذا.

تلاميذه: من عمان:

١. أبو المنذر بشير المنذر النّزواني.(١٧٨/ ٧٩٤).

٢. منير النّير الجعلاني (بعد ٢٨٠/ ٨٩٣)

٣. موسى ابن أبي جابر الأزكوي (١٨١/ ٧٩٧).

٤. أبو سفيان محبوب بن الرّحيل (بعد ٢٢٦/ ٨٣٩).

٥. محمّد بن المعلا الكندي (بعد ١٧١/ ٧٨٧).

**من اليمن: حضرموت:**

أبو أيّوب بن أيّوب الحضرمي (النّصف الثّاني ق ٢/ ٨) تولّى إمامة الإباضيّة بالبصرة بعد رحيل الرّبيع إلى عمان.

**مـن خـراسـان:**

هاشم بن عبد الله الخراساني (النّصف الثّاني ق ٢/ ٨).

**من المغرب:**

انقطع طلبة العلم من المغرب لأسباب عديدة ونسبة الدّين هناك تقف عند حملة العلم إلى المغرب وهم أصدقاء الرّبيع الّذين تتلمذوا على أبي عبيدة.

**من العراق: البصرة والكوفة.**

قال السّالمي:« وقد أخذ عنه أيضا من العراقيين الجمّ الغفير، لكن لم يذكر أيّ اسم. » [السّالميّ: حاشية الجامع الصّحيح ١ / ٦. عمرومسعود: ١٨٩-٢٠٢]

ولا يفوتنا هنا أن نذكر بعد هذا أنّ الإمام الرّبيع بقي السّلطة العليا للإباضيّة حتّى وإن قامت إمامة الظّهور في المغرب، وبلغت أوجها في الازدهار، نعم إنّه المرجع في الفتوى عندما تختلف المواقف وتتضارب الآراء ، وقد ورد نصّ الرّسالة الّتي كتبها الإمام الرّبيع ليحسم الخلاف بين الإمام عبد الوهّاب بن عبد الرّحمان بن رستم والّذين أنكروا إمامته عندما رضوا به حكما بينهما، وذلك في العقد الثّامن بعد المائة [طبقات الدّرجيني ١/ ٤٥].

وبهذا استطاع الإمام عبد الوهّاب أن يقف بكلّ حزم أمام الّذين وقفوا هذا الموقف، لكن جانب الفتنة غلب واستمرّ أثرها في أوساط إباضيّة المغرب إلى وقت متأخّر.

ثمّ نجد في كتب السّير خبرا آخر يثبت أمر هذه السّلطة العليا الّتي كان يحظى بها الإمام الرّبيع في أوساط أهل الاستقامة. [أبو زكريّاء: السّيرة ١١٥-١١٦] ويتمثّل في استشارة الإمام عبد الوهّاب الإمام الرّبيع في أداء فريضة الحجّ مع عدم الاطمئنان من كيد العبّاسيّين فأشار عليه بأن ينيب عنه لعدم توفّر الأمن.

إنّ هذا الخبر لا يمكن أن يكون إلاّ من باب: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (٢ البقرة ٢٦٠)، ذاك أنّ الإمام عبد الوهّاب بلغ درجة علميّة راقية، وقد التفت حوله في تاهرت وفي جبل نفوسة كوكبة من أهل العلم، لكن هذا الجمّ الغفير أراد أن يطمئنّ إلى رأي إمام الجميع ألا وهو الرّبيع بن حبيب في البصرة، لأنّ قضيّة حجّ الإمام عبد الوهّاب وإن كانت من خصوصيّاته فهي تهمّ مصلحة أهل الاستقامة حيثما كانوا، وإن جاء رأيان من المشرق، أحدهما يقول بالإنابة والثّاني يقول بالإعفاء وهو رأي ابن عبّاد إمام أعل الدّعوة في مصر (ن.م) فإنّ الإمام عبد الوهّاب اختار قول الرّبيع وأرسل بالمال ليحجّ به عنه.

ذاك هو الرّبيع بن حبيب إمام أهل الدّعوة الثّالث في مرحلة الكتمان في البصرة، شهد له شيوخه وأقرانه بالفضل والورع والتّقوى، فاختاروه لقيادة الجماعة في طريق الخير والفلاح فكان خير خلف لخير سلف، وقد أثبتت الجماعة بحقّ ثباتها على المبدأ

الّذي نافحت من أجله ألا وهو أنّ الإمامة لا تكون وراثيّة، وليست حكرا على عصبيّة دون عصبيّة، وإنّما يتولاّها من توفّرت فيه شروطها وإن كان أسود حبشيّا، فكان الإمام الأوّل عربيّا عمانيّا، والإمام الثّاني تميميّا بالولاء أسود، والإمام الثّالث عربيّا عمانيّا لا تربطه بالإمام الأوّل رابطة نسب إلاّ من بعيد. إنّه اختيار أهل الحلّ والعقد الّذي كان موفّقا غاية التّوفيق.

وقد استطاع الإمام الرّبيع فعلا أن يواصل المسيرة وأن يرعى أمّة موزّعة شرقا وغربا أقامت إمامة الظّهور عوضا عن إمامة الكتمان، وبذلك ينتهي دور مدرسة البصرة لتحلّ محلّها الإمامة في عمان الّتي استطاعت أن تصارع الزّمن قرونا وقورنا، والإمامة في تاهرت الّتي صارعت الزّمن قرنا وثلث قرن ليعوّد الأمر إلى الكتمان في بلاد المغرب وليقوم نظام الحلقة - على غرار ما كان الأمر بالبصرة - مقام إمامة الظّهور محافظا على مسيرة أهل الاستقامة في كثير من ربوع تلك البلاد.

كلّ ذلك بفضل الله تعالى وبفضل جهود ذلكم الرّعيل الأوّل وخاتمتهم الإمام الرّبيع بن حبيب الّذي أدرك أنّ دور البصرة قد انتهى، وتحوّل ليختم أيّام حياته في بثّ العلم في ربوع عمان. فماذا عن إنتاج هذا الإمام في هذا الباب؟ إنّه محدّث هذه الجماعة بدون منازع، ومرجعها في ما تحتاج إليه من فقه العبادات والمعاملات وغير ذلك من أبواب العلم.

**إنتاج الرّبيع العلميّ**: إنّ تحمّل الإمام الرّبيع أعباء الإمامة لم يمنعه من المشاركة الفعّالة في ميدان التّدوين، ذاك أنّه لم يكن ليقدّم ما تحتاج إليه الأمّة من حلول اعتمادا

على الرّأي، وإنّما كان ديدنه أن يقدّم النّصّ على كلّ رأي مبتدئا بالكتاب العزيز ومثنّيا بسنّة المصطفى ﷺ، فإن لم يجد فأقوال الصّحابة رضوان الله عليهم، فإن لم يجد فأقوال شيوخه وخاصّة منهم الإمامين جابرا وأبا عبيدة، وبعد ذلك يصل إلى الرّأي، لذلك كان باعه طويلا في تدوين آثار هؤلاء جميعا. وها نحن نذكر ما وصلنا من هذه المدوّنات، وفيها كفاية للدّلالة على أصالة هذا الإمام.

١. مسند أبي عمرو الرّبيع بن حبيب في الحديث النّبويّ الشّريف، وأغلب روايته عن شيخه أبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة عن أبي الشّعثاء جابر بن زيد عن عدد من الصّحابة أبرزهم عبد الله بن عبّاس عن رسول الله ﷺ. طبع ورتّب وشرح وحقّق.

٢. كتاب آثار الرّبيع: وقد رواه عن شيخه ضمام بن السّائب عن جابر بن زيد مقطوعا، وقد جمعه أبو صفرة عبد الملك بن صفرة [الشمّاخي: سير ١١٩] ومخطوط كتاب آثار الرّبيع موجود بدار الكتب بالقاهرة ورقمه ٢١٥٨٢ ب.

٣. فتايا الرّبيع: وهي إجابات عن أسئلة في مختلف فروع الفقه. [خ المكتبة البارونيّة جربة. تونس]

٤. إجابات حول أسئلة في فقه العبادات والمعاملات والأحوال الشّخصيّة وردت في مدوّنة أبي غانم الخراساني الّتي رواها عن تلاميذه أبي عبيدة ومن بينهم الرّبيع بن حبيب.

٥. آراء فقهيّة وكلاميّة وفتاوى مبثوثة في جلّ مصادر الإباضيّة الفقهيّة والأصوليّة إذ لا يخلومصنّف منها من الاستشهاد بأقواله. [انظر على سبيل المثال: أبا يعقوب الوارجلاني: الدّليل والبرهان. إسماعيل الجيطالي: قناطر الإسلام، قواعد الإسلام. عامر الشّمّاخي: كتاب الإيضاح...]

## الرّبيع بن حبيب المحدّث:

للمدرسة الإباضيّة عراقة في باب الكتابة والتّدوين عامّة، وتدوين الحديث خاصّة، فهذا الإمام جابر يجمع كلّ ما أوتي من علم في ديوانه، وكذا الإمام أبو عبيدة يحافظ على ذلكم الدّيوان وينمّيه، ولا شكّ في أنّ ذلكم الدّيوان كان بين يدي الإمام الرّبيع. ولكنّه لم يكتف بذلك بل سلك مسلكه الخاصّ في تخصيص تدوين للحديث الشّريف معتمدا في ذلك على نقله المباشر عن شيخه جابر وأبي عبيدة وخاصّة عن أبي عبيدة إذ كانت معايشته للإمام جابر بن زيد قصيرة المدى.

نعم إنّ هذا النّقل المباشر أغنى الرّبيع عن الرّحلة في طلب الحديث سوى رحلته المتواصلة إلى الحجّ كلّ سنة تلك الّتي مكّنته من الاتّصالات بأهل الحديث والمقارنة بين ما عنده وما عندهم ممّا زاده يقينا في صحّة ما نقله عن أبي عبيدة ومتانته، ويكفيه أنّه لا يفصله عن الرّسول عليه السّلام إلاّ حلقتان: إحداهما عمرها الإمام جابر بن زيد المحدّث الثّقة بإجماع أهل الحديث، وثانيهما أصحاب رسول الله ﷺ وفي مقدّمة هؤلاء الأصحاب حبر الأمّة وبحرها عبد الله بن عبّاس.

هكذا نتبيّن أنّ « ما رواه ودوّنه (الإمام الرّبيع) في مسنده كان قد أخذ جلّه مشافهة ومباشرة عن شيخه أبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة عن شيخهما أبي الشّعثاء جابر بن زيد عن الصّحابيّ، وهذا النّوع من التّحمّل هو ما يسمّى عند علماء مصطلح الحديث بالسّماع من لفظ الشّيخ إملاء أو تحديثا، أومن حفظه أو كتابه وهو أعلى درجات التّحمّل عندهم.

ولذلك جاءت سلسلة إسناده سلسلة ذهبيّة، لأنّها قصيرة، وقريبة الاتّصال بالنّبع المحمّديّ الصّافي، ولشهرة رجالها بقوّة الحفظ والضّبط، وكمال الصّدق والصّيانة والأمانة.» [عمرو مسعود: الرّبيع. ٢٣٨]

وفي هذا الخصوص يقول الأستاذ عزّ الدّين التّنوخي في معرض حديثه عن رتب الحديث الصّحيح في مقدّمة الجزء الثّالث من شرح الجامع الصّحيح مسند الإمام الرّبيع بن حبيب:

- «ونضيف اليوم إليها (يعني الثّلاثيّات في مختلف كتب الحديث) ثلاثيّات الرّبيع بن حبيب الأزدي، وأحاديثها في مسنده من أصحّها رواية وأعلاها سندا، ورجال سلسلته ثلاثيّة الحلقات هم: - أبو عبيدة مسلم ابن أبي كريمة التّميميّ. - وأبو الشّعثاء جابر بن زيد الأزدي العماني. - والبحر عبد الله بن عبّاس شيخ جابر. - وغيره من الصّحابة. وهو بأجمعهم مشهورون بالحفظ والضّبط والأمانة والصّيانة. وهذا السّند لا يختلف في جميع أبواب المسند كما يختلف في سائر كتب الثّلاثيّات ». [عزّ الدّين التّنوخي: مقدّمة شرح السّالمي على مسند الرّبيع: ج ٣. ص: هـ.و.]

ونرى من المفيد أن نلاحظ هنا أنّ الإمام الرّبيع اقتصر في مسنده على تدوين روايته عن شيخه أبي عبيدة عن شيخه أبي الشّعثاء عن الصّحابي عن رسول الله ﷺ باستثناء ثلاثة أحاديث. [ر. عمرو مسعود ص ٣٣.]

إنّ هذا التّحرّي وذلك الاقتصار في الرّواية على أقرب النّاس إلى الرّبيع يدلاّن دلالة واضحة على حرصه على تخليص الحديث الشّريف من كلّ لون من ألوان الكذب أو الوضع أو ما إلى ذلك.

**محتوى مسند الرّبيع بن حبيب:** يضمّ كتاب الجامع الصّحيح مسند أبي عمرو الرّبيع ابن حبيب الأزدي البصريّ بين دفّتيه خمسة أحاديث وألف حديث (١٠٠٥). ونسخة هذا الكتاب المتداولة حاليّا ليست هي النّسخة الأصليّة، فأبو يعقوب يوسف ابن إبراهيم بن مناد الوارجلاني (٥٧٠/ ١١٧٤) هو الّذي أعاد ترتيبها وعنونها بترتيب المسند، وجعلها في أربعة أجزاء:

الجزأن الأوّلان - وهما أصل الكتاب - في أحكام الشّريعة من أوّلها إلى آخرها بالسّند العالي وما جاء فيها عن:

١- عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها: ثمانية وستّون حديثا (٦٨). ٢- عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه: خمسون ومائة حديث (١٥٠). ٣- أنس بن مالك رضي الله عنه: أربعون حديثا (٤٠). ٤- أبي سعد الخدري رضي الله عنه: ستّون حديثا (٦٠). ٥- أبي هريرة رضي الله عنه: اثنان وسبعون حديثا (٧٢). ٦- جابر بن زيد الأزدي: ثمانون ومائة حديثا (١٨٠). ٧ - أبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة: ثمانية وثمانون

حديثا (٨٨). ٨- أبي يعقوب الأنصاري رضي الله عنه وعبادة ابن الصّامت وابن مسعود الأنصاري وغيرهم: اثنان وتسعون حديثا (٩٢). فيكون بذلك ما جاء في المسند الأصلي (الجزآن الأوّل والثّاني) خمسون وسبعمائة حديث (٧٥٠).

أمّا الجزء الثّالث والرّابع فقد ضمّهما إلى المسند الأصلي المرتّب الوارجلاني: فما جاء في الجزء الثّالث: آثار احتجّ بها الرّبيع على مخالفيه في مسائل مختلفة من الاعتقاد وغيرها. قال السّالمي: « وهي أحاديث صحاح يعترف الخصم بصحّتها لأنّ الرّبيع رضي الله عنه ساقها مساق الاحتجاج على الخصم، والاحتجاج به عليهم دليل على تسليمهم له، إذ لا يحتجّ على أحد بما لا يسلّمه، فالاحتجاج بالحديث من العالم المتقن عند أهل الدّرجة الأولى أقوى من ذكر سنده. » [السّالمي: شرح الجامع الصّحيح: ٣ / ١٩٨] وعدد هذه الآثار أربعون ومائة حديث (١٤٠). وأمّا ما جاء في الجزء الرّابع: فروايات محبوب بن الرّحيل بن يوسف بن هبيرة القرشيّ عن الرّبيع بن حبيب، وروايات الإمام أفلح بن عبد الوهّاب بن عبد الرّحمان الرّستميّ عن أبي غانم بشر بن غانم الخراساني ومراسيل جابر. وعدد هذه الآثار في هذا الجزء ثلاثة وعشرون ومائة حديث (١٢٣). [عمرو مسعود: الرّبيع: ٢٥٧ - ٢٥٨]

**شرحا المسند:**

١. المحشّي (محمّد بن عمرو ابن أبي ستّة) (١٠٨٨/ ١٦٧٩): حاشية على التّرتيب: وهو مسند الرّبيع ابن حبيب. بترتيب أبي يعقوب الوارجلاني (الجامع الصّحيح) - توجد مخطوطة من هذه الحاشية بالمكتبة البارونيّة بحومة الحشّان جربة. - طبع

طبعة أولى بدون تحقيق بزنجبار. - طبع طبعة ثانية بدون تحقيق بعمان وزارة التّراث والثّقافة في ٨ أجزاء من ١٤٠٢ / ١٩٨٢ إلى ١٤٠٤ / ١٩٨٤. - طبع طبعة ثالثة بالجزائر بتحقيق إبراهيم طلاّي. ٥ أجزاء ١٩٩٤.

٢. عبد الله السّالمي (١٣٣٢ / ١٩١٤): شرح الجامع الصّحيح. - ط ٢. المطابع العالميّة سلطنة عمان. دت. ٣ أجزاء. الجزء الثّالث صحّحه وعلّق عليه عزّ الدّين التّنوخي. المطبعة العموميّة بدمشق ١٣٨٣ / ١٩٦٣.

هذا هو الرّبيع بن حبيب المحدّث ثقة وأمانة، وذاك هو مسنده صحّة ومتانة، وتلك هي جهود خلفه دقّة ورصانة، كلّ ذلك يثبت سنّيّة مذهب أهل الاستقامة، وبعده عن البدعة والخيانة.

وقد تطاول على هذا المسند عديد من المتطاولين بالطّعن خاصّة في بعض رجالاته وفي بعض متونه وقد تصدّى لهذه المطاعن الشّيخ سعيد القنّوبي في كتابه عن الرّبيع بن حبيب. [ط عمان ١٩٩٨]

**الرّبيع بن حبيب الفقيه**: علمنا في ما ذكرنا من سيرة الإمام الرّبيع، وممّا خلّف من آثار أنّه السّلطة الرّوحيّة الأولى في المحيط الإباضيّ في زمانه. وأنّه المرجع للجميع في الملمّات، فشخصيّة كهذه في محيط البصرة حيث تتولّد القضايا الشّائكة كلّ لحظة في ذلكم المحيط المتموّج لا يمكن لها إلاّ أن تكون الفقيه المحنّك الّذي يفتي للنّاس بما هم في أشدّ الحاجة إليه حتّى يواكبوا تيّار العصر، وتلك هي مهمّة الفقيه

التّي تؤكّد نجاعة الفقه الإسلاميّ، وسماحة الدّين الحنيف، وصلاحيّته لكلّ زمان ومكان.

والرّبيع بن حبيب لم يكن مرسيّ قواعد المدرسة الفقهيّة الإباضيّة، وإنّما كان الحلقة الثّالثة بالنّسبة إلى هذا المذهب، فقد درج حينئذ على مسلك شيخيه جابر بن زيد وأبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة ومن عاصرهما من أهل الفقه والصّلاح.

وهذه المدرسة كما هو معلوم وسط بين النّقل والعقل فهي لم تُفرِط ولم تُفَرِّط، والمتتبّع للأسس الّتي أقامها الشّيخان جابر وأبو عبيدة يجد أنّها تقوم على ما يلي:

١. الأخذ بالقرآن الكريم.

٢. الأخذ بالسّنّة الشّريفة.

٣. القول بالإجماع.

٤. القول بالاجتهاد:القياس-المصالح المرسلة -الاستصحاب-سدّ الذّرائع-العرف.

فالرّبيع حينئذ مقلّد لشيخيه، متّبع لما أرسياه من أسس واضحة المعالم، ظلّت تتبلور عبر الزّمن لتثمر عطاء فقهيّا زاخرا يتكامل مع ما قدّمته بقيّة المذاهب الإسلاميّة عبر الزّمن، وهو عطاء تجاوز كلّ عطاء في باب التّشريع للنّاس لما يستقيم به نظام حياتهم في كنف الدّين الإسلاميّ الحنيف.

والمطّلع على فتاوى الرّبيع يتبيّن أنّها تدلّ دلالة واضحة على أنّ الإمام يبدو في غاية التّحريّ، وذلك هو شأن الفقيه العالم يتحمّل مسئوليته دون أن يتورّط في التّشديد أو كثرة التّرخيص، ولكلّ مجتهد نصيب، فمن اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد. والأساس في ذلك كلّه الإخلاص لله تعالى.

الدّرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب مطبعة البعث الجزائر. إخراج إبراهيم طلاّي ط ١. د تا.١٩٧٤. ٢/ ٢٧٣-٢٧٧. الشّماخي كتاب السّير ط البارونيّة.١٠٢-١٠٥. سالم الحارثيّ: العقود الفضّية في أصول الإباضيّة. دار اليقظة العربيّة. بيروت ط ١. د ت. سالم السّيابي: إزالة الوعثاء عن أتباع أبي الشّعثاء. تحقيق سيّدة إسماعيل كاشف. نشر وزارة التّراث القوميّ والثّقافة. سلطنة عمان. مطابع سجلّ العرب القاهرة. ١٩٧٩. أبو القاسم عمرو مسعود: الرّبيع ابن حبيب محدّثا. دار الجّويني للنّشر تونس ١٩٩٤. ٣١٨ صفحة. سعيد القنوبي: الرّبيع بن حبيب ط عمان ١٩٩٨ مهنّي التّيواجني: مسند الإمام الرّبيع بن حبيب وقيمته الحديثيّة. خ. بحوزة المؤلّف بجربة. ٣٦ صفحة.

## محمّد بن محبوب بن الرّحيل بن سفيان القرشيّ العمانيّ (أبو عبد الله) (١٩٠/٢٦٠ - ٨٠٥/٨٧٣).

نشأ في محيط صحار قصبة عمان والبصرة ومكّة المكرّمة بها تعليم وعلّم إلى أن صار من أهل الحلّ والعقد في عمان وظلّ قاضيا في صحار من سنة ٢٤٩ - ٨٦٣ إلى أن توفيّ في ٣ محرّم ٢٦٠. ٢٩ أكتوبر ٨٧٣.

تعلّم بصحار على حملة العلم إلى عمان وعلى رأسهم أبوه أبو سفيان محبوب بن الرّحيل وهم موسى بن أبي جابر الأزكوي وأبو المنذر بشير بن المنذر النّزواني ومحمّد بن المعلاّ الكندي ومنير بن النّير الجعلاني (ر. مهدي طالب هاشم: الحركة الإباضيّة في المشرق بغداد ١٩٧٧. ص ٨٦).

كما نرجّح أنّه أخذ عن غيرهم أمثال أبي عليّ موسى بن عليّ (١٧٧/ ٢٣٠ - ٧٩٣/ ٨٤٤) وهشام بن غيلان.

لم يؤثر عنه أنّه له تلاميذ لأنّه اعتنى أكثر بالقضاء والإصلاح الاجتماعي! ولكن عرف معه مجموعة من الخلان نذكر منهم المعلاّ بن المنير الرّيامي وعبيد الله بن الحكم ومحمّد بن عليّ (ر. السّالمي: تحفة الأعيان تحقيق أبي إسحاق اطفيّش. دت نشر مكتبة الاستقامة عمان).

نشأ محمّد بن محبوب في رعاية والده أبي سفيان محبوب ابن الرّحيل (م. هذه الموسوعة) ذاك الّذي أخذ العلم عن الإمام الثّاني للإباضيّة أبي عبيدة (ر. هذه

الموسوعة) والإمام الثّالث الرّبيع بن حبيب (ر. هذه الموسوعة) ذاك الّذي كان ينتقل بين مراكز الإباضيّة الأساسيّة في المشرق البصرة ومكّة المكرّمةوعمان وقد تميّز أبوه هذا بإلمامه بسير الإباضيّة وأخبارهم وقد كان خاصّة قطب الرّحى في مكّة المكرّمة ومركز اللّقاء بين الإباضيّة جميعا للتّشاور في شؤون الدّعوة بعد أن بدأ يخفت دور مدينة البصرة ليتحوّل الثّقلُ شيئا فشيئا إلى عمان حيث أعلنت إمامة الظّهور وكذلك إلى شمال بلاد المغرب حيث قامت الإمامة الرّستميّة (ر. هذه الموسوعة) (ر. لوّاب بن سلام: بدء الإسلام تحقيق قيرزشقارتس والشّيخ سالم بن يعقوب. بيروت ١٤٠٦/ ١٩٨٦. ص ١٠٩).

ولا يفوتنا أن نذكر بعناية هذه الجيل باللّقاء في بيت الله الحرام، ذاك أنّهم كانوا لا يتخلّف منهم إلاّ من لهم عذر قاهر لأنّها تلك فرصتهم الذّهبيّة للتّشاور، ولتنظيم أحوال أهل الدّعوة، وللتّعريف بمذهبهم بين الحجيج الوافدين من أطراف العالم الإسلاميّ.

فهنالك في مكّة المكرّمة خاصّة يكون محمّد بن محبوب قد استفاد من جميع أعلام أهل الدّعوة، وقد أوتي الفرصة ليَخْدِمَهم لأنّهم ينزلون في دارهم، وأويزورون تلك الدّار إن كانوا يقيمون في مضارب أخرى، وتنوّه المصادر باستمرار محمّد بن محبوب في أداء هذا الدّور ومن ذلك تذكر اللّقاء التّاريخيّ الّذي جمعه هنالك بعمروس بن فتح (٢٨٣/ ٨٩٦) أحد أعلام الإباضيّة بالمغرب وما دار بينهما من حوار دلّ على أنّهما بلغا درجة الاجتهاد. (الدّرجيني: طبقات: ٢/ ٣٢٤).

وإن كانت النّشأة في هذه المواطن فيترجّح لدينا أنّه اختار بعد ذلك الاستقرار في عمان حيث قامت إمامة الظّهور (ر. الجّعبيري: البعد الحضاري للعقيدة الإباضيّة ط عمان ١٩٨٧. ص ٥٤: نظريّة الإمامة عند الإباضيّة). مع عدم التّخلف عن مكّة المكرّمة في موسم الحجّ. تتّفق المصادر على أنّ هذه الحقبة التّاريخيّة عرفت ازدهارا كبيرا في عمان من ذلك ما جاء في كشف الغمّة: « وكانت تلك الأيّام صدر الدّولة وقوّتها وحمّة العلماء » (مؤلّف مجهول: تحقيق عبيدلي ط ص ٢٥٩).

وقد عاصر محمّد بن محبوب الأئمة التّالي ذكرهم: الإمام غسّان بن عبد الله الفجحي ١٨٩/٢٠٨، ٨٠٤/٨٢٤. الإمام عبد الملك بن حميد ٢٠٨/٢٢٦، ٨٢٤/٨٤١. الإمام المهنّا بن جيفر الفجحي ٢٢٦/٢٣٧ - ٨٤١/٨٥٢. الإمام الصّلت بن مالك الخروصي ٢٣٧/ ٢٧٣، ٢٥٨/ ٨٨٧. عرفت هذه المرحلة بالإمامة الثّانية بعمان وقد طبقت فيها معايير الإباضيّة السّياسيّة كاملة إذ كانت إمامة شوريّة بحقّ فحالما يموت إمام أويعزل ينعقد مجلس الحلّ والعقد فينتخب الإمام دون أن تكون له أيّة صلة نسب بسابقه. فيتحمّل العبء كاملا بمؤازرة أهل العلم.

وفعلا عرفت الإمامة الإباضيّة الثّانية بعمان ازدهارا علميّا واضحا يتجلّى في عدد العلماء الكبير وما تركوه من مؤلّفات وقد اعتبرنا هؤلاء من قبل خلاّن محمّد بن محبوب إزاء شيوخه.

جاء في تحفة الأعيان: « إلاّ أنّ محمّد بن عليّ، وبشير ابن المنذر، ومحمّد بن محبوب، والمعلاّ بن منير، وعبيد الله بن الحكم، كانوا هم المقدّمين في البيعة للصّلت بن مالك رحمه الله. » (١/ ٦٢)

وجاء في كشف الغمّة: « ورئيسهم وإمامهم في العلم والدّين محمّد بن محبوب. » (ص ٢٦٤).

يثبت هذان النّصان ما أشرنا إليه من ازدهار الحركة العلميّة، وأنّ محمّد بن محبوب كان يحتلّ الصّدارة في مجلس الشّورى المنعقد للبيعة للإمام الصّلت بن مالك، وفي هذا دلالة واضحة على علومنزلته العلميّة.

ويبقى محمّد بن محبوب من المحتسبين مع إخوانه أهل العلم على الإمام، ومن النّاصحين والمؤازرين من سنة انتخاب الإمام الصّلت بعاصمة الإمامة نزوى ٢٣٧، ٢٥٨ إلى أن اختاره الإمام ليتولّى القضاء على عاصمة الإمامة الثّانية صحار سنة ٢٤٦ - ٨٦٣ (تحفة ١/ ١٦٣) إلى أن وافاه الأجل (٢٦٠ - ٨٧٣) وبها قبر (حميد بن رزيق: الفتح المبين في سيره البوسعيديّين. تحقيق عبد المنعم عامر ود محمّد موسى عبد الله. القاهرة نشر وزار التّراث العماني ١٣٧٩ - ١٩٧٧ ص ١٣٣)

تلك إحدى عشرة سنة قضاها محمّد بن محبوب يتولّى خطّة القضاء في جناح من أجنحة الإمامة، إنّها مدينة صحار حيث استقرّ الرّحيليّون القرشيّون، ومركز من أهمّ مراكز الإمامة لأنّها تطلّ على المحيط، وقد عرفت من الحركيّة العلميّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة ما لم تعرفه كثير من مدن عمان الدّاخليّة، لأنّها مركز ملتقى الحضارات

حيث تلتقي الأجناس من أطراف البلاد العربيّة والفارسيّة والهنديّة وغيرها. إنّه حينئذ محيط يرفل بالحضارة والبهاء تتعقّد فيه تركيبة المجتمع، فتصعب بذلك مهمّة القاضي، لكنّه عدل الإمامة وهيبتها يحوّلان طينة البشر، ويجعلان فيهم الصّلاح، فيهاب جانب القاضي ويتناقص الفساد.

والرّاجح أنّ محمّد بن محبوب كان يقضي حياته في هذا العقد الأخير منها بين الجلوس إلى القضاء - ولم تورد المصادر ممّا كان ينظر فيه من نوازل إلاّ النّزر القليل - والجلوس إلى التّعليم، والجلوس إلى التّأليف وإلى الإجابة عمّا يرد عليه من رسائل من الإمام نفسه، ومن أهل العلم، ومن عامّة النّاس يستنيرون بما وهبه الله من علم في ما يشكل عليهم من القضايا العلميّة من مختلف فنون العلوم الإسلاميّة وخاصّة منها ما يتعلّق بالحياة العمليّة من فقه وفتوى.

قبل أن نقف عند آثار محمّد بن محبوب المكتوبة نرى من المفيد أن نعرف ببعض مواقفه العلميّة الّتي تنوّه بها المصادر العمانيّة.

- ومنها موقفه من الشّائعات حول الإمام المهنّا (كشف: ٢٦٣، تحفة: ١/ ١٥٠) الظّاهر أنّ الإمام المهنّا اشتدّ أكثر ممّا ألف من قبل من سير سلف الإباضيّة على بعض أهل الفتن ليكسب الدّولة هيبتها، فاشتدّ عليه أهل العلم ومن بينهم محمّد بن محبوب إلى حدّ أنّهم برئوا منه سريرة وكادوا يعملون على عزله لولا أنّ نبّههم أبو المؤثر مغبّة ما هم عازمون عليه وأنّ مثل هذا التّصرف الصّلب ممّا يجوز فيه الخلاف ووحدة الجماعة أهمّ من ذلك وإبقاء المهنّا في إمامته أصلح فأجمعوا على ذلك

واستمرّوا في مؤازرة الإمام ونصحه. وقد شاعت هذه الأخبار بين العامّة فحاولوا أن ينالوا من الإمام في حياته وبعد مماته.

فظلّ محمّد بن محبوب يدافع عن الإمام المهنّا لأنّه يميّز بين ما يجوز فيه الخلاف وما لا يجوز فيه الخلاف وعليم بمآرب العامّة الّتي يرغب البعض منها في الفتنة الّتي لا ينتج عنها إلاّ الدّمار. ذاك هوموقف محمّد بن محبوب، احتساب على الإمام وسعي إلى ردعه، لكن دون أن يتجاوز الحدّ، وحالما نصح انتصح، ذاك أنّ الرّجل يرغب في أن يبقى الأمر على ما كان عليه السّلف الأوّل، بينما يعتبر الإمام أنّ الوضع تحوّل وأنّه لكلّ مقام مقال.

لهذا ظلّ محمّد بن محبوب وفيّا لموقفه حتّى بعد موت الإمام المهنّا، وظلّ يدافع عن ذلك الإمام، ويردّ شبه من يريد أن يثير الشّبه من العامّة الذّين تجد الكثير منهم لغرض ما يعملون على إثارة الفتن. وهكذا ندرك رصانة الرّجل وأنّه فهم أنّه اختلاف لا يجب أن يؤدي إلى خلاف.

- ومنها موقفه من قضيّة خلق القرآن (تحفة: ١ / ١٥٥-١٥٦) عندما وصلت القضيّة إلى محيط أهل العلم في عمان فقال محمّد ابن محبوب، أنا أقول إنّ القرآن مخلوق. (تحفة ١/ ١٥٥) فأثار هذا الموقف ردّ فعل عنيف خاصّة من محمّد بن هاشم فانعقدت مجالس عديدة انتهت إلى موقف موحّد يقف عند التّعميم: « إنّ الله خالق كلّ شيء، وما سوى الله مخلوق، وإنّ القرآن كلام الله ووحيه وكتابه وتنزيله على محمّد ﷺ ... » (تحفة: ١ / ١٥٦).

وهنالك لم يكن من محمّد بن محبوب إلاّ أن صرّح برجوعه عن القول بخلق القرآن، والاكتفاء بالقول المطلق كما اتّفقت على ذلك الجماعة.

وهذا يدلّ على عمق فكر الرّجل وبعد نظره ذلك لأنّنا نعلم أنّه لا تعوزه الحجّة للانتصار لموقفه، لكنّ وحدة الجماعة أولى خاصّة وأنّ الأشياخ لم يذهبوا إلى القول بالقدم القول الّذي لم يقتنع به.

- ومنها موقفه من قضيّة قتل (تحفة: ١/ ١٩٤ - ١٩٥) تمثّلت القضيّة في أنّ رجلا أقرّ أنّه أراد قتل رجل فقتل غيره فاختلف العلماء بين يدي الإمام الصّلت فمنهم من رأى أنّ عليه القود ومنهم من رأى أن يستودع الحبس عمره. فأودعه الإمام السّجن ولمّا طال سجنه راسل الإمام محمّد بن محبوب يستفتيه في ذلك.

وقد أورد السّالميّ نصّ الجواب وتمثّل في عرض القضيّة بدقّة مع ضبط عدم اطمئنان الإمام للاستمرار في حبس الرّجل ثمّ تدرّج على عرض الأدلّة المتعلّقة بعقوبة من يقتل خطأ وهويقرّ بخطإ المتمثّل في رؤيته من تصوّر أنّه قتله على قيد الحياة ويصل إلى القضيّة المعنيّة فيبيّن منهجه في الوصول إلى الحكم ثمّ يقرّر هذا الحكم: « والّذي نأخذ به أنّه لا قود على الرّجل، إنّما تلزمه الدّية في نفسه، ولا تلزم عاقلته منها شيء، وإن أراد أولياء الدّم يمينه، فعليه لهم يمين الله، وما أراد إلاّ قتل رجل غيره فأخطأ به. » (تحفة: ١/ ١٩٥)

فمحمّد بن محبوب حينئذ كما يثبت نصّ الجواب استوفى القضيّة من جميع جوانبها، وتتبّع جميع ملابستها، وجميع ما يحيط بها من افتراضات، ذاك هوشأن العالم إذا طلب منه أن يفصل في قضيّة ما.

- ومنها أيضا صرامته مع من يفسد في الأرض « وفي سنة ٢٥٩ - ٨٧٢ قتل خثعم العوفي بالسّنينة من الظّاهر (بعُمان)، وهورجل كان محمّد بن محبوب قد أباح دمه لفساده في الأرض » (تحفة: ١/ ١٦٠).

لا يحتاج هذا النّص إلى كبير تعليق إنّه التّعاون بين القاضي والرّعية تلك الّتي عمل أفرادها على الامتثال لقرار القاضي فنفذوا الحكم الشّرعيّ في ذلك الفاسد الّذي أهدر دمه القاضي وأراحوا من شرّه البلاد والعباد.

**مؤلّفات محمّد بن محبوب:** كتاب في الفقه في ٧٠ جزءا مفقود. دلّت قرائن عديدة على صحّة نسبة هذا المؤلّف إلى محمّد ابن محبوب. من ذلك أنّ ما وصل من القليل ممّا نسب إلى محمّد بن محبوب يثبت أنّه قادر على إنجاز تأليف كهذا. ذاك أنّ المحيط الإباضيّ خاصّة زمن ازدهار الإمامة، والمحيط الإسلاميّ عامّة يسمح بإنجاز تأليف بهذا الحجم، فأبواب العلوم الإسلاميّة في القرن الثّالث للهجرة عديدة وحاجة الأمّة إلى حلول مشاكلها أكيدة، وقد ألّف من العمانيّين وغيرهم مؤلّفات بهذا الحجم نذكر منها كتاب بيان الشّرع لمحمّد بن إبراهيم الكنديّ (٥٠٨ - ١١١٤) ٧٢ مجلّدا وقد صدر منه بعمان حوالي ٢٣ مجلّدا نشر وزارة التّراث.

وممّا يؤكّد ما ذكرنا أنّ الجزء السّادس من هذا الكتاب كان موجودا بجزيرة جربة في النّصف الثّاني من القرن الرّابع/ العاشر (الدّرجيني: طبقات ٢/ ٣٥٧) كما أنّ هذا الجزء كان متداولا في جربة أيضا في القرن التّاسع كما يذكر ذلك البرّادي: « وكتاب محمّد بن محبوب، يذكرون أنّه سبعون جزءا، ورأيت أنا فيه جزءا واحدا، ومؤلّفه من أهل القرن الثّالث. » (تآليف أصحابنا: ٢/ ٢٨٤ - ٢٨٥ من كتاب آراء الخوارج الكلاميّة تحقيق عمّار الطّالبيّ لكتاب الموجز لأبي عمّار عبد الكافي. ط الجزائر)

وفي هذا القدر كفاية للدّلالة على وجود هذا الكتاب ونسبته إلى محمّد بن محبوب.

سيرة محمّد بن محبوب لأهل المغرب: هذه السّيرة خ تقع في ستّ وعشرين صفحة من الحجم المتوسّط مسطرتها ٥،١٩ / ٥،١٠ صم. وبالصفحة ٢٥ سطرا بخطّ مشرقيّ واضح من ص ١١٨ إلى ١٤٤ بنسخة من السّير العمانيّة مصوّرة من نسخة الإمام غالب بن عليّ بالدّمام بالمملكة العربيّة السّعوديّة. وتوجد مخطوطة أخرى من السّيرة بمكتبة السّالميّ ببدية بعمان. وقد طبع نصّ هذه السّيرة ضمن كتاب « السّير والجوابات لعلماء وأئمّة عمان » بإشراف د سيّدة إسماعيل كاشف. ٢/ ص ٢٢٣ - ٢٦٨ نشر وزارة التّراث العمانيّ ١٤٠٦ - ١٩٨٦ بدون تحقيق سوى بعض التّعليقات البسيطة.

لقد عالجت هذه السّيرة ثلاثا وخمسين مسألة موجّهة من أهل المغرب للشّيخ محمّد بن محبوب، وقد جاء الجواب عن هذه المسائل واحدة واحدة بعد أن دعا الأمّة إلى الالتزام بمسلك التّقوى، وبيّن فيها حسن أحوال الإباضيّة بالمشرق والمغرب. وهذا المسائل منها العمليّ ومنها النّظريّ. أمّا المسائل العمليّة فـ ٧ تتعلّق بأمر الزّكاة، و٢٩ تتعلّق بالإمام و١٤ تتعلّق بالعمّال والقضاة، وأمّا المسائل النّظريّة فهي ثلاث تتعلّق المسألة عدد ٣٩ بقضيّة العقد للإمام والمسألة عدد ٤٤ بتعريف العدل والعدالة والمسألة عدد ١٠ بتحديد شروط الاجتهاد.

لقد طفحت هذه السّيرة بعديد من القضايا السّياسيّة والفقهيّة والأصوليّة يعتمد فيها صاحبها على القرآن الكريم والسّنة النّبويّة الشّريفة، وعلى مواقف أئمّة الإباضيّة وعلمائهم، ولذلك تتكرّر صيغه: « كما أمر كتاب الله ورسوله ﷺ » وصيغه: « واعلموا رحمنا الله وإيّاكم أنّ الّذي أدركنا عليه علماءنا وأسلافنا. » وما شابهها مثل « على ما مضى عليه أوائلنا وأسلافنا ».

وإن دلّ هذا على شيء فإنّه يدلّ على ما وصلت إليه البيئة الإباضيّة في المشرق والمغرب من التّعقيد الحضاريّ فيما عرفته من خلاف داخليّ وفيما تواجهه من ضغط الدّولة العبّاسيّة على الجبهة الخارجيّة، وهوما وقعت الإشارة إليه في شأن التّعامل مع الجبابرة.

المصادر والمراجع: ر. كتابنا محمّد بن محبوب بن الرّحيل القرشيّ العمانيّ ١٩٠ / ٢٦٠ - ٨٠٥ / ٨٧٣. مطبعة النّهضة سلطنة عمان ١٤٢٢ - ٢٠٠١، ١٩٣ صفحة.

# عمروس بن فتح المساكني النّفوسي

## (أبو حفص) حوالي ٢٠٠ / ٢٨٣ - ٨١٦ / ٨٩٦

تتّفق كتب السّير على أنّ إباضيّة أهل المغرب يحجّون بالذّراري والنّساء حتّى إنّه ولد لهم في طريق الحجّ سنة واحدة ثلاثمائة مولود (طبقات ٢ / ٣٢٥ سير ٢٢٨) منهم عمروس بن فتح (السّالمي: اللّمعة ط ٢ ١٩٨٣. ص١٢). ونرجّح أنّ ذلك كان على رأس المائة الثّالثة على عكس أحمد بن حمّوكروم الّذي حدّدها بأواخر العقد السّادس من القرن الثّاني / ٩ إذ لم يذكر أيّ مصدر أنّه عمّر طويلا. (قواعد: تح بشير بن موسى ١٤١٨ - ١٩٩٨. ص٣٧١). وبسببه رجعت أمّه من الطّريق، وتوفّيت وهورضيع ووكّلته على إنفاذ وصيّتها (النّامي: دراسات ٢٧٢).

نشأ في قطرس هذه القرية الجاثمة على ضفّة وادي تالة العميق من أرض الرّحييات بجبل نفوسة وهوولاية من ولايات الدّولة الرّستميّة آنذاك. وهومن أهل أمساكن بالهمزة كما جاء عند البغطوري (سير، ١٠٦) وقد شكلها الشّيخ سالم بن يعقوب مُساكن برفع الميم وبدون همزة ومنها نسبة المساكني.

عاصر الأئمّة التّالي ذكرهم: آخر إمامة الإمام عبد الوهّاب (١٧١ / ٢٠٨ - ٧٨٧ / ٨٢٣). الإمام أفلح بن عبد الوهّاب (٢٠٨ / ٢٥٨ - ٨٢٣ / ٨٧١). الإمام أبو بكر بن أفلح (٢٥٨ / ٢٦١ - ٨٧١ / ٨٧٤). الإمام أبو اليقظان بن أفلح (٢٦١ / ٢٨٦ - ٨٩٤ / ٨٩٩).

وقد عرف جبل نفوسة من الازدهار العلميّ في هذه المرحلة ما جعل كتب السّير تتفّق على أنّ أهل كلّ منزل لا يحتاجون إلى الفتوى من منزل آخر إلاّ عن طريق الأدب (أبو الرّبيع سليمان ابن يخلف: سير ٥٦ عن بحّاز الدّولة الرّستميّة ٣١٥).

في هذا المحيط الزّاخر بالعلم والعلماء نشأ عمروس بن فتح، ولم يذكر عن أبيه أنّه كان من أهل العلم، كما لم تذكر المصادر الشّيوخ الّذين أخذ عنهم في الجبل وهم بدون شكّ جيل الطّبقة الخامسة (٢٠٠ - ٢٥٠) (طبقات ٢ / ٢٩١ - ٣١٨).

وأوّل ما يذكر البغطوري عنه في سيره أنّه « مكث في المغرب عشرين سنة يتعلّم العلم. » (سير، ١٠٦)، لكن أين؟ الرّاجح كما ذكر حمّوكروم أنّ ذلك كان بتاهرت عاصمة الدّولة الرّستميّة (قواعد. ٣٧٢) زمن الإمام أفلح من حوالي سنة ٢٢٠ إلى ٢٤٠ (راجع عن علماء هذه الفترة بحّاز إبراهيم: الدّولة الرّستميّة ٢٧٥ - ٣٧٥).

ثمّ تذكر المصادر أنّه استقرّ به القرار بعد ذلك في جبل نفوسة لكنّها لم تشر إلى أنّه التفّت حوله حلقة علم أوتتلمذ عليه طلبة، وإن كنّا لا نشكّ في أنّه أخذ عنه خلق كثير لما اشتهر به من غزارة العلم كما سنبيّن ذلك. وإنّما نوّهت كتب السّير بما له من باع في الفتوى والقضاء والتّأليف وبلقائه بعالمين من علماء العصر من المشرق أحدهما أبو غانم بشير بن غانم الخراساني (ق ٢ / ٨) وثانيهما محمّد بن محبوب بن الرّحيل القرشيّ العماني (٣ محرّم ٢٦٠ - ٢٩ أكتوبر ٨٧٥) وبقتل الأغالبة له صبرا.

وبناء على كنيته « أبي حفص » فله ولد اسمه حفص لكن لا نعرفه عنه شيئا.

**عمروس المفتي**: تورد المصادر لعمروس عديدا من الفتاوى ممّا يثبت أنّه إلى جانب القضاء كان مرجعا للنّاس في الملمّات الّتي تحتاج إلى الإفتاء العلميّ الّذي يخلّصهم من مثل هذه الشّدائد، وسنكتفي بذكر اثنتين من هذه الفتاوى اختلف فيهما مع معاصره أبي المهاصر الأفاطماني واسمه موسى بن جعفر. اختلافا جذريّا، لنثبت ما يتّسم به منهجه في الفتوى من مرونة مع الملاحظ أنّ فتاواه هي الّتي استقرّ عليها علماء الإباضيّة في ما بعد. (سير ١١٤ – ١٥١)

١. « حدّث جماعة من المشائخ أنّ أبا مهاصر خرج من السّنين في إبّان الرّبيع إلى البادية، هووعمروس بن فتح، رحمهما الله. فلبثا أيّاما على غير ماء، فأخذا يتيمّمان للصّلاة. فتكدّرت نفس أبي مهاصر. فقال: قلوب يربوعليها الشّحم ممّا سمنت، ووجوه تعلوها الغبر. قلت سلامة الدّين مع أهل الوبر، إنّما الدّين في المدر والله، لا يجمل بنا أن نترك الدّين، لاتّباع شهواتنا، وإنّي لأخاف أن أكون ممّن عاب الله عزّ وجلّ بقوله ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (١٩ مريم ٥٩).

فردّ عليه عمروس بأن قال: ليس في ذلك ما تخافه، وقد أباح الله التّيمّم لعدم الماء، وأباح الضّرب في الأرض لطلب الفضل وابتغاء الرّزق حيث قال: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ (٦٢ الجمعة ١٠). وقال: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ (٤ النّساء ٤٣)، وقال: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (٤ النّساء ٤٣). فلم يقتنع بذلك أبا مهاصر. فرجع إلى منزله » (شمّاخي: سير. ١١٤).

٢. « وفي السّير، سأله رجل بمحضر أبي مهاصر عمّن أخذ من مال ابن طولون خرجا، فتاب، ولم يعلم له صاحبا، قال: تسأل عن مولاه، فإن أعياك أمره فتصدّق به. فغضب أبو مهاصر. فقال: لا أقعد في مجلس يفتى فيه بمثل هذا. قال عمروس: إن أردت أن تقعد فاقعد، فإن من شأن المسلمين ألاّ يُوئِسُوا أحدا من رحمة الله ». (سير الشّماخي ١٥١).

واضح من هذين الخبرين أنّ أبا مهاصر اختار موقف الورع وهوأحوط للنّفس، لكن عمروس بن فتح عمل بالموقف الّذي يطالب بألاّ يحمل المفتي النّاس على ورعه، فالمسألة الأولى متعلّقة بالطّهارات فأثبت بالدّليل القرآني أنّ التّيمّم يقوم مقام الماء « **فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً** » والمسلم مطالب بالضّرب في الأرض لطلب الفضل وابتغاء الرّزق فلا تقصير البتّة في التّيمّم في مثل هذه الحال، أمّا المسألة الثّانية فمتعلّقة بالتّنصّل من حقوق العباد وبما أنّه لا سبيل لهذا التّائب أن يردّ المال لأهله فله أن يتصدّق بذلك القدر المغتصب على أن ينوي أجر ذلك لصاحب المال، وبهذا ندرك أنّ عمروس بن فتح كان مرنا واقعيّا في فتواه اعتمادا على أنّ الله عزّ وجلّ يحبّ أن تؤتى رخصه كما يحبّ أوتؤتى عزائمه.

**عمروس القاضي**: تتفّق كتب السّير على أنّ عمروس بن فتح تولّى القضاء بنفوسة لواليها ووالي طرابلس للإمام أبي اليقظان الرّستميّ وهوأبو منصور إلياس (حيّ في ٢٦١/ ٢٨١ - ٨٧٤/ ٨٩٤). وقد اشتهر عند تولّيه هذه الخطّة الخطيرة في

المجتمع الإسلاميّ بشدّة الحزم والحرص على إقامة العدل بقدر الإمكان. (طبقات ٢/ ٣٢١)

فهذا الدّرجيني يذكر « أنّه كان ذات يوم جالسا في مجلس الحكم أيّام أن ولاّه القضاء أبو منصور إلياس، إذ حضر مجلسه خصمان فطلب أحدهما الآخر في حقّ تعلّق به عليه، فلمّا أدلى بحجّته سكت المطلوب. فقال: للمطلوب أجبه فلم يجب، فكرّر عليه ثلاثا، فلمّا رآه لا يجيب وتبيّن له لدده قام إليه فركضه برجله، فقال له جلساؤه: عجلت يا عمروس. فجمع عمروس أصابع يده ثمّ أطلقها، فقال لهم: كم هذه؟ فقالوا خمسا. قال: هذه منكم عجلة إذ أجبتم قبل أن تعدّوها. ثمّ قال لا بأس: إن لم تأذن لي بقتل ثلاثة فخذ خاتمك: قتل مانع الحقّ، والطّاعن في دين الله، والدّال على عورات المسلمين » (طبقات ٢/ ٣٢١) ممّا يثبت أنّ الرّجل لا تأخذه في الحقّ لومة لائم وإن كان الوالي الّذي بيده توليته وعزله، والمهمّ عنده إنصاف المظلوم من الظّالم عندما يكون واثقا من موقفه، فهوهنا لا يشكّ في حكمه كما لا يشكّ الإنسان أنّ أصابع يده خمسة دون أن يلجأ إلى عدّها.

وتجمع المصادر كلّها على التّنويه بخصاله القضائيّة خاصّة منها شدّة التّحرّي، من ذلك أنّه رفعت قضيّة لعمروس في شأن رفقة أغار عليهم قطّاع فاستباحوا متاعهم ثمّ خلّوا سبيلهم ورافقوهم إلى جبل نفوسة، وادّعى كلّ من الطّرفين ملكيّة العير وحمولتها فلم يكن منه إلاّ أن فرّق بين الطّرفين وسألهم واحدا واحدا عمّا في الحمولة مع تسجيل إحصائهم، فثبت عند تفحّص الحمولة تبيّن المحقّ من الظّالم،

فقال للوالي: « هؤلاء أصحاب الرّفقة، وأولائك أضيافك، فأنزلهم يعني بذلك عن حبسهم » (طبقات ٢/ ٣٢٢).

ولم يكن الرّجل ممّن يتّخذون القضاء مطيّة للجاه أوالكسب وإنّما تولاّه من أجل إحقاق الحقّ، وحالما اختلف مع بعض علماء عصره في بعض المسائل وخاصّة منهم أبا المهاصر تشبّث بموقفه واستقال من خطّة القضاء (بغطوري: ١٠٧).

**عمروس العالم المؤلّف**: قال أبو زكريّاء: « وكان عمروس عالما كبيرا له كتب في الأصول والفقه. وما مات حتّى كان قد فرز بين مسائل النّص ومسائل السّنة ورأي المسلمين. وكان حاذقا فطنا، حاضر الحجّة. » (السّير ١٤٥).

وينقل الشّماخي عن الدّرجيني: « وصرف إلى ذلك وجيه العناية حتّى يكون تأليفه طرازا، كما صنّف في علوم الشّرائع وأعجلته المنيّة » (سير ط تونس ١٤٩).

الأساس من هاتين الرّوايتين أنّ الرّجل أدرك بوضوح ما اصطلح على تسميته بأصول الفقه قرآنا وسنّة وإجماعا، وإن لم يمكّنه أجله من إنجاز ذلك فقد أنجزه عنه فيما بعد أبو الرّبيع سليمان بن يخلف المزاتي (٤٧١ - ١٠٧٨) في كتابه التّحف المخزونة حقّقه محمّد الأندلوسيّ ولم يطبع بعد، ثمّ أبو يعقوب الوارجلاني (٥٧٠ - ١١٧٤) في كتاب العدل والإنصاف وقد طبعته وزارة التّراث بعمان بدون تحقيق في جزأين.

وقد نسب إليه كلّ من عبد الرّحمان بكلي (١٤٠٦_١٩٨٦) وأحمد بن حمّوكرّوم المؤلّفات التّالية: العمروسي أجاب فيه على الشّيخ عبد الخالق الفزّاني. كتاب أصول

الدّينونة الصّافية. كتاب في الرّدّ على النّكاث وأحمد بن الحسين. كتاب الحكم والمعارف. وكتاب أحكام الملّة. كتب في الفقه والأصول (قواعد: ٣٧٢).

والملاحظ أنّهما لم يحيلا على المصدر الّذي استقيا منه هذه المعلومات، ويبقى باب البحث مفتوحا في شأن هذه المؤلّفات باستثناء اثنين منها:

**أوّلهما: كتاب أصول الدّينونة الصّافية** خ. ١١ صفحة، ٢٧ سطرا في الصّفحة. ١٥ × ٢١ سم. خطّ مغربيّ قديم بدون تاريخ. قسم من مخطوطة متعدّدة المحتويات. البارونيّة. ويقول النّامي إنّه رأى نسخة أخرى في حيازة الشّيخ محمّد بابانومن بني يسجن وادي مزاب. وقد حقّقها تحقيقا علميّا رصينا أحمد بن حمّوكرّوم - من وادي مزاب - وراجع التّحقيق مصطفى شريفي ومحمّد بابا عمّي من مزاب أيضا وطبعت بوزارة التّراث القومي والثّقافة ط ١. ١٤٢٠ / ١٩٩٩. ٢٠٣ صفحة

**ويبدأ النّصّ بـ** « كتاب في أصول الدّينونة الصّافية تأليف الإمام الفقيه عمروس بن فتح رضي الله عنه. الحمد لله الّذي أنار الحقّ ببرهانه، وأوضح منهاجه بالحجج المنيرة الّتي قطع الله بها عذر المبطلين، وشهد بها على أعدائه بما أراد الله عزّ وجلّ لئلاّ يكون للعاصي في معصيته عذر... »

**وينتهي بـ:** « وإن أصابوا معصية يخاف عليهم منها في حكم المسلمين، وكانوا لله عاصين يخاف عليهم فيها عقوبة الله في الدّنيا والآخرة، وعليهم التّوبة من ذلك والخوف، وإن تمادوا ولم يتوبوا ضلّوا وكفروا، وادّعوا أنّ ذلك لهم حلال، فهو أشدّ

لكفرهم من التّمادي. وقد وصفت في هذا أصول السّيرة والدّينونة الصّافية. نسأل الله التّوفيق. » النّامي مجلّة الدّراسات السّامية م ١ عدد ١ ربيع ١٩٧٠ ص ٢٠.

وقد حلّل عمروس في هذا النّص ثلاث مسائل أساسيّة هي: - مواقف الإباضيّة من المؤمنين والمشركين والمنافقين.

- مواطن الخلاف بين الفرق: المرجئة، الصّفريّة، المعتزلة، أهل الحديث، مع ذكر الأدلّة باختصار.

- تحليل ما لا يسع جهله طرفة عين وما يسع جهله من الإيمان والعمل حتّى يحلّ وقته. (الجّعبيري: البعد ١١٠)

كما عرض في الفروع مسائل العبادات، والمعاملات والنّكاح، والمواريث. ص ٨٥ - ١٥٩.

وتعتبر قيمة هذا النّص في أنّه من أقدم ما وصلنا ممّا كتب في العقيدة في بلاد المغرب وإن سبقته مؤلّفات أخرى لكنّها لم تصلنا. كما يذكر النّامي أنّه أوّل نصّ مغربيّ تبنّى تسمية الإباضيّة بالإباضيّة لأنّ النّصوص المتقدّمة عليه تستعمل التّسميتين الأوّليين للفرقة وهما « أهل الدّعوة » « أهل الاستقامة » (دراسات ٤٦).

**وثانيهما: كتاب الرّدّ على النّاكثة وأحمد بن الحسين**، ٣٦ صفحة، ٢٦ سطرا في الصّفحة (النّاكثة والحسينيّة من الفرق الإباضيّة المنشقّة). ٥ , ٢٠ × ٥ , ١٤ سم. خطّ مغربيّ قديم بدون تاريخ. النّاسخ عبد الله بن عيسى بن زكريّاء... النّفوسيّ، ومعنون

بـ: كتاب في الرّدّ على النّاكثة، وأحمد بن الحسين، وهوممّا ردّ عليهم عمروس بن فتح في الأسماء، وفي ولاية الله وعداوته، وفي وجوه كثيرة...

**وأوّل المخطوط**: الحمد لله ذي العزّة والسّلطان، والعظمة والبرهان، شرع دينه وبيّنه، وأخذ على جميع من علّمه إيّاه الميثاق لتبيّننه للنّاس ولا تكتمونه، وقال ﷻ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ﴾ (٣ آل عمران ١٨٧).

**وآخره**: « فإن قيل يجري على شيء من الآخرة القضاء؟ فقل: أمّا الّذي (؟) فمنقض، والباقي في غير ذي نهاية ولا غاية، وليس له انقضاء. تمّ الكتاب بحمد الله ومنّه » (النّامي ص ٨١).

ويخالف النّامي عبد الرّحمان بكلي في اعتبار الكتاب المعروف بالعمروسي كتابا مستقلا أجاب فيه على الشّيخ عبد الخالق الفزّاني فيقول عن كتاب الرّدّ على النّاكثة وأحمد بن الحسين « هذا الكتاب يظهر أنّه المذكور في المصادر الإباضيّة باسم العمروسيّ، الكتاب الّذي كتبه عمروس لزميله عبد الخالق الفزاني » (سير الشّماخي ٢٢٥)، وعندما رآه الفزّاني وهوالّذي وضع الكتابين المعروفين بأصول الكلام قال: « النّفوسي أقوى منّي »

ثمّ يقول: وهذا العمل يقدّم وجهة نظر الإباضيّة في الأسس والقواعد المهمّة في الفقه الإسلاميّ والعقيدة، وتكمن أهمّية هذه الرّسالة - في الحقيقة - في أنّها أقدم إنتاج في هذا الموضوع ما زال موجودا عند الإباضيّة في شمال إفريقيا. » ( J s s. ٨١)

والملاحظ أنّي لم أطّلع على هذه الرّسالة.

**اللّقاء بأبي غانم الخراساني:** تتّفق جميع المصادر الإباضيّة على أنّ أبا غانم الخراساني أودع نسخة من مدوّنته عند عمروس بجبل نفوسة أثناء رحلته إلى تاهرت فاستغل هذا الأخير وجود الكتاب في حوزته فاستنسخه، وهي النّسخة الباقية في المغرب بعد أن أحرقت المكتبة الموسومة بالمعصومة بتاهرت (طبقات ٢/ ٣٢٣). والمدوّنة ط جزآن، وزارة التّراث، سلطنة عمان ١٤٠٤ - ١٩٨٤. ٦٦٤ صفحة.

**اللّقاء بمحمّد بن محبوب بن الرّحيل:** (٢٦٠/ ٨٧٣) إن تمّ اللّقاء السّابق في جبل نفوسة فقد تمّ هذا اللّقاء في مضارب العمانيّين في منى في موسم الحجّ، وتنوّه المصادر بطرافة هذا اللّقاء وما كان بين العالمين من تدراس لكثير من خفايا العلم وقد تعهّد عمروس لرفقته أن ينقل ذلك لأهل الجبل، وقد أنجز ما وعد (سير ٢٢٧، وانظر كتابنا عن محمّد بن محبوب بن الرّحيل دار الجّويني للنّشر تونس ٢٠٠٠).

وقبل أن نختم يحسن أن نذكر أنّه قامت فتنة في زمان عمروس عرفت بفتنة نفّاث، وهوفرج بن نصر، وقد لقّب بالنّفاث لأنّه كان يوحي بالأفكار الفاسدة، فتصدّى له عمروس مع زميله مهدي الرّيغي واستطاعا مناظرة الرّجل، ويقول الباروني إنّ نفّاثا هذا تخلّى عن وجهة نظره وتاب بعد عودته من المشرق، غير أنّه لا دليل يدعم هذا القول. (ر. النّامي: دراسات ٢١٣).

كما يحسن أن نذكر أنّ الوسياني ينسب إليه أنّه يقول: « الملائكة ممّن يكتسب وليس عليها تكليف » (خ سير: ٢٢٨)

كما أنّه يقول بالوقوف بالنّسبة إلى أطفال الكفّار والمشركين (الرّد على النّاكثة خ ١٩ - ٢٠ عن النّامي: دراسات ٢٥١)

كما أنّه يقول بالولاية بالاعتماد على شهادة امرأة واحدة وذلك عندما أراد أن ينفّذ وصيّة أمّه بالحجّ ولم يجد من يعرفها ويتولاّها إلاّ امرأة واحدة فحجّ عنها (الوسياني سير ٤، شمّاخي ٢٢٨).

كما أنّ أبا يعقوب الوارجلاني ينسب لعمروس أقوالا انفرد بها (الدّليل ج ١. ٩٧ ط عمان ١٩٨٣).

كما نذكر موقفه ممّن تولّوا أهل شرْوَس جملة: وجلس معه ذات مرّة داود بن ياجرين، وماطوس بن هارون رحمهم الله، فتحدّثوا حتّى جرى بينهم ذكر أهل الصّدق، وأهل الكذب، وذكروا أهل شرْوَس [من أعظم مدن جبل نفوسة آنذاك] ، فقال الشّيخان: « إنّ أهل شروس لا يكذبون. » فأظهر عمروس إجازة شهادة كلّ شروسيّ، فعاتباه على ذلك. فقال لهما: « إنّما حكمت بشهادتكما، إذ زكّيتما جميع أهل شرْوَس ». فقالا: « ما أردنا ذلك ». فوقف عن الحكم بشهادة غير العدلين.

قلت [الدّرجيني] : « وعمروس أجلّ من أن يتجاوز إلى هذا القدر أوينسب إليه هذا التّاهاون، ولعلّ الشّيخين لما قالا في أهل شروس ما قالاه ظهر له أنّ في ذلك القول مجازفة إذ برّءا من الكذب جميع أهل شروس جملة من غير تعديل. وتأدّب أن يواجههما بالمناقضة، فسلك بهما طريقا يرجعان به إلى الصّواب من غير تخطئة ولا توبيخ، وهذه إحدى فضائله، لا ينسب إليه غير هذا » (طبقات: ٢ / ٣٢٢).

وتذكر المصادر أنّ لعمروس ورثة لكن لم تعرّف بأيّ منهم، وإنّما تشير إلى أنّه كان صارما في وصيّته لهم « وكتب وصيّته في كتاب، ودفعها لورثته، فأمرهم أن يعملوا بمضمونه، و[قال]: أنا خصيمكم بين يدي الله» (طبقات ٢/ ٣٢٣).

والرّاجح أنّ ذلك كان عند خروجه لواقعة مانوالّتي كانت بين إباضيّة جبل نفوسة وإبراهيم بن الأغلب الّتي انتهت بمأساة إباضيّة مرّة قتل فيها أربعمائة عالم وأسر فيها عمروس فحمل إلى إبراهيم بن الأغلب الّذي **قتله صبرا** بعد أن ساومه بالتّخلّي عن عقيدته وتيقّن من ثباته وقوّة عزمه، وذلك سنة ٢٨٣ - ٩٩٠.

(عن جميع المصادر والمراجع. ر معجم أعلام الإباضيّة ترجمة عمروس ص ٣٢٢ عدد ٦٩٠).

# أبو خزر يغلا بن زلتاف وزلتاف أمّه وأبوه أيوب

## (حوالي ٣٠٠ / ٣٨٠ - ٩١٠ / ٩٩٠).

ولد بحامة قسطيليّة وهي ما يقابل بلاد الجريد حاليّا (٢٠٠٤) بالبلاد التّونسيّة، وقسطيليّة تحتلّ مركزا حضاريّا هامّا، حيث كانت معبرا صحراويّا بين المشرق والمغرب، أي بين طرفي الدّولة الرّستميّة نفوسة شرقا وتاهرت غربا، وبلاد السّودان، وتعتبر على امتداد التّاريخ الإسلامي مركزا هامّا من مراكز الثّقافة الإسلاميّة، وقد كانت الغلبة في النّصف الأوّل من القرن الرّابع / العاشر للمذهب الإباضي وما تفرّع عنه، وذلك للتوزّع الدّيمغرافي الّذي عرفته المنطقة ابتداء من القرن الثّاني / الثّامن، فقد استقرّت نفوسة بقنطرار بنفطة، وبنودرجين بدرجين بنفطة، وكزينة من مزاتة بين توزر والحامّة، وبنووسيان من زناتة بتوزر وغيرها، وبنويفرن النكّاريّة بزناتة بسدادة. واتّخذ الإباضيّون قنطرار بنفطة عاصمة لهم، ومارسوا نشاطهم لتوضيح عقيدتهم والمنافحة عنها، فغمر الجدل هذه العاصمة، سواء أكان هذا الجدل داخليّا بين مختلف فرق الإباضيّة، أومع غيرهم من الفرق الأخرى وفي مقدّمتهم المعتزلة.

وأدركت حمّة البهاليل (الحامّة) وتقيوس وسدادة ضروبا من النّشاط المذهبي أخصبت الفكر وأمدّت ثقافة الإسلام بزاد لا ينفد (ر. الإباضيّة في الجريد المقدّمة).

في مثل هذا المحيط نشأ أبو خزر في مرحلة حاسمة من تاريخ الإباضيّة، إنّها مرحلة انتقاليّة بين طور الظّهور وطور الكتمان عرف الإباضيّة قبيلها في آخر القرن

الثّالث نكبتين مبيدتين، واقعة مانو٢٨٣ - ٨٩٦ بجبل نفوسة حيث قتل أربعمائة عالم على يد الأغالبة، وسقوط الإمامة الرّستميّة (٢٩٦ - ٩٠٨) على يد التّيار الشّيعي الزّاحف، وأثناءها سنة ٣٣٦ - ٩٤٧ انكسار أبي يزيد النّكاري صاحب الحمار على يد إسماعيل الشّيعي بعد أن كان قاب قوسين من النّصر، رغم الاختلاف في المنزع إذ يقول أبو القاسم الوهبيّ: « لقد فتح فيهم أبو يزيد فتحا لوأحسن السّيرة ». (طبقات ١: ١٠١) ثمّ انكسار أبي خزر مترجمنا في واقعة باغاي أمام المعزّ لدين الله الفاطمي إلاّ أنّ هذا الغليان السّياسي وهذه النّكبات لم تخمد الحركة العلميّة بقسطيليّة تلك الّتي ورثت، هي وما حواليها من بلاد الزّاب وأريغ ووارجلان، رصيد الإمامة الرّستميّة الزّاخر بحكم من وصل من الفارّين من هناك، فعرفت ازدهارا ملحوظا إذا صارت مركز الثّقل عند إباضيّة المغرب.

والنّاظر في أخبار أبي خزر في كتب السّير والطّبقات يدرك أنّه يمكن أن يقسّم حياته إلى ثلاثة أطوار: طور ما قبل الثّورة، الثّورة، ما بعد الثّورة بين التّخفّي والإقامة بمصر.

**طور ما قبل الثّورة أوالتعلّم والتّعليم**: في هذه المرحلة من حياة أبي خزر تجمع المصادر دائما بينه وبين زميله أبي القاسم يزيد بن مخلّد اليهراسني الحامّي (٣٥٨ - ٩٦٧) (معجم الأعلام عدد ١٠٢٢) فتذكر أنّهما بعد مرحلة التلقّي الأولى أخذا عن شيخين جليلين مشهود لهما بغزارة العلم وسعة الأفق: **أوّلهما** أبو الرّبيع سليمان بن زرقون النّفوسي ذاك الّذي جمع بين علم إباضيّة المغرب في نفوسة وعلم إباضيّة

المشرق عن طريق ابن الجمع العماني في قسطيليّة ثمّ في سجلماسة ذاك الّذي أوصى له بجميع كتبه عند وفاته (معجم الأعلام: عدد ٤٤٧) وقد كان آية في علوم التّفسير والفقه والإعراب واللّغة وفنون العلم.

**وثانيهما** سحنون بن أيّوب وهو «متكلّم بارع، فقيه أوانه وعمدة مكانه » (معجم عدد ٣٦٨)، وقد أفاد خاصّة من براعته الكلاميّة والقدرة على المناظرة.

وتثني المصادر على كثرة مثابرتهما وتعاونهما على تدارس العلم، من ذلك أنّ أبا القاسم كان ميسور الحال بينما يضطرّ أبو خزر إلى كسب رزقه « وكانا يقرآن كتابا واحدا فإذا قام أبو خزر إلى بعض أشغاله، قرأ أبو القاسم، فإذا رجع، ابتدأ من المكان الّذي ذهب عنده، فيقول أبو القاسم: لي مرّتان ولك مرّة » (سير ٣١١).

ونحن نعلم ما لهذه المدارسة الثّنائيّة من قيمة في ترسيخ العلم والدّربة على المناظرة والمنافسة، وقد ثبت أنّهما كانا يستشهدان بقول عبد الله بن الخير: « ما أخاف أن يعذّبني الله إلاّ على الجهل.» (سير ٣١١)، وإن نوّهت المصادر بأنّ أبا القاسم فاق الأقران، فإنّه قد كان لأبي خزر في المناظرات والمنافحة عن الإباضيّة شأن، أليس هوالقائل للمعتزلي في مصر عندما بزّه وسأله عن المواطن الّتي تعلّم بها: « تعلّمت في بلاد الحلفة (الحلفاء) والشّيح » (سير ٢٢٠)، هو بذلك يفاخر بفضل ما اكتسبه من علم في قسطيليّة وغيرها من بلاد المغرب، وفي هذا الصّدد لا ينبغي أن نغفل عن شهادة المعزّ لدين الله الفاطمي (٣٤١ / ٣٦٥ - ٩٥٢ / ٩٧٥) في أبي خزر عندما سئل عن قدرته العلميّة فقال: « يغلا عالم ورع » (طبقات ١ / ١٢٣).

نعم إنّ هذا التّفوّق في مرحلة الطّلب دفع بالرّجلين إلى التصدّر بسرعة للعطاء وهذا الدّرجيني يقول: « ثمّ إنّهما تصدّرا شابّين فكانت طلبة أهل الدّعوة تؤمّهما من كلّ جهة، يقرأ عليهما كلّ طالب ما طلب من أيّ الفنون ما شاء، من علم القرآن والحديث والأصول والفقه وعلم العربيّة والسّيرة حيث اشتهر ذكرهما وعلا أمرهما » (طبقات ١ / ١٢٠).

والمتأمّل في سند الدّين عند إباضيّة المغرب يجد أنّ إحدى حلقات هذه السلسلة أبو خزر طبعا مع أبي القاسم، وقد كان أثرهما واضحا في الجيل الّذي أخذ عنهما مباشرة ثمّ في الأجيال اللاّحقة عندما تحوّل الإباضيّة إلى الكتمان وأنشأوا نظام الحلقة الّذي كان عاملا من عوامل التمحّض للعلم والتّعليم وإصلاح الشّؤون الدّاخليّة لأهل الفرقة للحفاظ على الكيان.

ويحسن أن نشير هنا إلى فضل أبي القاسم في الإنفاق على الطّلبة إلى أن اعتبر بعض أهل الحامّة أنّ مثل هذا العمل ضرب من الجنون، وقد أفاد أبو خزر من ذلك إذ لم يبخل في العطاء العلمي رغم قلّة ذات اليد.

والملاحظ أنّ الرّجلين لم يكتفيا بهذه المدرسة القارّة وإنّما كان ينتقلان في أطراف البلاد في البادية لنشر العلم، وذلك شأن شيوخ الإباضيّة في ما يسمّونه بتثبيت أهل الدّعوة (طبقات ١ / ١٢١).

**تلاميذه:** هذه الحركة العلميّة الدّؤوب استفاد منها بدون شكّ خلق كثير، وتلحّ المصادر على أنّ أبرز من أخذوا عن أبي خزر وتمكّنوا من مواصلة المسيرة هم:

* أبو نوح سعيد ابن زنغيل موفده إلى نفوسة عند الاستعداد للثّورة والّذي احتال للبقاء في المغرب عندما اضطرّ شيخه إلى مرافقة المعزّ إلى مصر وواصل نشر العلم وتثبيت أهل الدّعوة حيثما حلّ وخاصّة في وارجلان الّتي سترفع المشعل بعد حين في القرن السّادس/ ١٢. و* فصيل بن أبي مسور اليهراسني من جربة الّذي أدركته الثّورة وهو في محيط شيخه فراح يستنفر أهل جربة للمناصرة فقام بذلك أحسن قيام لكنّه أدركه خبر الهزيمة وهوفي الطّريق فكرّ راجعا إلى جربة. وعندما بلغه خبر سفر شيخه إلى مصر « تلقّاه ببعض الطّريق وسأله عن ثلاث مسائل، فكان أبو زكريّاء يحدّث بذلك ويقول: « سألته ولم يجبني إلاّ بما أحبّ. » (سيرة ٢١٦). وقد كان لفصيل هذا شأن في التّفكير العملي في الدّعوة إلى التّحوّل إلى مرحلة الكتمان وذلك بتكوين الحلقة الّذي انتدب له تلميذه أبا عبد الله (٤٤٠ - ١٠٤٩) كما تذكر المصادر عالما آخر تقول إنّه من أفاضل تلامذة أبي خزر وقد أخذ عنه الآثار والسّير إنّه أبو موسى يزيد المزاتي الّذي تمسّك بالورع بحبل وثيق... وأتقن مسائل الحلال والحرام... وبثّ المعروف في الأجانب وأولي الأرحام...» (طبقات ٢ / ٤٢١).

ولا يفوتنا بأن نشير إلى مدى شغفه بحلقات التّعليم ذاك الشّغف الّذي عبّر عنه عندما كان يقاسي آلام الغربة في مصر رغم ما هوفيه من رغد العيش بتمنّيه أن يكون عنده عشرون من طلبة أهل الدّعوة يعلّمهم، وينفق عليهم، ويقوم بما يلزمهم (طبقات ١ / ١٤١).

هذه ملاحظات عن حياة أبي خزر العلميّة نختمها بقوله لأحد أصحابه عندما سأله لماذا لا ينكبّ إلا على قراءة القرآن، ولا ينظر في كتب العلم: « إنّما ينظر فيها (كتب العلم) من يستفيد منها، وإن لم يستفد، فقراءة القرآن أفضل » (الشمّاخي: ٣٢٣) فماذا عن حياته السّياسيّة؟.

**ثورة أبي خزر ثأرا لزميله أبي القاسم وإمامة الدّفاع.**

**الأسباب البعيدة:** معلوم أنّ النّفرة متأصّلة بين الإباضيّة والعلويّة منذ أن اعتبرت المحكّمة الأولى أنّ عليّا أخطأ في قبول التّحكيم، وتحكيم الحكمين، ثمّ ازداد الأمر تجذّرا عندما تمكّن المدّ الشّيعي من أن يجهز على الدّولة الرّستميّة وأن يصيّرها أثرا بعد عين، وأن ينتهك حرمة عاصمتها تاهرت تخريبا وإحراقا، بما في ذلك إحراق زادها الثّقافي المذخور في المكتبة « المعصومة » الّتي تجمّع فيها كلّ التّراث الإباضي والإسلامي المشرقي والمغربي، وما نبع عن ذلك من تمزّق جموع الإباضيّة في أطراف البلاد وعلى أبواب الصّحراء الكبرى فرارا بدينهم.

إنّ مثل هذا الشّعور بالعداء كامن في الأعماق ينتظر أيّ شرارة لينقدح ويشتعل، وقد تماسك الوهبيّة من الإباضيّة رغم انقداح الشّرارة عند قيام ثورة أبي يزيد لأنّهم لسيرته كارهون، وعلى تصرّفه ناقمون، أليس هوالّذي نشأ في أحضان الوهبيّة ونهل من معين شيوخهم ثمّ قلب ظهر المجنّ لكلّ تلك المنن فصار نكّاريّا مخالفا، فغير جدير بأن يناصر وإن كان توجّه إلى العدو المشترك، وفيما أوردنا من قبل من قول أبي القاسم في هذه الثّورة كفاية وهو: « لقد فتح فيهم أبو يزيد فتحا لوأحسن السّيرة ».

**السّبب المباشر لقيام الثّورة:** إنّه أمر المعزّ لدين الله الفاطمي بقتل الشّيخ أبي القاسم الحامّي ذلك أن هذا الأخير بلغ درجة من الأبّهة والسّلطان في قسطيليّة، وكذلك عندما كان يزور مدينة القيروان جعلت المعزّ يستريب منه بعد أن كانت الألفة بينهما كأحسن ما يكون، وفعلا تلحّ المصادر على أنّ الوشاة أضافوا القطرة الّتي أفاضت الكأس فأوغروا صدر المعزّ ممّا جعله فعلا يحتاط لأمره ويأمر عامله على الحامّة أن يقتل أبا القاسم، وقد حاول هذا العامل أن يبعد هذا الأخير عن محيطه لما بينهما من صحبة إلى أن هدّد بالقتل إن هو لم ينفّذ أمر سيّده، فما كان منه إلاّ أن أطلع أبا القاسم على هذا التّهديد وأمر بقتله.

لقد أساء بهذا القتل لجميع الإباضيّة أيّما إساءة، فما كان منهم إلاّ أن تجمّعوا حول أقرب النّاس إليه أبي خزر وبايعوه **إمام دفاع** على أن يولّوه إمامة الظّهور إن انتصر وثأر لأبي القاسم، وما أن تمّت له البيعة وجدّ الجدّ حتّى أرسل في أطراف البلاد يستشير أهل الدّعوة ويستنفرهم فكانت نفوسة وجربة من نصيب أبي نوح سعيد بن زنغيل، والزّاب وأريغ ووارجلان من نصيب أبي محمّد جمال المدوني فلبّى الجميع الطّلب سوى أبي صالح من شيوخ جربة عارض هذه الحرب بقوله: « لا تهيّجوا على أنفسكم أهل الخلاف فإنّهم أكثر منكم عددا ومددا ». (طبقات ١ / ١٢٧).

وتذكر المصادر أنّ أبا تميم عندما بلغه تجمّع هذه الجموع دعا إلى الصلح على أن يستقرّ كلّ طرف في محيطه، وليس ذلك عن ضعف - في رأينا - وإنّما هوالدّهاء

ليضمن الاستقرار لهذه البلاد، وهويستعدّ ليغادرها إلى مصر وقد أمن كيد من يخشى أن تتجمّع حوله جموع الإباضيّة بقتله.

ولكنّ الجموع الإباضيّة أبت إلاّ الصّدام رغم أن أبا خزر نفسه كان أميل إلى الصّلح.

وفعلا انطلقت المعركة بطرفين غير متكافئين، طرف شيعي على أشدّه خاضع لقيادة واحدة طاعة الإمام عنده من الإيمان، وطرف ينتابه الوهن من عدّة جهات، فاختار أبو خزر مباغتة عامل المعزّ على باغاي طيّان الصقلّي ولم ينتظر تكامل المدد فاستطاع أن يقتل طيّانا هذا بعد أن استنفر هوالآخر أبا تميم الّذي انطلق في جيش عظيم في ٢٣ شوال سنة ٣٥٨ / ٩٦٩.

واستطاعت جموع أبي تميم أن ترشي طرفا من عسكر أبي خزر فتخاذل، وبذلك تمّ النّصر لأبي تميم ذاك الّذي زاده حنقا على الإباضيّة رسالتهم الّتي وجّهوها إلى بني أميّة يستنفرونهم (طبقات ١ / ١٢٧).

وقد بلغ خبر الهزيمة الجموع المقبلة من الزّاب ووارجلان وأريغ ونفوسة وجربة فلم يكن من الكلّ إلاّ الرّجوع يجرّون مرارة الخيبة، وفعلا قد سمّى المشائخ هذه المعركة معركة الشّهداء، وكانت آخر إمامة دفاع عرفها الإباضيّة في المغرب.

ولم يكن من أبي نوح وأبي خزر إلاّ أن يختفيا، أمّا أبو نوح فسرعان ما باغتته رسل أبي تميم وهويرعى الغنم متنكّرا، واستطاع بما أوتي من بيان أن يحصل على عفو أبي تميم. وأمّا أبو خزر فقد لجأ إلى جبل نفوسة واحتمى بواليها أبي زكرياء بن أبي عبد

الله بن أبي عمر بن أبي منصور إلياس، وقد استطاع أبو نوح أن يطلب من أبي تميم الأمان للإباضيّة جميعا ولشيخه أبي خزر فلمّا تيقّن أبو خزر من هذا الأمان وهو لا يشكّ أنّ الخيانة أبعد ما يكون عن أبي تميم لم يكن منه إلاّ أن التحق بالمعزّ لدين الله بالقيروان في ٢١ ربيع الآخر سنة ٣٥٩ فوفّى بوعده وأكرم وفادته.

ثمّ بعد ذلك لم يكن منه بعد ذلك إلاّ أن اصطحبه معه إلى مصر عندما رحل إليها سنة ٣٦٢-٩٧٣ وسكت عن أبي نوح الّذي تمارض وخيّر البقاء في بلاد المغرب.

وإنّها لعمري لقسمة إمام شيعيّ ذكيّ، إنّه المنّة على أبي نوح، وهي منّة لا تنسى عند أولي الألباب، وفعلا قد حوّل وجهته إلى الإصلاح الاجتماعي، وإنّه لتكريم لأبي خزر باطنه الرّحمة وظاهره العذاب، إنّها الغربة إنّه الفراق، إنّها الإقامة الجبريّة بلغة العصر طعمها علقم ولوكان يرفل في النّعم، إنّه بحقّ رهينة ثمينة لا تجعل أنصاره يوما ما يفكّرون في الثّورة مرّة أخرى إلى جانب ما نعمت به جموع الإباضيّة من طمأنينة وإن إلى حين بفضل التزام أبي تميم بما وعد من الأمان.

وفعلا بدأت جموع الإباضيّة تفكر في فتح صفحة جديدة من تاريخها إنّه التّحوّل من طور الدّفاع مع أبي خزر إلى طور الكتمان.

**ما بعد الثّورة:** استقرّ القرار بأبي خزر في القاهرة المعزيّة النّاشئة مكرّما طيلة ما بقي من حكم المعزّ. وكأنّ ابنه نزار غفل بعض الشّيء إلى أن اضطرّ إليه لمناظرة أحد

المعتزلة فجدّد له التّكريم، وقد عرفنا أنّه لطالما كان يتمنّى أن يجتمع حوله عشرون من طلبة أهل الدّعوة يقرئهم بما منّ الله عليه لكن أنّى له ذلك !!

**مؤلّفه وأقواله:** إنّ هذه الحركيّة الدّؤوب في مرحلة حرجة من حياة الإباضيّة بالمغرب جعلت المصادر تنوّه بطول باعه في المناظرات في المحيط الإباضي، ثمّ في القيروان، ثمّ في مصر، وتنسب إليه عديد من الاجتهدات الأصوليّة والفقهيّة، ولم تذكر له إلاّ مؤلّفا واحدا يثبت بحقّ أنّ الرّجل سليل مدرسة تأصّل فيها علم الكلام من زمن مبكّر إنّه رسالة مختصرة تضمّ ٧٧ صفحة مرقونة بكلّ صفحة ١٥ سطرا من الحجم الكبير موسومة بـ « **كتاب الرّد على جميع المخالفين** »، ولسنا ندري أين ألّفها لكنّنا نرجّح أنّها من ثمرات الإقامة بالقاهرة.

وقد حقّق النّامي هذه الرّسالة ولم تطبع، ومحورها الرّد على المخالفين في المسائل التّالية: مسألة أسماء الله تعالى، هل الاسم هوالمسمّى أوغيره؟ هل هي مخلوقة؟ مسألة الوقوف وهي متّصلة بالولاية والبراءة، تحديد ما لا يسع جهله، قضيّة أفعال العباد والرّد على المعتزلة، مسألتي الاستطاعة والإرادة، مناقشة المرجئة والخوارج في قضيّة الإيمان.

وهذا تلخيص أبي خزر لرسالته مع عرض منهجه: « فقد ذكرنا ما اعتلّت به المعتزلة، فأخذ أصحابنا بأوسط الأقاويل وأعدلها وأصوبها ممّا وافق كتاب الله، وسنّة نبيه ﷺ، والقياس الّذي لا يقدر مبطل على نقضه، فنفينا عن الله التّشبيه، فأثبتناه حياً فاعلا واحدا ليس كمثله شيء ولا يشبهه شيء، وأبطلنا حجّة المشبّهة، وأبطلنا ما اعتلّ

به جهم وما اعتلّت به المعتزلة، من تثبيت جهم القدرة لله حتّى ألزمه الجور، ونفى المعتزلة الجور عن الله حتّى نفوا عنه القدرة على أكثر الأشياء، ومن لا يقدر على شيء فهوعاجز عنه، ومن يعذّب من لم يظلم فهوجائر ظالم...» ص ٧٥(البعد ١١٣).

والملاحظ أنّ هذه الرّسالة تندرج ضمن المرحلة الثّانية من مراحل تطوّر الفكر العقدي عند الإباضيّة والّتي تمتدّ من القرن الثّاني إلى القرن الخامس / ١١، وقد ناضل فيها الفكر الإباضي التيّارات الّتي بدت له منحرفة، وانسجم مع ما بدا له متماشيا وكتاب الله وسنّة رسوله عليه السّلام، فرفض فكرة الإرجاء رفضا قطعيّا، وبيّن أنّ الإيمان عقيدة وقول وعمل، كما رفض اعتبار الموّحدين مشركين، ووقف موقفا وسطا بين الجبر والحريّة، وذلك إمّا أثناء ردّ مواقف من خارج المدرسة أومواقف داخليّة، وفي هذه المرحلة بدأت تتجلّى معالم المدرسة الإباضيّة المغربيّة بمجموعة من المؤلّفات - من بينها كتاب الرّد على جميع المخالفين هذا - لم تدرك مستوى النّضج، وإنّما تجلّت فيها المواقف العقديّة صريحة من جلّ القضايا، (ر. البعد ٧٦٦).

وقد عثر ساسي بن يحياتن - باحث معاصر من جربة - على مسائل أجاب بها أبو خزر ضمام بن أبي مسور يزيد المزاتي من نسخ الشّيخ سالم بن يعقوب وهي كالتّالي:

١) وسألت عن شفاعة النّبيّ ﷺ: للكافرين كانت أم للمؤمنين؟ فإن قلت إنّها للكافرين فلا وجه لأنّ الكافرين وجبت لهم النّار، والشّفاعة لا تبدّل ما أوجب الله.

وإن قلت للمؤمنين فلا وجه لها أيضا لأنّ المؤمنين قد وجبت لهم الجنّة. ألوجوبها قد وجبت أم لزوال ما قد زال؟ فإن قلت لوجوب ما قد وجب فذلك فاسد لأنّ ما قد وجب لا يحتاج إلى شفاعة. والشّفاعة لما قد وجب باطل.

فإن قلت لزوال ما قد زال فذلك فاسد لأنّ ما قد زال لا يحتاج إلى شفاعة.

فإن قلت لزيادة الثّواب لهم فلا يخلوما قد زيد لهم:أيوجب فيما قد وجب أم لم يوجب لهم؟ فإن قلت لم يوجب لهم فليس لهم ما لم يوجب لهم، فإن قلت لزيادة ما قد وجب لهم فلا حاجة لشفاعة على ما وجب لهم. فنقول عند ذلك وبالله التّوفيق: إنّ الشّفاعة للمؤمنين خاصّة وذلك أنّ شفاعة النّبيّ ﷺ للمؤمنين فضيلة تفضّل الله بها على غيره لا لوجوب ما قد زال ولا لزوال ما قد وجب، ولكن الله امتنّ عليه وفضّله على غيره بشفاعة كما فضّل إبراهيم بخلّته وقال خليل الرّحمان. وكما فضّل عيسى على غيره إذ قال: روحه وكلمته وكما فضّل موسى وقال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النّساء ١٦٤). وكلّ واحد فضّله بخصلة. وإن كانت تلك المعاني في غيره، كما فضّل محمّدا ﷺ بالشّفاعة دون غيره.

٢) وسألت عن المنافقين هل يعذّبون عذاب المشركين أويزيل عنهم ما فعلوا من الطّاعة.

قال وبالله التّوفيق:

أمّا ما سألتني عنه من المنافقين هل يعذّبون عذاب المشركين أم لا؟ قلنا إنّ في هذا قولين: قال بعض أصحابنا: لا يعذّبون على فعل التّوحيد وعلى فعل جميع ما

فعلوا من الطّاعة إنّما يعذّبون على ترك ما لم يفعلوا ممّا أوجب الله عليهم فعله، مثل فعل ما أوجب الله عليهم تركه، ويحطّ عنهم عذاب قدر ما فعلوا من الطّاعة، ولا يبلغ عذابهم عذاب المشركين.

وآخرون يقولون: إنّهم يعذّبون عذاب المشركين.

والقول الأوّل أحسن وأقرب إلى الصّواب.

٣) وسألته عن الكلام، أجسم هوأم غير جسم؟

فقال إنّ الكلام اختلف فيه المتكلّمون فقال بعضهم إنّ الكلام فيه معنيان: تقطيع ومقطّع. فما كان فيه من تقطيع فهوحركة، وما كان فيه من مقطّع فهوصوت وهوجسم فعل الله لا فعل العبد.

وقال بعض: إنّ الكلام فعل العبد وهومنسوب إلى العبد أجمع، وهوعرض لا جسم، فما كان فيه من تقطيع فهوحركة وما كان فيه مقطّع فهوعرض، وإن كان لا عرض ولا سكون فهوفعل العبد وهوسبب عن سبب تقدّمه، وقال: هذا القول أصوب من الأوّل.

قلت له: فإن قال قائل من الزّاعمين: إنّ الكلام فيه جسم وغير جسم، هل يفعل العبد غير الحركة والسّكون؟

قال: إنّما يقال ما يفعله العبد هوعرض لا جسم،ويقال: إنّ أفعال العبد عرض لا جسم، ويقال: إنّ أفعال العبد حركة وسكون.

٤) وسألته عن الصّوت الّذي سمعه موسى عليه السّلام، أفيه تقطيع أم مقطّع؟

قال: أمّا الصّوت الّذي سمعه موسى فمقطّع مفهوم والتّقطيع فيه كلام.

قلت: عمّن قام؟

قال: للمتكلّمين فيه أقوال: قال بعضهم عن وحي جبريل، وقال بعضهم اضطرابه جسما من أجسام الأصوات الّذين لا يتوهّم منه الصّوت.

٥) وسألته، فقلت ما عين المعرفة؟

فقال: الإحاطة بشيء خبرا.

قلت: ما عين الجهل؟

قال: ما لم يحط بالشّيء خبرا.

قلت: ما عين الاكتساب؟

قال: فعل النّفس بالتّطوّع على غير الاستكراه.

قلت: ما الفرق بين الطّاعة والمعصية؟

قال: الأمر والنّهي.

انظر كتابه الإباضيّة في الجنوب التّونسيّ في صدد الإعداد.

ونختم سيرة أبي خزر بالإشارة إلى كثرة ما تورد له المصادر من مواقف وأقوال تثبت ما تميّز به الرّجل من عمق تفكير، وبعد نظر، وتبينٍ لمقاصد الشّريعة، وقدرة فائقة على المناظرة، ناهيك أنّ الوارجلاني يعتبره من العشرة الّذين تفرّدوا بأقوال (الدّليل ١/ ٩٩)، وأنّ أبا نوح سعيد بن زنغيل يعتبر أنّ أبا خزر تجوز ولايته بالشّهرة وبغير شهادة الأمناء (السيرة ٢٤١).

(عن المصادر والمراجع: انظر معجم أعلام الإباضيّة، ترجمة أبي خزر عدد ١٠٣٩). صالح باجيّة الإباضيّة بالجريد. دار بوسلامة للطّباعة والنّشر والتّوزيع. تونس ١٣٩٦-١٩٧٦. ساسي بن يحياتن: الإباضيّة بالجنوب التّونسيّ. مرقون.

# أبو نوح سعيد بن زنغيل المزاتي المدوني

## حوالي ٣٢٠/ ٤٠٠ - ٩٣٢/ ١٠١٠

نشأ **بقسطيليّة** - بلاد الجريد حاليّا بالبلاد التونسيّة (٢٠٠٤) وهي في أوج عزّها ترفل في كلّ جنباتها بحلقات العلم، تصل إليها القوافل من تلول الدّولة الرّستميّة من سدراته ووارجلان وأريغ، ومن نفوسة وجربة لأنّها كانت تتصدّر بلاد الإباضيّة في المغرب بعد نكبات عرفتها الأطراف الأخرى مثل مانوبالنّسبة إلى نفوسة (٢٨٣ - ٨٩٦) وسقوط الإمامة بالنّسبة إلى المغرب الأوسط (٢٩٦ - ٩٠٨).

وإلى جانب هذا الازدهار العلميّ عرفت قسطيليّة نموذجا سياسيّا عسكريّا إذ انبثقت من محيطها محاولتان لاستعادة طور الظّهور: **الأولى ثورة صاحب الحمار** (٣٣٦ - ٩٤٧). **والثّانية ثورة أبي خزر**، ولأبي نوح ضلع واسع فيها (٣٥٨ - ٩٦٩)

والمتتبّع لسيرة الرّجل في المصادر الإباضيّة يلمس أنّ حياته مرّت بمراحل ثلاث: مرحلة ما قبل الثّورة، مرحلة الثّورة، مرحلة ما بعد الثّورة أومرحلة تثبيت أهل الدّعوة.

**ما قبل الثّورة:** تجعل المصادر أبا نوح المقرب المحبب لدى رجلي هذه المرحلة وهما أبو القاسم الحامّي وأبو خزر يغلا، فقد لازمهما ملازمة الظّل في الحلّ والتّرحال ونهل من معارفهما وخبرتهما ما شاء الله له أن ينهل إلى أن صار خليفتهما عن جدارة

بعد مقتل أبي القاسم وخروج أبي خزر مجبرا مع أبي تميم الفاطميّ (٣٤١/ ٣٦٥-٩٥٢/ ٩٧٥) إلى مصر.

ولا نشكّ في أنّه أخذ جميع علوم عصره من تفسيروحديث وأصول دين، وأصول فقه، وفقه، ولغة وبيان إذ كانت نزعة العصر تفرض الموسوعيّة، كما نفترض بحكم ما نعرف عن حلقات العلم آنذاك أنه كان يساعد شيخه في إدارة شؤون الطّلبة وتعليم من هودونه زادا، وقد مكّنه ذلك من التّصدّي لكلّ ما جابهه بعد ذلك في تحدّيات علميّة وعمليّة.

وممّا يدلّ على مدى ثقته بما أوتي من زاد علميّ واسع أنّه قال له بعضهم ذات ليلة في مسجد وارجلان: « حدّثنا اللّيلة بجميع ما حفظت » فقال: « كيف أحدّثكم بما أكلت في تعلّمه أقفزة من قمح وفي رواية ملح » (شمّاخي ٣٢٤ سيرة ٢٢٣، والقفيز وحدة كيل للحبوب)

وتروي المصادر أنّه عندما وقع في أسر المعزّ لدين الله، قال له أبو تميم وهوبقدرته العلميّة عليم: « يا سعيد، إنّ القيود الّتي دخلت في رجلك إنّما دخلت بعلم ولا تنزع إلاّ بالعلم. » (سيرة ٢٠٣) وفي رواية الدّرجيني: « يا سعيد أعلم أنّ هذه القيود إنّما دخلت رجلاك فيها بحكم شرعيّ، فقال له أبو نوح عسى الله أن يجعلها كفّارة. فقال أبو تميم وقد غضب: » فكنّا إذا مسيئين فيك، بل عسى أن يجعلها متّصلة بعذاب الآخرة. « قال أبو نوح: « فلمّا عرفت في وجهه الغضب قلت له »: ليس في ذلك ما يثبت الإساءة لمولانا. ألا ترى أنّ الله عزّ وجلّ يبتلي عبده المؤمن

فيصبر ويؤجر، وليس في ذلك ما يثبت الإساءة لله تعالى. » فزال غضبه (طبقات ١ / ١٣٤).

وفعلا نزعت القيود بعلم إذ لولا نبوغ الرّجل في العلم وسرعة خاطره لما استطاع أن يتخلّص من مثل هذه الورطة. وفي مثل هذا الظّرف الحرج بين يدي من بيده الأمر والنّهي في هذا البلاط المعزّي المَزْهُو بالنّصر على هذا الثّائر.

وإن شهدت له المصادر بغزارة علمه وسعته فإنّها تنوّه خاصّة بما أوتي من بيان وقدرة على المناظرة تكاد تكون منقطعة النّظير. أمّا في باب **البيان** فتشهد له المصادر أنّ فصاحته هذه خلّصته من إعدام حتميّ من قبل أبي تميم عندما عثر هذا الأخير على الرّسالة الّتي استغاث فيها الإباضيّة ببني أميّة، وقد كانت بخطّ أبي نوح، وسأل أبا نوح عن ذلك وهو في الأغلال بين يديه فأجاب: « يا سيّدي إن كانت معذرتي تُقبل وحجّتي ترفع اعتذرت واحتججت. قال: قل ما عندك. فلمّا وجد إلى الكلام سبيلا وكان شهم الجنان فصيح اللّسان كثير البيان، قال... » (طبقات ١ / ١٣٣).

وفعلا ببيانه هذا استطاع أن يحتال حيلا لغويّة بقسمه أنّ الكتاب ليس بخطّه بعد أن لعن بني أميّة لعنا شديدا.

وأمّا في باب **المناظرة** فتكفي شهادة ابن تميم له بذلك وهو خصمه بقوله:« سعيد فتى مجادل» (سيرة ١٩٨) واعتداده هوبنفسه في ذلك بقوله: « ناظرت عن هذه النّحلة بين يدي أبي تميم [الفاطميّ] ، وأبي منصور وابن الخطّاب سائر الفرق، ولم يبق مذهب إلاّ غلبته وقهرته » (شمّاخي ٣٢٩).

ومن المفروض أن نعرّف الآن بتلاميذه لكن نعلم أنّهم أخذوا عنه بعد الثّورة فيحسن أن نعرّف بدوره في ثورة أبي خزر.

**دور أبي نوح في ثورة أبي خزر (٣٥٨ - ٩٦٩):** لقد كان دور أبي نوح فعّالا في ثورة أبي خزر إلى حدّ أنّ المصادر تنسبها دائما إلى الرّجلين معا. فما أن اغتيل الشّيخ أبو القاسم حتّى انطلقت الشّورى في محيط المشائخ بحامّة قسطيليّة وأبو نوح أحد عناصرها فأسفرت عن ضرورة الثّأر لأبي القاسم وتلقين الشّيعة درسا لا ينسونه أبدا، وتمّت بذلك البيعة لأبي خزر إمام دفاع على أن يولّوه إمامة الظّهور عند الانتصار. وكان أبو نوح أوّل المبايعين، لذلك انتدبه الإمام رسولا لإباضيّة المنطقة الشّرقيّة لقسطيليّة جنوب بلاد إفريقيّة دمّر وما حولها، ثمّ حيّز طرابلس، ونفوسة، وبعد ذلك جزيرة جربة. إنّها مهمّة ليست باليسيرة تتمثّل في طلب المشورة والإقناع وقد كان أبو نوح من المتحمّسين للثّورة أشدّ الحماس بشهادة أبي محمّد ويسلان (النّصف الثّاني من القرن الخامس/ ١١) ممّن كره الخروج وقد « نظر ذات مرّة إلى أبي نوح وقد أكثر النّجوى في أمر القيام على أبي تميم، فقال: « لنعلم من أين تخرج نجواك يا أبا نوح » (سيرة ٢٠٢).

كما تتجلّى حماسته في إقناع أهل نفوسة أن يشاركوا بما يقدرون عليه رغم ضعفهم بعد وقعة مانو، وكذلك في إقناع أهل جربة رغم معارضة عدد من المشائخ على رأسهم أبو صالح اليهراسني الّذي كان يقول لأبي نوح: « لا تهيّجوا على أنفسكم أهل الخلاف فإنّهم أكثر منكم عددا ومددا وأقوى يدا » (سيرة ٢٠٢) رغم ما اشتهر

به أبو صالح من ميل إلى الشّدّة، وفعلا غلب رأي العامّة وشارك أهل جربة، لكن نعلم أنّهم بلغهم خبر الهزيمة وهم في الطّريق فرجعوا أدراجهم.

ويتجلّى الحماس أيضا في قبول الاستعانة ببني أميّة بالأندلس، وقد كان أبو نوح هوالّذي تولّى كتابة الرّسالة تلك الّتي عثر عليها أبو تميم وكادت تُودِي بحياته عندما وقع بين يدي المعزّ لولا أنّه غيّر خطّه وتفطّن للحيلة واحتال في قسمه بعد صبّ جام غضبه لعنا للأمويّين.

وفعلا تقدّم أبو نوح بسرعة الوفود الواصلة من نفوسة،وطرابلس، وجربة، ودمّر، وكان من المثبطين مع العامّة لمحاولة الصّلح الّتي دعا إليها المعزّ.

وما أن انطلقت المعركة حتّى أبلى البلاء الحسن، وما هي إلاّ لحظات حتّى انقلبت الدّائرة عليهم بتخاذل بني يليان الّذين فعلت فيهم الرّشاوي « وكان الشّيخ أبو نوح وأبو خزر وجماعة التّلاميذ في ساقة العسكر ووصل القتال إليهم. وكان أبو نوح راكبا على فرس أدهم فإذا اضطروه إلى الخندق وألجأوه إليه رمى بفرسه في الخندق لينفّس عن كثير من أهل العسكر حتّى عمّت الهزيمة » (سيرة ٢٠٤).

وفعلا لقد قال أبو خزر - وقد كان إلى الصّلح أميل - عند تمام الهزيمة:« كأنّا عجّلنا بالتّلاميذ فاستقتلناهم» (سيرة ٢٠٦) اعترافا منه أنّ السّبب الرّئيس في الهزيمة راجع إلى سوء التّقدير عند اختيار سرعة المباغتة قبل وصول المدد من أطراف البلاد.

**ما بعد الثّورة:** إنّ هذه المرحلة من حياته وهي الأطول تنقسم إلى مرحلتين، الأولى قبل رحيل أبي تميم إلى مصر، والمرحلة الثّانية بعد رحيله.

أ) **قبل رحيل أبي تميم**: إنّه الفرار والاختفاء هكذا كان أمر أبي خزر وأبي نوح، أمّا الأوّل فقد لجأ إلى جبل نفوسة بعد أربعين يوما من الاختفاء.

وأمّا أبو نوح فقد اختار فكرة التّنكّر في زيّ راع يرعى إبلا، وظلّ يجوب أطراف البلاد بإبله يستطلع أخبار أبي تميم، ويثبت من يلقى من أهل الدّعوة.

وفعلا جدّ أبو تميم في طلبه وبثّ عيونه وعسكره في كلّ مكان حتّى فطنت كوكبة منهم لحيلة أبي نوح وأوقعوه أسيرا.

إنّها تجربة مريرة عرف فيها أبو نوح قيود الحديد وجميع أنواع الإهانة من بينها التّشهير به حيثما مرّ العسكر إلى أن وصلوا به القيروان.

تطنب المصادر في مثوله بين يدي أبي تميم وكيف أبلى البلاء الحسن بما أوتي من بيان وسرعة خاطر وهوقاب قوسين من الإعدام إذ ليس جزاء الثّورة على الحاكم إلاّ الموت، وقد ذكرنا أمر الرّسالة المرسلة إلى أبي تميم قبل حين.

والمهمّ أنّ براعة أبي نوح في الملاطفة كانت خيرا بالنّسبة إليه إذ عفا عنه أبو تميم، بل أكثر من هذا طلبه الأمان لجميع الإباضيّة ولأبي خزر فأجاب، وذاك طبعا من دهاء أبي تميم ورغبته في التّوطيد لملكه وهويتأهّب للتّحوّل إلى مصر. (سير ٢٤٠)

وما يزال أهل الدّعوة لا ينسون له هذا الفضل حيث كانوا يقولون: « أهل الدّعوة في زمانه إلى يومنا هذا في ذلك الأمان » (سيرة ٢٤٠).

وبعد العسر جاء اليسر وقد طابت حياته وحياة شيخه أبي خزر إذ أكرمهما أبو تميم أيّما إكرام وهذا أبو زكريّاء يشهد بذلك فيقول:« وحسنت أحوال الشّيخ أبي

نوح، رضي الله عنه **بفصاحته وبراعته وبلاغته وعلمه بفنون الرّدّ على المخالفين،** ولذلك قال فيه أبو تميم: أبو نوح فتى مجادل» (سيرة ٢١١).

ولكن ما كانت هذه الحال لتستقرّ إذ ما فتئ أن أعلم أبو تميم باصطحاب الشّيخين معه إلى مصر تكريما لهما وليباهي بهما أهل تلك البلاد فما الحيلة؟ ولا سبيل إلى أن يغادرا معا، وكان الاتّفاق بدون شكّ أن تكون الرّحلة من نصيب أبي خزر لأنّه رأس الدّاء ولا يمكن أن يتنازل عنه أبو تميم وما عسى أبا نوح أن يفعل ليتخلّص من هذا العقاب اللّطيف العنيف !

إنّه الاحتيال اللّطيف عن طريق التّمارض والطّلاء بالنّخالة وغيرها حتّى يبدوالشّحوب والاصفرار، وما كان هذا ليخفى عن أبي تميم، ولكنّها الشّهامة والرّغبة في امتلاك القلوب، وكلّ من الطّرفين يعرف مدى التزام الطّرف الآخر بالعهود، والمصادر تلحّ على ذلك في مثل هذه المواقف دائما، فما كان من أبي تميم إلاّ أن غضّ الطّرف على أبي نوح، وما ضرّ وقد أخذ معه رهينة ثمينة يعلم أنّ الإباضيّة لا يفرّطون فيها مهما كان الثّمن ولا يجازفون مرّة أخرى بالقيام على عامله بلكين وقد توالت عليهم النّكبات والهزائم فقبول الأمر الواقع أولى خاصّة وقد التزم أبو تميم بكلّ عهوده.

**ب) بعد رحيل أبي تميم:** إنّها أخصب مرحلة في حياة أبي نوح إنّها مرحلة العطاء العلميّ بحقّ، مرحلة المنافحة عن الوهبيّة بحزم وعزم، إنّها مرحلة تثبيت أهل الدّعوة في جميع أطراف البلاد.

وفعلا تثبت المصادر أنّ أبا نوح لم يستقرّ به قرار فكلّما أحسّ أنّ ثمار جهده بدأت تؤتي أكلها في موطن ما ويبلغه عن ضعف أهل الدّعوة في موطن آخر يمّم إليه بحزم وعزم حتّى يستدرك ما فات ويدفع إلى إحياء السّير.

ويكفي أن نذكر المواطن الّتي تبيّن المصادر أنّه كان يتردّد بينها حتّى نتبيّن صحّة ما ذكرنا، وهي كالتّالي بالتّرتيب حسب الإمكان: وارجلان، قسطيلية (بنودرجين)، القيروان، تقيوس. قنطرار، أسوف، توزر، أسوف، أريغ، وارجلان مرّة أخرى، تين ماطوس، أسحوسا، فزّان زويلة إلخ...

ولا نرى من المفيد أن نتابع أبا نوح في الحلّ والتّرحال ولكن يحسن أن نقف عند بعض محاور إصلاحه لنتبيّن منهجه في الإصلاح وأبرزها: إقامة حلقات العلم. الإصلاح الاجتماعيّ، المناظرات لإجلاء صفاء العقيدة الإباضيّة وبيان سلامة بعدها الحضاريّ.

**حلقات العلم**: لقد سلك أبو نوح مسلك شيخه أبي القاسم وأبي خزر في الجمع بين الحلقة القارّة حينما يحلّ في المسجد الجامع، وبين الحلقات المتنقلّة بالتّلاميذ في أطراف البادية.

وفعلا لقد كان للنّشاط العلميّ الّذي بثّه في مسجد وارجلان بمساعدة جنّون بن يمريان المادّيّة والمعنويّة غير المحدودة إلى حدّ اقتراح اقتسام جميع ما يملك مع الشّيخ أبي نوح أثر فعّال في ازدهار الحركة العلميّة هناك طيلة القرن الخامس والسّادس/ ١١ و١٢. حيث بلغ العطاء الفكريّ أوجه مع أبي يعقوب وأبي عمّار

(النّامي: ملامح عن الحركة العلميّة في وارجلان) وإن أشارت المصادر إلى أنّها عرفت نكسة اجتماعيّة عندما رجع إليها بعد طول غياب إلى أن استوحش من أهلها وفرّ منها إلى أسوف.

وقد تخرّج من حلقات العلم هذه علماء أفاضل نذكر أبرزهم: * أبا عبد الله محمّد بن بكر الفرسطّائي النّفوسيّ (٤٤٠ - ١٠٤٩) وهوالّذي أحيى إمامة الكتمان ورأس نظام العزّابة (الجّعبيري: نظام) وقد قال فيه أبو نوح: « إن كنت أفهم شيئا، فإنّ هذا الفتى هوالّذي يحيي دين الله » (سيرة ٢٥٢) * أبا محمّد عبد الله بن زورزتن الّذي يقول فيه الشّماخي: « فهو فتى أبي نوح سعيد بن زنغيل، وبذلك اشتهر، لأنّه منه أخذ العلم وهوأقرب إليه من سائر طلبته، ومصاحبه في أسفاره، وموافقا لخلقه، ومواتيا لحوائجه « (سير ٣٧٢) وهووسياني من أهل كنومة من قسطيليّة * أبا الخطّاب عبد السّلام بن منظور بن أبي وزجون المزاتي « ممّن أخذ عن أبي نوح سعيد بن زنغيل » (شمّاخي: ٣٧٧) وقد كان له شأن في مساعدة أبي عبد الله في إرساء نظام الحلقة وتطبيقه.

* أبا يعقوب يوسف بن سهلون وقد كان يجتمع عليه أهل وارجلان عندما تنزل عليهم النّوازل، ويذكر أبو زكريّاء أنّه «من تلامذة أبي نوح » (سيرة ٣٦٦) وأنّه كان كثير السّياسة، ذكيّ العقل.

**الإصلاح الاجتماعيّ**: لا نلمس من خلال ما نقل من أخبار أبي نوح خطّة متكاملة في الإصلاح الاجتماعيّ ولكن ندرك من هذه الأخبار بُعد نظر أبي نوح

وسعيه إلى إحياء القيم الإسلاميّة مثل أداء الأمانات، والوفاء بالعهود، والكرم، والعفوعند المقدرة، وما إلى ذلك بصفة عمليّة، ذاك أنّ المحيط الإباضيّ في تلك الرّبوع كان يغلي غليان المرجل لما دبّ فيه من افتراقات داخليّة تشعل نار العداء ولتنامي السّلطة المالكيّة الّتي تصدّت للتّيار الشّيعي وبدأت تزحزح الإباضيّة عن معاقلهم.

**المناظرات:** تلحّ الأخبار على أنّ أبا نوح حيثما حلّ تُعرض دقائق علم الكلام فينبري يعلّم أتباعه القدرة على التّخلّص. وقد أبلى في ذلك بلاء حسنا بين يدي أبي تميم وقد شهد له بذلك. وتنوّه المصادر بمجادلته لأشدّ علماء النّكار ضراوة وأشدّ المعتزلة بلاء فما يكون من هذه الأطراف المقابلة إلاّ أن يترجرج منطقها وتعلن بالهزيمة.

وبعد هذا لا ينبغي أن نغفل عن أنّ الرّجل في هذه المرحلة من حياته تموّجت حاله بين الشّدّة والرّخاء تموّجات عجيبة، لكن كلّ ذلك لم يفتّ في ساعده، من ذلك أنّه أخذه بعض أمراء توزر فحبسه وذلك لعظم منزلته عند الوهبيّة فما كان منه إلاّ أن يحتال لنفسه فيفديها بأموال طائلة تمكّن بعد ذلك من تسديد دينه للمدينين الّذين أقرضوه. (سيرة ٢٢٩ - ٢٣٠).

ولا يسعنا إلاّ أن نلاحظ قبل أن نختم هذه التّرجمة أنّ أقواله المبثوثة في شتّى فنون العلوم الإسلاميّة في كتب السّير وكتب الطّبقات وغيرها وخاصّة منها كتاب السّؤالات لأبي عمرو السّوفي لو جمعت لأنتجت مجلّدا وافيا يثبت ما لصاحبه من طول باع.

**مؤلّفاته:** لا شكّ أنّ حياة أبي نوح الحركيّة حالت دونه وكثرة التّأليف لكن تذكر المصادر لأبي نوح كتابا يعرف بـ « **كتاب سعيد بن زنغيل** » إلاّ أنّ هذا الكتاب ما زال مفقودا، على أنّه من مقتطفات البرّادي في تعليقه على قصيدة أبي بكر أحمد ابن النّضر العماني (٦/ ١٢) « شفاء الحائم في شرح بعض الدّعائم » يبدوأنّ كتاب بن زنغيل عالج المسائل الكلاميّة الأساسيّة مثل، ما لا يسع جهله في الدّين، ونفي الرّؤية، والاستطاعة، وخلق القرآن وكلام الله... (دراسات ٢٢٢).

عن المصادر والمراجع انظر معجم أعلام الإباضيّة عدد ٣٩٠ وصالح باجيّة الإباضيّة بالجريد، دار بوسلامة للطّباعة والنّشر والتّوزيع تونس ١٣٩٦ - ١٩٧٦.

# جماعة غار مجماج بجربة (٤٠٠ - ١٠١٠)

مجماج بفتح فسكون ففتح ومدّ تنطق الجيم حاليّا حسب اللّهجة المصريّة، ويطلق الاسم على جهة من جهات الجزيرة غربيّ الحارة الصّغيرة. (الرّياض حاليّا)

ولسنا ندري هل أنّ الجماعة نسبوا إلى الجهة أونسبت الجهة إليهم، إلاّ أنّنا نرجح الرّأي الثّاني، ذلك أنّ هذه اللّفظة بربريّة مفادها جماعة مختلطون كأنّهم شخص واحد، ويبدوأنّ أوّل من اختلط هناك هم السّبعة المذكورون في كتب السّير.

ومفردها في اللّهجة الميزابيّة اتمجموج وتجمع على اتمجموجن.

ولا يزال الغار معروفا إلى الآن وقد بني على خمسة أمتار جنوبه مسجد يسمّى جامع الغار أو جامع ابن بيان لأنّ هذه الأسرة اعتنت به في العهد الأخير.

هذا غار مجماج فمن هم السّبعة الّذين اجتمعوا فيه؟ ومتى كان اجتماعهم؟ وما هي صلتهم بالعزّابة؟

تتّفق المصادر على أنّهم سبعة وهم: ١- أبو عمران موسى بن زكريّاء المزاتي الدّمري، ٢- أبو محمّد عبد الله بن مانوح اللّمائيّ الهواري، ٣- أبو عمروالنّميلي الزّواغي، ٤- أبو يحيى زكريّاء بن جرناز النّفوسيّ، ٥- جابر بن سدرمام بفتح وشدّ فسكون، ٦- كباب بن مصلح المزاتي، ٧- أبو مجبر توزين المزاتي.

**أبو عمران موسى بن زكريّاء المزاتي الدّمريّ** (حوالي ٣٦٠/ ٤٣٠ – ٩٧١/ ١٠٣٩) مزاتيّ الأصل، ومزاته قبيلة بربريّة ترجع إلى اللّواتيّين تعيش في الجنوب التّونسيّ (ر. لترنو Le Tourneau: ترجمة كتاب السّيرة. المجلّة الإفريقيّة R A ١٩٦٠ تعليق ١٠٧) ولذلك قيل إنّه دمّريّ. ودمّر تقابل منطقة بني خداش بالبلاد التّونسيّة (٢٠٠٢) وقد كانت عامرة بالإباضيّة من أواسط القرن الثّاني/ ٨. الرّاجح أنّه ولد بتيجديت وهي حسب الشّماخي موضع معلوم بقبلة أريغ يعني جنوب أريغ (سير: ٤٨٨) وهي تقابل جهة تقرت ببلاد الجزائر حاليّا.

وقد كانت هي الأخرى مركزا إباضيّا مهمّا بعد سقوط الدّولة الرّستميّة (٢٩٦ – ٩٠٨) وقد كان لشيوخها دور فعّال في توجيه أبي عبد الله محمّد بن بكر (٤٤٠ – ١٠٤٩) (ر. هذه الموسوعة) لتأسيس وادي مزاب في جبال بني مصعب. وبعد أن نال نصيبه من العلوم ببلاد أريغ رحل إلى قسطيليّة بلاد الجريد حاليّا بالبلاد التّونسيّة. فتتلمذ على الشّيخ أبي القاسم الحامّي (٣٥٨ – ٩٦٧)، وقد كان أشهر أهل عصره وأعلمهم ولقد كانت له صولة إلى حدّ أنّ المعزّ لدين الله الفاطميّ أمر عامله على الحامّة بقتله ونتجت عن ذلك ثورة أبي خزر يغلا بن زلتاف (ر. هذه الموسوعة) (الشّماخي: سير تونس: ٣١٠ – ٣٢٣).

كما رحل إلى جزيرة جربة فنزل بمدرسة الجامع الكبير وأخذ عن أبرز شيوخها أبي زكريّاء فصيل بن أبي مسور (سير: تونس. ٣٤٠) وقد ذكر صاحب كتاب السّيرة

شهادته التّالية في شيخه: « لوكانت إمامة المسلمين في هذا الزّمان لاستحقّها أبو زكريّاء. » (السّير: تونس. ٢٤٢).

وأبي صالح بكر بن قاسم (الشمّاخي: تونس ٣٣٥) كما يذكر ذلك ولده أبو محمّد ويسلان (سير: تونس ٣٤٧) أنّه « ندم على ثلاثة أشياء ... من بينها أنّه فوّت مجالس أبي عمران لأنّه أخذ عن والده أبي صالح » (السّيرة: تونس ٣٥٢). وإن سكتت المصادر عن ذكر بقيّة شيوخ مدرسة الجامع الكبير آنذاك فإنّنا نرجح أنّه أخذ عنهم وأبرزهم إلى جانب الشّيخ فصيل والشّيخ أبي صالح أبو موسى عيسى بن السّمح الرّباني وأبو محمّد كموس وغيرهما. هكذا نتبيّن صدق عبارة الدّرجيني: « أدرك المشائخ وروى عنهم » (طبقات: ٢ / ٤٠٩).

وتثبت المصادر أنّ أبا عمران كان كثير التّنقل شغوفا بطلب العلم ومحاورة العلماء (ر في هذا الصّدد: سيرة: ٣٧٥ و٣٨١) وإزاء تمكّنه من العلوم الشّرعيّة كان يولي قيمة كبيرة لتعلّم اللّغة العربيّة وعلم الفروع وحمل الكتب ونقلها، (سير. ت ٣٨١). بهذا نتبيّن أنّه بلغ درجة عالية في العلم فشهد له أقرانه بأنّه أعلمهم.

وهذا ما حدا بأبي عبد الله محمّد بن بكر وهو يرغب في استكمال علم الفروع أن يمّم شطر أبي عمران وقد كان يرجّح أنّه كان بقسطيلة وهذا سنة ٤٠٨ - ١٠١٨ وهنالك التقى الوفد الجّربيّ فانطلق بعد إلحاح في تأسيس نظام العزّابة دون أن تذكر المصادر أنّه أخذ عنه ولكن هذه المصادر تذكر أنّ أبا عمران راسل أبا عبد الله في مسألة من مسائل الولاية والبراءة (السّيرة: ٣٤٤ - ٣٤٥) والرّاجح أنّ هذه المراسلة

كانت بعد أن استقام نظام العزّابة. « ثمّ كان ذات ليلة، جاز أبو عمران على العزّابة » (السّيرة ت ٣٤٤).

والملاحظ أن كتب السّير والطّبقات تثبت عديدا من الفتاوى تبيّن قدرة أبي عمران العلميّة. ممّا جعل الدّرجيني يقول: « سادت تلامذته » (طبقات ٢ / ٤٠٩) وممّا سبق يثبت أنّه كان له مجلس علم بجربة ممّا جعل أبا محمّد ويسلان يأسف على عدم إدراكه هذه الحلقة ممّا يجعلنا نرجح أنّ أقران أبي محمّد قد أخذوا عنه ومنهم زكريّاء ويونس ابنا فصيل وبكر ابن أخته وغيرهم من أبناء مدرسة الجامع الكبير الّذين تأسّس معهم وبهم نظام العزّابة، كما كان له مجلس علم بقسطيلية وهو الّذي توجّه إليه أبو عبد الله محمّد بن بكر ولم ينهل منه ونرجّح أنّه كان يتردّد عليه خلق كثير لعلّ من بينهم أبا الرّبيع سليمان بن يخلف.

والرّاجح أنّ أبا عمران كان السّبب في تأليف ديوان غار أمجماج قال الدّرجيني: « وسبب نسبتهم إلى غار أمجماج أنّهم اجتمعوا به، وصنّفوا تصنيفا في الفقه مشهورا. في اثني عشر جزءا، فتولّى نسخه أبو عمران لما خصّه الله من جودة الخطّ، فنسب إليه التّصنيف، وليس له عليهم فضل سوى فضل البنان، وإلاّ فهو كأحدهم في فضل البنيان، شريك في ما أودعوه شركة عنان، ذكروا أنّ أبا عمران رأى في منامه أنّ يده صارت مصباحا فقصّ رؤياه على معبّر الرّؤيا ... فقال له: هذا رجل يحيي دين الله بيده، فلم يبعد.» (طبقات ٢/ ٤٠٩).

وبهذا يتبيّن لنا أنّ إقامة أبي عمران كانت بجربة قبل سنة ٤٠٨ - ١٠١٧ حيث درس على أبي صالح ثمّ جلس لتدريس الفروع وآنذاك تمّ تأليف الدّيوان وائتلاف جماعة غار امجماج على رأس القرن الرّابع هـ/ العاشر م.

**أبو محمّد عبد الله بن مانوح اللّمائيّ الهواري** (حوالي ٣٣٠ / ٤٣٠ - ٩٤٢ / ١٠٣٩) ولد في البادية المتاخمة للجهة الغربيّة من جزيرة جربة في نهاية العقد الثّالث من القرن الرّابع هـ - ١٠ م وتتّفق المصادر على أنّ نشأته كانت بعيدة عن العلم والعلماء وتقدّمت سنّه وهو يرعى الأغنام في البادية مع الرّعاة إلى أن شاء القدر أن يحوّل مجرى حياته فكان الأمر كما يلي: « وذكر أنّ (أبا محمّد) ممّن تاب بعد الكبر، وكان السّبب أن لقيه رجل من لماية يرعى غنما. فقال: نعم الغنم الّتي ترعاها لحية، وبئس اللّحية الّتي ترعى الغنم. فوقعت التّوبة في نفسه فأتى المشائخ: أبا مسور [يسجا بن يوجين اليهراسني] ، وأبا صالح [اليهراسني] ، ورجع إلى أهله، فلقيه الشّيخ الّذي ذكرها أوّلا. فقال: جميع الإبل تبرك للحمل، ولكن التّفاضل في التّبليغ. فرجع، فمكث ما شاء الله، ثمّ رجع إلى أهله، فلقيه، فقال: جميع الأواني تصلح لأخذ المائعات والتّفاضل في ما يبقى فيه الماء. فرجع فبقي عندهم حتّى تفقّه، وصار إماما ومشارا إليه. » (سير تونس ٣٧٤، السّيرة تونس: ٢٨٣. طبقات: ٢ / ٤٠٠)

إنّه حدث طريف يدلّ على أنّ الشّيخ اللّمائيّ توسّم في عبد الله بن مانوح ملامح النّبوغ رغم تقدّم سنّه فأثار فيه حمية طلب العلم وعيّره بأن مثل وقاره لم يخلق لرعي الغنم وإنّما خلق لأمر آخر ألا وهو طلب العلم.

وفعلا لقد صادف عبد الله بن محمّد مدرسة الجامع الكبير في أوج عطائها مع مؤسّسها أبي مسور وهو مرسي أسس المذهب الإباضيّ على المسلك الوهبيّ بجربة (سير: تونس ٣٠٨) ورفيقه أبي صالح (ن. م: ٣٣٥)، وأبي موسى عيسى ابن السّمح الرّباني (ن. م ٣٤٤). كما نرجح أنّه أخذ أيضا عن أبي زكريّاء فصيل ولد أبي مسور إذ يقول فيه: « لو كان الوحي ينزل في هذا الزّمان على أحد لاستحقّ أبو زكريّاء أن ينزل عليه » (السّير: ت ٢٤٢).

وتلحّ كتب السّير على سعة فقهه وخاصّة على ورعه من ذلك أنّه يقول: « ما استسلفت قطّ دينارا غير دينار واحد، وقد رددته بعينه » (سيرة: ٢٨٥). كما أنّه كان متفائلا يحسن الظّن بأهل زمانه وقد ردّ على تشاؤم عمروس الزّواغي بقوله: « علام تقول ذلك؟ أليس قد قالوا: من (يصلّي) الصّلوات الخمس قد ملأ ما بين السّماوات والأرض عبادة » (سيرة: ٢٨٨). كما أنّه كان يحرّض كلّ من له علم على أن ينشره في غيره (سيرة: ٢٨٨)

وقد أثبتنا في كتابنا عن العزّابة أنّه عايش نشأة هذا النّظام بجربة وليس مستبعدا أن تكون قد التفت حوله حلقة. « وعن عبد الله (بن مانوح) قال لمن حوله من العزاب يحثهم على النّوافل » (نظام: ١٧٢ - ١٧٣).

وتذكر المصادر أنّ لأبي محمّد أولادا كان يحذّرهم من الرّجوع عن الإسلام، ومنهم ولده داود الّذي خاض غمار فتنة ثمّ تاب ورجع بعد ذلك إلى الخير. (سير: ت ٢٨٥ - ٢٨٦)

وتثبت المصادر أنّه تقدّمت سنّه حتّى تخلّى عن الفتوى (سير: ٣٧٦) لكنّها لم تحدد تاريخ وفاته، لكن نرجح أنّها قبل نهاية العقد الثّالث من القرن الخامس للهجرة.

**أبو عمرو النّميلي الزّواغي** (٣١١ / ٩٢٣ - ٤٣١ / ١٠٣٩) ولد بجربة سنة احتلال الشّيعة لها، وقتل بها شهيدا سنه هجوم المعزّ بن باديس عليها مع العلماء الّذين تصدّوا لجيشه (طبقات: ٢ / ٣٦٥).

الرّاجح أنّه نشأ في محيط مدرسة الجامع الكبير وبها تعلّم وعلّم مع علمائها ومع الوافدين عليها في هذه الفترة الحرجة من حياة الإباضيّة ببلاد المغرب وخاصّة بجربة.

يذكر الدّرجيني خبرا يثبت اعتراف علماء مدرسة الجامع الكبير له بطول الباع في العلم: « فلمّا وصل (أبو محمّد عبد الله ابن زورستن) جربة قصد أبا صالح إلى المسجد، قال: وحان وقت صلاة الظّهر وحلّقت الجماعة، وناولني كتابا، فكنت أقرأ وأفسّر حتّى جاء أبو صالح وأمسكت عن التّفسير، فقالوا له فسّر فجعلت أقرأ الكتاب، فقال لي بعض من في المجلس: فسرّ لنا، وكان في المجلس أبو عمرو النّميلي ولم أعرفه قبل ذلك، قال فطفقت أقرأ، فقالوا له فسّر لنا يا شيخ فأحال أبو صالح على

أبي عمرو النّميلي، فكنت أقرأ ويفسّر، فأصابني خجل لما فرط منّي إذ تكلّفت التّفسير بمحضر منه ولم أعرف مكانه » (طبقات: ٢ / ٣٩٦)

كما يقول في ترجمته منوّها بغزارة علمه: « ومنهم أبو عمرو النّميلي رحمه الله، الرّاسخ القدم ... الّذي كان الورع خدينه، والعلم من كلّ جهة قرينه، وهو أحد أقطاب الجزيرة، تحرّى فيها الفرض والسّنة والسّيرة » (طبقات: ٢ / ٣٦٤ الشّماخي: سير تونس: ٣٤٢ - ٣٤٣).

وتتّفق المصادر على شغفه بمطالعة المسائل حتّى في آخر عمره وقد تقدّمت سنّه. ويعلّق الدّرجيني على ذلك بقوله: « فهكذا كانت أحوال السّلف وأخلاقهم ... لا يضيّعون الوقت، ولا يفوّتون الغائب » (طبقات: ٢ / ٣٦٥).

واتّفق على أنّه عاش مائة وعشرين عاما، ومات شهيدا قتله بنو واتراتن من زويلة (سير تونس: ٣٤٣) وكان ذلك سنة ٤٣١ / ١٠٣٩. فيستنتج من ذلك ثباته على الحقّ وإقدامه على المعركة رغم تقدّم سنّه. وقبره معروف شمال الجامع الكبير بجزيرة جربة.

إنّ التّرجمة لهذا الثّلاثي من جماعة غار مجماج مكّنتنا في كتابنا نظام العزّابة من أن نرجّح أنّ الدّيوان ألف قبيل سنة ٤٠٠ / ١٠٠٩ لعدّة قرائن (نظام: ١٧٠ و١٧٣ و١٧٦).

وأقصى ما يمكن أن نقرّره هو أنّ التّوجه لمثل هذا النشاط العلميّ جعل علماء الإباضيّة يفكّرون في الابتعاد عن النّشاط السّياسيّ ودخول مرحلة الكتمان والتّفرغ

لخدمة مصالحهم والاعتناء بنظامهم الدّاخليّ وفعلا في هذه العشريّة الأولى من القرن الخامس تمّ تأسيس نظام الحلقة.

أمّا بالنّسبة إلى البقيّة فإنّ المصادر لم ترومن أخبارهم إلاّ القليل الّذي يدلّ على قدرتهم العلميّة، وغاية ما يقال عنهم إنّهم اجتهدوا مع إخوانهم في تأليف ديوان العزّابة. (نظام: ١٧٦).

وتوجد نسخة من الدّيوان مختلطة بديوان أريغ بالبارونيّة بجربة.

ومن أراد زيادة التّوسع فليراجع كتابنا نظام العزّابة ص ٢٦٠ - ٢٦١.

# محمّد بن بكر بن أبي بكر الفرسطّائي

## (٤٤٠ - ١٠٤٩)

**محمّد بن بكر بن أبي بكر الفرسطّائي** نسبة إلى فرسطّا إحدى قرى جبل نفوسة غربيّ البلاد اللّيبيّة (أبو عبد الله، واشتهر بعمّي امحمّد السّائح) (٣٧٥/ ٤٤٠ - ٨٩٥/ ١٠٤٩).

جاء في كتاب السّير: « ودارهم معدن العلم قديما من أبيه وجدّه وجدّ جدّه على ما أظنّ ... ولكنّهم دونه في الشّهرة. »

(الشّماخي: ط تونس ٣٦٨). واضح أنّ محمّدا هذا ولد في قرية فرسطّا « المدينة العظيمة حينئذ » (عليّ يحيى معمّر: الإباضيّة في الجزائر. ١٧٦) وأنّه سليل أسرة عريقة في العلم. فلا شكّ أنّه أخذ عن أبيه ومن معه من مشائخ جبل نفوسة.

وما أكثر التّزاور بين الإباضيّة رغم تباعد الدّيار، وهاهي الأخبار تصل إلى جبل نفوسة عمّا ظهر في جربة من حركة علميّة، أليس أخوال شيخها الأكبر آنذاك من نفوسة، إنّه أبو زكريّاء فصيل بن أبي مسور الّذي أتمّ بناء المدرسة الإباضيّة هناك إنّها مدرسة الجامع الكبير، تلك المدرسة الّتي كتب لها أن تعمّر ألف سنة وزيادة، ترفع لواء العلم في أوساط الإباضيّة بالمغرب عامّة وقد استفاد منها حتّى إباضيّة المشرق رغم أنّهم تظلّهم إمامة الظّهور (ر. ترجمة أبي زكريّاء في هذه الموسوعة)

فلم يكن من أبي محمّد إلاّ أن أرسل محمّدا ليأخذ عن مشائخ هذه المدرسة، وعلى رأسهم ثلاثيّ عرف أحدهم بالمرونة وهو الشّيخ فصيل، وثانيهم بالصّلابة وهو أبو صالح، وثالثهم بالحكمة والفضل وهو أبو محمّد كاموس (ر. معجم أعلام الإباضيّة بالمغرب)، إزاء شيخين آخرين هما أبو عمرو النّميلي أحد أعضاء التّأليف الفقهيّ المعروف بديوان غار مجماج، وأبو موسى عيسى بن السّمح الرّباني ترب أبي مسور مؤسّس مدرسة الجامع الكبير (أعلام الإباضيّة). إنّهم شيوخ أجلاّء في فنون الشّريعة الإسلاميّة من تفسير وحديث وأصول دين وفقه وما إلى ذلك مع ما تزخر به مكتبة المدرسة من كتب نواتها الأولى ما حمله أبو مسور من جبل نفوسة عندما استقرّ بجربة، إنّها فرصة ذهبيّة لم يفرّط محمّد في الاستفادة منها، وهذا شيخه فصيل يتوسّم فيه خيرا فيقول: « إن أصاب حدسي، ولم تخطئ فراستي فإنّ هذا الفتى يحيي الله به دينه. » (كتابنا: نظام العزّابة: ٣١) وفعلا تحقّقت فراسة الشّيخ فصيل كما سنرى ذلك بعد حين.

لكن محمّدا وهوشغوف بطلب العلم واصل الرّحلة في طلب العلم بعد أن استوفى ما بالمدرسة المسوريّة من علوم، فيممّ نحوالحامّة بقسطيليّة (بلاد الجريد) ليأخذ عن شيوخ برعوا خاصّة في علم الكلام، إنّهم تلاميذ لشيوخ عرفوا بطول باعهم في المناظرات الكلاميّة، إنّهم أبو القاسم الحاميّ الّذي أمرت الدّولة الفاطميّة بقتله لما صار له من جاه يخشى أن يكون منطلقا لإمامة ظهور، وأبو نوح سعيد بن زنغيل وأقواله الكلاميّة مبثوثة في المصادر الإباضيّة خاصّة منها كتاب السّؤالات لأبي

عمروالسّوفي وهوالّذي تصالح والدّولة الفاطميّة على أن يبقى ببلاد المغرب، وأبو خزر يغلا بن زلتاف وهوقائد الثّورة على الفاطميّين وكتابه « الرّد على جميع المخالفين » معروف بقوّة حجّته (خ بالبارونيّة) وقد اضطرّ المعزّ لدين الله الفاطميّ لاصطحابه إلى مصر خشية أن يعيد الثّورة على عمّاله من بني زيري (أعلام الإباضيّة). استقرّ محمّد بقسطيليّة حتّى أنس من نفسه التّضلّع في هذا الفنّ الّذي يصقل العقول ويركّز الإيمان، ويكسب القدرة على الحجاج والإقناع، وقد كان له أحسن سلاح في ما بعد لمقارعة المعتزلة في جبال بني مصعب.

ثمّ ماذا بعد التّخصّص في علم الكلام؟ إنّها الرّغبة في صقل اللّسان، والتّمكن من البيان، وأين عساه أن يعثر على بغيته؟ إنّها القيروان، وقد عرفت فيها الحركة الأدبيّة أوج ازدهارها، فلتكن الرّحلة إلى هناك. (الشّاذلي بويحيى: الحياة الأدبيّة في إفريقيّة في عهد بني زيري. الدّار التّونسيّة للنّشر ١٩٧٢ باللّغة الفرنسيّة وترجم إلى اللّغة العربيّة).

## أبو عبد الله في القيروان:

قال أبو الرّبيع [سليمان بن يخلف تلميذ أبي عبد الله] : « إنّ أبا عبد الله توجّه إلى القيروان من عند شيخه أبي زكريّاء يتعلّم النّحو والإعراب، وكان أهل الدّعوة بنواحيها كثيرين، فقصد شيخا، فتعلّم عنده، ثمّ قال له: أوصي بك إلى من هو أعلم

منّي، فانتقل بكتابه إلى الثّاني، فتعلّم في أقرب مدّة لما أعطي من الفهم. » (سير الشّماخي: تونس: ٣٦٨.)

والقيروان - كما يقول ياقوت - « مدينة عظيمة بإفريقيّة غبرت دهرا وليس بالمغرب مدينة أجلّ منها إلى أن قدمت العرب إفريقيّة وأخربت البلاد.» (ياقوت: معجم البلدان: قيروان).

وقد وصلها أبو عبد الله وهي في أوج عزّها مع مطلع حكم المعزّ بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٣ / ١٠١٥ - ١٠٦١) ذلك الّذي عرف بلاطه حركة أدبيّة وعلميّة أصيلة، ونعمت القيروان في ظلّه بأزهى حلل الازدهار.

ويستحيل علينا أن نذكر من بين عشرات الأعلام واحدا ممّن أخذ عنهم أبو عبد الله مباشرة لكن كما أشار أبو الرّبيع ظلّ الرّجل ينتقل من حلقة إلى حلقة، يلحظ أصول الحياة الاجتماعيّة والعلمية والأدبيّة في تلك الحاضرة الّتي كانت كعبة أهل العلم آنذاك في بلاد المغرب، والأندلس (بو يحيى: ن. م.)

وإن كنّا لا نشكّ في بقاء بعض الأسر الإباضيّة في مطلع القرن الخامس / ١٠ في القيروان مع بعض من لهم شيء من علم حتّى بعد إخراج سحنون جميع الفرق من جامع عقبة، وليس هؤلاء إلاّ بقيّة لذلكم الجيل الّذي عرفته القيروان عندما كانت ولاية إباضيّة يسوسها عبد الرّحمان بن رستم للإمام أبي الخطّاب عبد الأعلى في طرابلس، والّذي استمرّ طيلة القرن الثّالث / ٩ ينافح عن مسلكه مع من ينافحون، وقد ذكر ابن سلاّم ثلّة منهم في كتابه بدء الإسلام وشرائع الدّين [ص ١٣٢ - ١٣٥] ،

وقد نقل عنه ذلك الشّماخي في سيره مع بعض الإضافة. ص ١٩٥ - ١٩٨ طبعة تونس ١٩٩٥.

ولا ريب في أنّ أبا عبد الله قد استفاد من هؤلاء الّذين كانوا قبل وصوله يحسنون وفادة أبي القاسم الحاميّ عندما يزور القيروان.

والمهمّ بالنّسبة إلينا أنّ أبا عبد الله أخذ زاده من فنون العربيّة بنحوها وصرفها وبلاغتها وآدابها استعدادا لخوض معركة الحياة العمليّة، وإن دلّ ذلك على شيء فإنّما يدلّ على جدّه ورغبته في التّمكّن من علوم العصر، وإنّ بعد التّخصّص في علم الكلام لا بدّ من لغة سليمة راقية لصياغة ذلك وغيره الصّياغة الّتي تليق بمن يريد أن يتبحّر، ولا يكتفي بالقليل.

ثمّ ماذا بعد هذا؟ أيرجع إلى مسقط رأسه وكفى؟ كلاّ إنّه يعزم على مواصلة الرّحلة كما تروي كتب السّير لكن إلى أين؟

## أبو عبد الله في قسطيلية من جديد:

إنّ وصوله إلى قسطيليّة بعد القيروان هو الّذي جعلنا نقدّم رحلته إلى الحامّة على القيروان رغم تضارب الرّوايات في هذا الشّأن، ذلك أنّه إثر وصوله إلى قسطيلية في هذه المرّة فرض عليه الظّرف أن يتوقّف عن الرّحلة في طلب العلم، ليتحوّل إلى نشر ما تحصّل عليه من زاد معرفيّ، ومن خبرة في شؤون الحياة.

تروي المصادر أنّه في هذه المرّة أراد أن يزداد تبحّرا في **الفروع** ذلكم الزّاد الّذي يمكّن صاحبه من أن يواكب النّاس في حياتهم، ليفتيهم وليحلّ ما يقعون فيه من مشاكل مستندا إلى الكتاب العزيز وإلى السّنة النّبويّة الشّريفة، وإلى اجتهاد المجتهدين من قبله وإلى اجتهاده الخاصّ عند الضّرورة.

ولا أراني هنا أبالغ في أن أتصوّر أنّ رحلته هذه من أجل التّبحر في علوم العصر كانت بمشورة مع مشائخ جربة، وبإشارة من شيخه فصيل، ذاك الّذي كان يتابع خطاه، ويتوسّم فيه الكفاءة لإحياء دين الله. وقد وجدت تلكم الإشارة الأرض الخصبة فآتت أكلها بعد حين وتصوّرنا هذا لا ينطلق من فراغ، وإنّما مصدره هذا الحدث التّاريخي الّذي سيحوّل مجرى حياة أبي عبد الله.

**أبو عبد الله ولقاء تقيوس** (تقيوس: دقاش قرية من قرى تقيوس، سير الشّماخي: ص ٤٦٠. ودقاش معروفة في منطقة الجريد بالبلاد التّونسيّة وتقيوس هي قرية الوديان حاليّا. كتابنا. نظام: ٣٣):

لا يزال أبو عبد الله جادّا في تنفيذ خطّة الطّلب حتّى تأتي مرحلة العطاء والإنتاج.

نعم لقد وصل أبو عبد الله إلى تقيوس في رحلته الجادّة بحثا عن علم من أعلام الفقه الإباضيّ آنذاك إنّه أبو عمران موسى بن زكريّاء من علماء النّصف الأوّل من القرن الخامس/ ١١، كان العنصر الأساسيّ في تأليف ديوان غار مجماج في الفروع

(كتابنا: نظام: ١٦٩ - ١٧١.)، درس على أبي القاسم الحامّي واعترف له أقرانه بالقدرة العلميّة حيث يقول أحدهم في مجلس عامّ: « قد جاء من هو خير منّا. » (الشّماخي سير: بارونيّة: ٤٠٢.)

لكنّه عوض أن يلتقي بهذا الشّيخ لينهل ممّا آتاه الله من معرفة وجد الوفد الجّربي جادا في البحث عنه ليبلّغه طلب شيخه فصيل ضرورة الجلوس إلى العطاء، ولكنّه ليس مجرّد جلوس لتعليم ذلك الوفد كما هومألوف، بل إنّه طلب أوسع وأدقّ، تمثّل في اقتراح تكوين تنظيم محكم يضمن للإباضيّة كيانهم في هذه المرحلة العصيبة من تاريخهم تلك المرحلة الّتي توالت فيها عليهم الضّربات الّتي يخشى منها أن تشتّت الشّمل، وأن تنثر ما بقي من العقد الّذي ناضل السّلف من أجل جمع حبّاته وترصيفها على الوجه المطلوب من مركز الدّعوة في مدينة البصرة، يوم كانت تلك المدينة مركز الثّقل، ومنطلق كلّ خير بالنّسبة إلى أهل الاستقامة في المشرق والمغرب.

أمّا الآن وقد خفت كلّ ذلك، وانتهت إمامة الظّهور وفشلت المحاولات لإحيائها فلم تبق إلاّ العودة إلى نظام الكتمان كما كان عليه الأمر بالبصرة. إنّها الحلقة أو ما عرف في ما بعد بنظام العزّابة.

وهذا النّص الّذي يروي قصّة ذلكم اللّقاء بتقيوس كما تذكره كتب السّير، لقد أعلمه أفراد الوفد الجّربي وعلى رأسه زكريّاء ويونس ابنا فصيل وابنا أخته أبو بكر يحيى: « بما جاؤوا في طلبه... وما وصّاهم به الشّيخ أبو زكريّاء فصيل، وأكّد عليهم في

أن يكون، ورغبوا إليه أن يجلس لهم، ويرتّب لهم الحلقة، فامتنع كلّ الامتناع، فمكثوا أيّاما يراودونه على ذلك، ويلحّون عليه في الطّلب ولم (يجدوا) منه إجابة ».

فلمّا كان يوما وهم بمسجد المنيه (يقع عند سور مدينة تقيوس من الجهة المؤدّية إلى الحامّة أي من الجهة الغربيّة. نظام: ٣٣.) والطّلبة يكرّرون الرّغبة على أبي عبد الله، إذ خرج رجل من تقيوس إلى الحامّة، وخرج معه صاحبه فجرى بينهما حوار كانت نهايته أن قال الواحد للآخر: « اجعلها لله لا تخب. »

فكانت كلمة مناسبة لمقامهم أقام بها الوفد الحجّة على أبي عبد الله، فما كان منه إلاّ أن قبل، ولا شكّ في أنّ الفكرة كانت تلحّ عليه من أوّل مرّة، غير أنّه تورّع في بداية الأمر، لما يعرف من صعوبة تحمّل هذه الأمانة (كتابنا: نظام: ٣٥).

## أبو عبد الله يؤسّس نظام الحلقة:

نعم إنّ أبا عبد الله كان ينوي الاستزادة من التّفقّه في الدّين، وهو واع تمام الوعي بالمرحلة العصيبة الّتي تمرّ بها الإباضيّة، وقد طوّف بأنحاء المواطن الّتي كانوا يعمرونها، وعرف ما يقال عنهم في عاصمة البلاد. لكن ما الفائدة من الاستزادة من العلم إن لم ينفع به بني جنسه وهم في أشدّ الحاجة إلى ذلك.

كلّ هذه خواطر كانت تدور بباله، وقد زادت إلحاحا خاصّة عندما تبيّن له أنّ شيوخه الّذين أخلصوا في تربيته يلحّون عليه في ذلك. فهؤلاء أبناؤهم بين يديه رغم

ما أوتوا من علم يلحّون عليه في الجلوس إلى العطاء ولكن ليس كما اتّفق، إذ قد مضى عهد التّلقائية والعفويّة والاستناد إلى مراكز إمامة الظّهور، وحلّ عهد جديد هو عهد الاعتماد على النّفس، والسّعي إلى المحافظة على ما تبقّى من السّير، ألم يقتل الشّيخ أبو القاسم الحامّي قبل قليل؟ ألم يضطرّ أبو خزر إلى أن يرحل إلى القاهرة مع المعزّ الفاطميّ؟ ألم يضطرّ شيخه أبو نوح إلى أن يحتال ليستقرّ في البلاد عسى أن يفيد العباد؟ ألم يرجع شيخه أبو زكريّاء فصيل إلى جربة كسير الجناح وقد فشلت الثّورة الّتي أراد أن يناصرها؟.

فماذا بقي حينئذ؟ لم يبق إلاّ إعلان الرّجوع إلى **الكتمان**، كما كان عليه الأمر مع الإباضيّة الأول جابر وأبي عبيدة والرّبيع في مدينة البصرة، زمن عسف الحجّاج ومن أتى بعده من الولاة الّذين تلاحقوا على كرسيّ ولاية ذلك المصر العريق.

ما أطيب الأسس الّتي أرساها الإمام جابر وحبك صرحها الإمام أبو عبيدة، وزادها صقلا الإمام الرّبيع فأثمرت خير ثمار: إنّها إمامة طالب الحقّ باليمن، والجلندى بن مسعود بعمان، وأبي الخطّاب بطرابلس، والرّستميّين بتاهرت.

لقد عاد يستحضر في ذاكرته كلّ ذلك فإذا بتلكم الصّورة المشرقة تستقرّ في روعه مع تلك العبارة اللّطيفة الّتي ساقها القدر في اللّحظة المناسبة: « اجعلها للهّ لا تخب. »

فليجعلها هو أيضا للهّ عزّ وجلّ عسى أن ينتفع وينفع في الدّنيا والآخرة.

قبل أبو عبد الله واعتزال النّاس أربعة أشهر يستجلي الخطوط العريضة والجزئيّات الدّقيقة لخطّة العمل المرجوّة، تلك الخطّة الّتي ستكون السّبيل إلى المحافظة على الكيان، ذلك الكيان الّذي كابد السّلف من أجل تأصيله والمحافظة عليه في الرّبوع.

كان ذلك سنة ثمان وأربعمائة (٤٠٨ - ١٠١٧) بمسجد المنية بتقيوس قسطيليّة. وما أن ولد هذا المولود حتّى اصطلح على تسميته بالسّيرة المسوريّة البكريّة، نسبة إلى أبي عبد الله وله فضل استفراغ جهده في وضع قوانينها بما يلائم ظروف الزّمان والمكان، ومستقبل الأجيال، ولما يكفل لهم سعادة الدّارين (إبراهيم أبو اليقظان:الإباضيّة في شمال إفريقيا، خ بمكتبته القرارة. وادي مزاب ٣ / ١٥). ونسبة إلى فصيل بن أبي مسور صاحب الفكرة.

لقد شرع أبو عبد الله في إرساء قواعد هذه السّيرة في نفس المسجد الّذي تمّ فيه الاتّفاق، وقد ركّز في البداية على عناصر الوفد الجربي مع العاملين في محيط ذلك المسجد إخلاصا لله تعالى.

وانطلق الأمر باختيار هؤلاء لتحمّل مسؤوليّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والحرص على ترتيب جميع حاجيّات الأمّة كبيرها وصغيرها، مع الجلوس للتّلقّي أحيانا وللتّدريس أحيانا أخرى. ومع كلّ ذلك عدم الغفلة عن توفير لقمة العيش لأنّ كلّ هذا العطاء لا أجر عليه ماديّا.

لكن لم يطل المقام هنالك « إذ كثرت الزّلازل وامتلأت الأرض خوفا » (كتابنا: نظام: ٣٥) فانعقد مجلس الشّورى ونظر في القضيّة واستقرّ الرّأي على البحث عن موطن آخر يتوفّر فيه الأمن إذ ذلك هو أساس العمل.

لقد أدرك أبو عبد الله أنّ تأسيس مثل هذه التّنظيم يحتاج إلى عصبيّة تحميه فتأمّل في وضع القبائل المقيمة بقسطيليّة فلم يجد الجماعة القويّة القادرة على تحمّل مثل هذه الأمانة الجسيمة، وتبيّن له أنّ الابتعاد عن ذلكم المحيط أفضل، إنّه الاتّجاه نحو بلاد الغرب بعيدا عن ضغط الدّولة الصّنهاجيّة، وحيث لا يصل نفوذ دولة بني حمّاد النّاشئة. وليكن ذلك عند بني مغراوة (قبيلة بربريّة تعمر جهة أريغ شرقيّ الجنوب الجزائريّ.) تلك القبيلة الضّاربة في بلاد أريغ (أريغ هي جهة تقرت الحاليّة شرقيّ الجزائر.)

## ٢- أبو عبد الله في أريغ:

إنّ سعة اطّلاعه على أحوالَ الإباضيّة آنذاك مكّنته من أن يقنع العاملين معه أنّ أريغ أحسن منطقة يمكن أن يولّوا وجوههم شطرها، ذاك أنّ أريغ هذه يعمرها « أناس رقاق القلوب أرجو أن ينتجع فيهم الإسلام، ويتلقّوا ما نحن عليه بالقبول ويكونوا لهذا الخير أهلا » على حدّ عبارة أبي عبد الله (نظام: ٣٥.)

وفعلا صدقت فراسة الرّجل فما أن اقترح الأمر على أولي الأمر هنالك حتّى رحّبوا به أيّما ترحاب، ولبّوا طلب أبي عبد الله وجماعته في إعداد غار ليجتمع فيه التّلاميذ ويحلّقون، ولتكون فيه دراستهم وانفرادهم (ن. م: ٣٥.)

في غار تينيسلي (تينيسلي: وتسمّى آجلو وهي قرية بليدة عمر الحاليّة وتقع على ٢٠ كلم جنوب تقرت في الجزائر.)

ما أقرب اليوم من الأمس ! ألم يتنزّل الوحي على الرّسول عليه السّلام في جبل النّور في غار حراء؟ ألم يكن منطلق الهجرة النّبويّة الشّريفة من غار ثور؟.

فلم لا يكون التّأسّي بالرّسول عليه السّلام حتّى في مثل هذه البساطة، وعدم إعطاء الشّكل أكثر ممّا يستحقّ؟ هكذا فكّر أبو عبيدة في مدينة البصرة، فلا فخامة ولا رياش ولا أرائك، إنّه سرداب من سراديب البصرة، مصنع من مصانع القفاف في الظّاهر، ولكنّه منبع من منابع العلم الخالص في أعماقه. ألم يتخرّج منه أبرز علماء أهل الدّعوة وأبطالها وأئمّتها.

تلك هي المعاني السّامية الّتي جالت بخاطر أبي عبد الله فبثّها في من حوله فقالوا بصوت واحد: لم لا ننسج على ذلكم المنوال؟

ولم يكن ذلك مجرّد زعم وادّعاء كما تدندن بذلك بعض نظريّات العصر، وإنّما كان ذلك ممارسة عمليّة فعّالة مبادئها القواعد الإيمانيّة العمليّة الّتي ارتضتها الجماعة عندما انتقل أبو عبد الله إلى الغار مع أبنائه وأحبابه، فانبثقت في أعماق ذلك الغار

خليّة أشبه ما تكون بخليّة النّمل انضباطا ودقّة وإخلاصا في أداء جميع ما وكل إلى كلّ فرد من مهامّ ليس من الهيّن تحمّلها إلاّ على من آمن بالقضيّة، وأدرك ما ترمي إليه من أبعاد.

نعم لقد تمّ ذلك سنة تسع وأربعمائة ٤٠٩ / ١٠١٨ - ١٠١٩ واتّخذت لها كلمة « التّسعر » رمزا للتّخفيف حتّى ترسخ في أذهان كلّ من حضر ومن سيأتي.

إنّه بحقّ حدث تاريخيّ جليل في حياة الإباضيّة بالمغرب، إنّها لحظة زمنيّة فاصلة بين مرحلة ومرحلة. بين مرحلة الظّهور والسّيادة الإباضيّة في البلاد، وبين مرحلة الكتمان والتّبعيّة لمن يسود البلاد، فبلّغ الشّيخ أبو عبد الله هذه الدّعوة عبر الأجيال، فصمدت أمام الزّوابع التّي عملت على طمسها واستئصالها.

واستمع إلى أصحاب السّير وهم يصفون بأسلوبهم المعبّر المختصر طريقة عيش أهل الغار: « يكابدون مؤونة العيش لأنفسهم، ويجتهدون غاية الاجتهاد في عزمهم. » (نظام:٣٦.)

أليست تلك سمات خليّة النّمل وخليّة النّحل كما أثبت ذلك العلم الحديث، إلاّ أنّ هذه الخليّة بشريّة، كلّ يقوم بدوره عن إرادة، لا عن فطرة وعزيزة، ويبتغي الأجر من الله ومن الله وحده.

بمثل هؤلاء تمكّن أبو عبد الله من أن يحكم تطبيق ما نظّره في ما مضى، فلم تبق نظريّته حبرا على ورق كما يقال.

ولا يسعنا المقام هنا لتفصيل الكلام في هذا الشّأن إذ قد وضّحنا ذلك في موطن آخر، وإنّما المدار هنا على أن نبيّن كيف تتمكّن الإرادة (راجع كتاب نظام العزّابة...) الرّاسخة - بفضل الله تعالى - من أن تصنع الرّجال، وأن تؤصل للكيان.

على رأس هذه الخليّة شيخ الحلقة، إنّه الغوث والمرجع في كلّ الملمّات، وقد تحلّى بأجلّ الخصال علما وسلوكا إلى حدّ أنّ كلّ من حضر كان يتصوّر أنّ الرّجل لا يغادر المكان لا ليل ولا نهار. نعم إنّه لا يأوي إلى فراشه إلاّ بعد أن ينام الجميع، ولا يستيقظ أوّلها إلاّ والشّيخ في محرابه يبتهل إلى العليّ القدير أن يحفظه وأن يحفظ الجميع، وأن يلهم الكلّ مراشد أمورهم.

ولا يتصوَّرَنَّ واحد أنّ الرّجل متصوّف عازف عن الأهل والبنين، كلاّ فقد علمنا من الصّفحة الأولى أنّ للرجل زوجة وأبناء، ولكنّه الذّوبان في خدمة الأمّة، ذوبان من يدرك قيمة لحظة التّأسيس، إنّها أمانة الأجيال اللاّحقة كلّها.

ثمّ تنضمّ حول هذا الشّيخ الوقور الهيئة العليا الّتي تتكوّن من إمام الخمس، والمؤذّن، ووكيل الغار، وبعض الأعضاء، وهي هيئة تتّسع وتضيق حسب الحاجة إلى ذلك.

تنضم إلى هؤلاء هيئة العشائر المقيمة في المحيط.

والكلّ لا يختار إلاّ بمعيار من ذهب أساسه التّقوى والقدرة على الالتزام، أمّا من يحيف فإنّها البراءة والرّفض من المحيط.

إنّ هؤلاء جميعا متعاونين ينظّمون كلّ ما تحتاج إليه الأمّة، من إماطة الأذى من الطّريق إلى أعلى درجات الإيمان.

فلا تسل عن نظام التّعليم، ولا عن نظام المسجد، ولا عن النّظام الاجتماعيّ والأخلاقيّ، ولا عن النّظام الاقتصاديّ ومراقبة الأسواق، ولا عن النّظام الوقائيّ لحراسة البلاد بالحكمة وتطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ولا عن أسس العقاب لكلّ من تحدّثه نفسه بالانحراف.

نعم كلّها أساسها قال تعالى، قال عليه السّلام، وهكذا كان السّلف بداية من أصحاب الرّسول عليه السّلام إلى آخر من عرف من أهل الصّلاح.

هذا هو غار تينسيلي، وذاك هو منطلق السّيرة المسوريّة البكريّة الّتي عمّ نفعها البلاد والعباد ومكّنت أهل الدّعوة، بفضل الله تعالى، من الصّمود أمام طواحن الزّمن، والبقاء على قيد الوجود في ربوع جبل نفوسة، وزوارة، وجزيرة جربة، ووادي مزاب، وقد ثبت تاريخيّا أنّه كلّما انحلّت هذه السّيرة في محيط تبعها اندثاره وانتهاؤه إلى الأبد.

والسّؤال هنا، هل عندما طاب المقام في هذا الغار خير أبو عبد الله البقاء أم التّرحال؟.

## الحلقات في أهل الدّعوة:

ألم يعرف الرّجل **بعمّي محمّد السّائح**؟ ألم يقل فيه عبد الله ابن الأمير من علماء الإباضيّة: « عجبا لهذا الشّيخ وأصحابه، أمثالهم كمثل الحواريّين لعيسى عليه السّلام.» (ن. م. ٣٤.)

ألم يكن هو بنفسه يحقّر من شأن من يستسلم إلى الدّعة والاستقرار فيقول: « من لم ينتقل في أهل الدّعوة كجرولم يفتح عينيه » (ن. م: ٣٥.)، ويعتبر من خير الأدلّة على طلب العزّ في التّرحال حديث الرّسول عليه السّلام: « من أراد العزّ فليجاور غير عشيرته. » (ن. م: ٣٥.)

لم يكن أبو عبد الله ليرحل وحده وإنّما هو ركب يتجاوز عدده المئات، إنّها التّربية العمليّة حينما يحلّ هذا الرّكب، من قسطيليّة إلى أريغ، ومن أريغ إلى وارجلان، وأبو عبد الله في كلّ ذلك يفكّر في بعث نقطة جديدة رجاء أن ينطلق منها بعث جديد لم يعرف ما أصاب بقيّة الجهات من القرع.

ولقد كانت تأتيه الأخبار عن طريق رعاة أغنامه عن منطقة تعرف بجبال بني مصعب تستجيب لفكرته المنشودة إنّها منطقة صعبة مادّيا ومعنويّا ذاك أنّها ضاربة في منطقة الشّبكة في الصّحراء وإنّها عامرة بالمعتزلة.

وما أن استقرّ الرّأي بعد المشورة مع شيوخ أريغ على اختيار تلك الرّبوع حتّى انطلق العمل.

وفعلا لقد شرع أبو عبد الله – وهو المناظر القدير – مع من تكوّن معه من أبنائه يطوفون في جبال بني مصعب يعملون على إقناع هؤلاء بالحجّة واللّين – وقد كانوا من قبل للرّستميّين محاربين – فتحوّل من تحوّل إلى الإباضيّة وبقي من بقي على اعتزاله يتعايش في كنف الجماعة بأمن وسلام.

وتطلّب هذا من أبي عبد الله أن يقيم مدّة هنالك لم تضبطها كتب السّير إلى أن تخرّج على يديه جيل من أهل البلد أبرزهم الشّيخ إبراهيم بن مناد في العطف أوّل قرى مزاب الّتي حلّ بها أبو عبد الله، والشّيخ بابا السّعد، من أكبر قصور الوادي في ما بعد ألا وهو غرداية.

ثمّ تمّ النّداء في أطراف المناطق الإباضيّة فأقبلت الوفود لتعمر المكان من جبال نفوسة وجربة ووارجلان وغيرها، وإنّك لتجد البيئة المزابيّة إلى اليوم خليطا من هذه الأصول جميعا.

وهكذا تأصّلت السّيرة هنالك، واستمرّت في عطائها بين مدّ وجزر، وهي اليوم في أوج عزّها، ذاك أنّ هذه البيئة أحسن ممثّل للفكر الإباضيّ في المغرب اليوم إلى جانب عُمان في المشرق، تلك الّتي تشهد نهضة يشهد لها القاصي والدّاني في جميع ميادين الحياة.

وما كان الرّجل ليعرف الدّعة والرّاحة، إنّه يدرك أنّه لم يخلق لمثل ذلك في هذه الحياة الدّنيا، وقد صدق الله الّذي قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ (٩٠ البلد ٤)،

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ (٨٤ الانشقاق ٦) فليستمرّ أبو عبد الله في كدحه هذا حتّى يأتي أجله.

## الرّحلة في أطراف البلاد لتثبيت أهل الدّعوة:

ما كان لأبي عبد الله أن يكتفي بالتّعرّف إلى أحوال من قرب منه من أهل الدّعوة فقط أي في ما ذكرنا من مناطق إلى الآن، إذ كان همّه أبعد من ذلك، لذلك نظّم رحلة للأطراف البعيدة، وأبعد نقطة من هنالك آنذاك هي جبل نفوسة موطن أهله وذويه، ومنطلق أهل الدّعوة في بلاد المغرب. لقد عزم على ذلك كما تذكر كتب السّير، لكنّها لم تنقل أنّه وصل إلى هناك، وإنّما تثبت أنّه مرّ في هذا الرّحلة بما يلي:

بإفريقيّة وهو يقابل باجة بالبلادة التّونسيّة اليوم والقيروان والسّاحل وتمولست وتقابل بني خداش اليوم بالبلاد التّونسيّة وجربة وتافجلت وتقابل شمال مدينة مدنين بالبلاد التّونسيّة اليوم ليعود إلى أريغ.

نعم إنّ رحلة أبي عبد الله هذه كانت رحلة ترمي إلى التّعرف على أحوال أهل الدّعوة وانتشال ما يمكن أن ينتشل، ودفع النّابض منها إلى الأمام، لذلك كان الرّجل عندما يحلّ في مكان « يقسم العزّابة على الأحياء » ويكثر من الاستغفار، ومراجعة المسائل، والدّعوة إلى درجات الكمال في مجالس الذّكر خاصّة بقوله: « من ضحك في مجالس الذّكر أو تكلّم فقد حبط أجر ما كان قبل الضّحك في المجلس.»

وفعلا إنّ تقدّم العمر حال بين الرّجل وبين التّرحال خاصّة إذا عرفنا أنّه فقد البصر في آخر حياته.

لذلك دعّم نشاطه من جديد في أريغ رغم صعوبة المحيط، وتروي المصادر « أنّ قراءة العزّابة كانت تسمع من بعيد في آجلو الشّرقيّة ».

وممّا يدلّ على كثرة النّشاط قيام ثلاث مدارس في تلك المرحلة الحرجة هناك:

- وذكر عن أبي يعقوب، وكان في أمسنان يجلب العزّاب - التّلاميذ - المبتدئين من أهاليهم ويعلّمهم الأدب والسّير.

- فإذا وصلوا محمّد بن يوسف الوسياني أقرأهم القرآن والإعراب والنّحو.

- وإذا وصلوا الشّيخ أبا عبد الله محمّد بن بكر علّمهم الدّين والعلم والأصول.

فمثّلوهم بمن يقطع الأعواد من الغابة ويصلحها ويدفعها للنّجار، ثمّ يدفعها النّجار إلى من يركّبها (الشّماخي: سير ٥١٧.)

ويحسن أن نذكر هنا تحسّن حال أبي عبد الله المادّية إذ امتلك عدّة ضيعات، وصار يستضيف العزّابة عنده، وقد أوصى عند وفاته بخمسمائة دينار.

ولا يفوتنا قبل الختام أنّ كلّ هذه الحركيّة لم تحل بين الرّجل وبين الزّواج والإنجاب، وقد أنجب من زوجته عائشة من بني ينجاسن ثلاثة أبناء: أحمد ويوسف ومحمّد، وقد اشتهر من بينهم ابنه أبو العبّاس أحمد بما خلّف من مؤلّفات قيّمة في شتّى الفنون الإسلاميّة (نظام: ٤٥.)

## وفاة الشّيخ أبي عبد الله:

توفّي رحمه الله سنة ٤٤٠ / ١٠٤٨ - ١٠٤٩، وقد حضر بجانبه عند احتضاره تلميذه عبد السّلام بن منظور فقال له: « إلى من تتركني يا أخي. فقال له: الدّعاء الدّعاء » فصار يردّدها حتّى حشرج بها صدره وفاضت نفسه إلى رحمة الله (أبو زكريّاء الوارجلاني: كتاب السّيرة: ٣٠٦.)

وقبره معروف إلى الآن قرب غاره ببليدة عمر ومشهور بقبر سيدي محمّد السّائح.

ولم ينقطع النّشاط إثر وفاته، ناهيك أنّ أحد أتباعه تطوّع ببناء مسجد قرب الغار سنة ٤٤٠ / ١٠٤٩، وجاء الشّيخ نزوراس بن يوسف من الحجّ سنة ٤٤١ فوجد النّاس يصلّون في آجلو الغرب فقال لهم: « في الغار إلى الآن » وأمر ببناء مسجد آجلو الكبير وخطّه بيده ومصلاّه سنة ٤٤١ (نظام: ٤٦.)

## مؤلّفاته:

يقول الدّرجيني ويتبعه الشّماخي في ذلك: « وله في كلّ فنّ تواليف كثيرة، وأكثرها في الحجج والبرهان » غير أنّنا لم نعثر على أيّ منها سوى ما نقله الدّرجيني عن نظام التّعليم وأسنده إلى أبي عبد الله: « ذكر لمع من سير الحلقة وما ينبغي لأهل

طريق العزابة أن يلتزموه وأن يعلموه ويعملوه ممّا رتّبه الشّيخ أبو عبد الله محمّد بن بكر رحمه الله. » (الدّرجيني طبقات ١ / ١٧١ - ١٨٣.)

فرحات الجّعبيري: نظام العزّابة عند الإباضيّة في جربة تونس ١٩٧٥. وأبو عبد الله محمّد بن بكر الفرسطّائيّ ضمن تراجم إباضيّة عمان ٢٠٠٠.

# أبو الرّبيع سليمان بن يخلف المزاتي

## (٤٧١ – ١٠٧٨)

**إفريقيّة في القرن الخامس:** حاول الإباضيّة أن يسترجعوا أنفاسهم طيلة القرن الرّابع في المغرب، وذلك بعد انهيار نفوذهم في طرفيه شرقا وغربا، في العقدين الأخيرين للقرن الثّالث بتغلّب العبّاسيين عليهم في واقعة مانو(٢٨٣/ ٨٩٦)، وبتغلّب الزّحف الشّيعي على كامل المغرب وعلى دولتهم الرّستميّة، (٢٩٦/ ٩٠٨) وذلك بما بدا من حيويّة في حركيّة الشّيخ أبي القاسم الحامّي في قسطيليّة، الأمر الّذي دفع المعزّ لدين الله الفاطميّ (٣٣١ – ٣٦٢/ ٩٥٣ - ٩٦٧) إلى الأمر بقتله سنة ٣٥٨/ ٩٧٣.

وقد عمل أنصاره على الأخذ بالثّأر واسترجاع المجد، ولكن كانت واقعة باغاي الّتي انحلّ فيها العقد حيث فرّ كلّ من أبي خزر (٣٨٠/ ٩٩٠)، وأبي نوح سعيد بن زنغيل (٤/ ١٠) ثمّ اضطرّا إلى التّآلف مع المعزّ لدين الله الفاطميّ، وانتقل أبو خزر إلى مصر مكرها وبقي أبو نوح في المغرب عسى أن يحيي ما اندرس. ولا نغفل عن هزيمة صاحب الحمار بعد أن كاد يطيح بعرش الفاطميّين في عقر قلعتهم بالمهديّة.

تتربّع الدّولة الزّيريّة على عرش الفاطميّين وتخلص لهؤلاء في البداية، لكن سرعان ما يقلب المعزّ بن باديس (٤٠٦ – ٤٥٣/ ١٠١٥ - ١٠٦١) ظهر المجنّ للّذين

منحوه وأهله هذه الرّبوع، ويناصر مالكيّة القيروان سنة (٤٣٩/ ١٠٤٧) ويخلع طاعة الشّيعة، ويدعو للعبّاسيّين.

ويتحوّل أمن البلاد وازدهارها بسرعة إلى فزع وتقهقر، ذلك لما عرفه النّاس من ويلات من سوء أثر الزّحف الهلالي.

ويقع الإباضيّة في قصطيليّة بين نارين، وفي الجزيرة بين ثلاثة نيران، ونكتفي بذكر أربعة أحداث جسيمة زعزعت الكيان الإباضيّ بإفريقيّة، وحوّلت مجرى حياتهم.

٢) محاصرة الصّنهاجيّين لقلعة بني درجين ٤٤٠/١٠٤٨والعمل على استئصالها.

٣) حرص النّصارى على استئصال الجزيرة ومن ذلك حملتهم عليها سنة ٤٥٣/ ١٠٦٢.

٤) غارة الهلاليّين على جربة ٤٥٩/ ١٠٦٦.

١) هجوم الصّنهاجيّين على جربة، وقتل عدد كبير من علمائها منهم الشّيخ عمروالنّميلي ٤٣١/ ١٠٣٩.

إنّ هذه الأحداث الجسيمة دفعت بشيوخ الإباضيّة في إفريقيّة، ومن أبرزهم في جربة الشّيخ فصيل بن أبي مسور، (ق ٤ – ٥/ ١٠ – ١١) إلى التّفكير في تحويل المسار السّياسيّ للإباضيّة، وهوما يعبّر عنه بمسالك الدّين، من مسلك الظّهور إلى مسلك الكتمان.

وفعلا في مطلع القرن الخامس هـ/ ١١ م أي في العقد الأوّل منه أرسل الشّيخ فصيل وفدا من قبله يتقدّمه ولداه زكريّاء ويونس وابن أخته أبو بكر إلى أبرز من تتلمذ عليه في المدرسة المسوريّة، وهو الشّيخ أبو عبد الله محمّد بن بكر بن أبي بكر الفرسطّائي ٤٤٠/ ١٠٤٨، وطلب منه أن يرسي أسس قواعد سياسة الكتمان، وهو ما عرف في ما بعد بنظام الحلقة، أونظام العزّابة، وذلك للمحافظة على الكيان الإباضيّ فكريّا واجتماعيّا دون التّصدّي للدّول الحاكمة.

ولم يكن من الشّيخ أبي عبد الله إلاّ أن يلبّي الطّلب فتمّت السّيرة المسوريّة البكريّة، سنة ٤٠٩/ ١٠١٨، وقعد الشّيخ للحلقة وأرسى قواعدها وانبثقت حيويّة فكريّة واجتماعيّة جديدة في المجتمع الإباضيّ في وادي أريغ « تقرّت »، حاليّا بالقطر الجزائريّ) وبمنطقة الجريد، وبالجنوب التّونسيّ، موطن الشّيخ أبي الرّبيع سليمان بن يخلف المزاتي. فمن هوأبو الرّبيع هذا؟

## ٢) أبو الرّبيع سليمان بن يخلف المزاتي:

لقد كان لولادة سليمان هذا من قبيلة مزاته وفي قرية تمولست أثر بالغ في حياته، ذلك أنّ هذه القبيلة كانت وما تزال آنذاك من أبرز دعائم الإباضيّة، وقد قال عنها الإمام عبد الوهّاب بن عبد الرّحمان بن رستم (١٧١ – ٢١١/ ٧٨٧ – ٨٢٦) ثاني أئمّة الرّستميّين: « إنّما قام هذا الدّين بسيوف نفوسة وأموال مزاته » أمّا القرية الّتي ولد

فيها فهي تمولست وقد كانت مركزا لمقاطعة تمولست كلّها في القرن ٥/ ١١، وهي قرية تقع تحت جبل دمّر وسط بلاد تسكنها القبائل الوهبيّة من زنزفة ولماية ومزاته.

وبعد ما نظر الأستاذ محمود الأندلسي في عدّة قرائن رجّح أن تكون ولادة أبي الرّبيع على رأس القرن الخامس أي في حدود سنة ٤٠٠/ ١٠٠٩.

وإذا علمنا أنّ الشّيخ أبا عبد الله أسّس نظام العزّابة سنة ٤٠٩/ ١٠١٨ فإنّ مرحلة التّعليم الأساسيّة لدى أبي الرّبيع تصادف مرحلة العطاء الكامل عند الشّيخ أبي عبد الله، وفعلا لقد عايش أبو الرّبيع مدرسة شيخه أبي عبد الله معايشة تامّة وكان كفرسان رهان مع ذلك الجيل الّذي أخلص للفكرة منذ نشأتها، ونذكر منهم أحمد ولد الشّيخ أبي عبد الله، والوفد الجّربي وعلى رأسه زكريّاء ويونس ابنا الشّيخ فصيل وغيرهم كثير.

وفعلا لقد لازم أبو الرّبيع هذه المدرسة وهي في عنفوان عطائها ردحا من الزّمن فنهل ممّا فيها من معارف فكريّة وتجارب عمليّة. ذلك أنّ الشّيخ أبا عبد الله عمل على تكوين جيل يجمع بين سعة الأفق الفكريّ وبعد النّظر الاجتماعيّ، وتلك هي ضرورة هذه المرحلة من حياة الإباضيّة الحرجة، فأساس الرّهان يقوم على المحافظة على الكيان.

فكان القرآن الكريم والحديث الشّريف حفظا وفهما الرّكيزتين الأساسيّتين لكلّ العلوم، وحفظ الكتاب العزيز شرط لا بدّ منه لكلّ قادر على الحفظ، ثمّ يوزّع الطّلبة حسب الاختصاص. وإذا بأبي الرّبيع يولع بفنّ أصول الدّين، فكان يحفظ عن شيخه

كلّ شاردة وواردة، وقد تجلّى ذلك في كتابه « التّحف » ذلك أنّه يضبط ما يرويه عنه بكلّ دقّة.

ولم يكن يتخلّف عن الرّحلات الّتي كان ينظّمها الشّيخ أبو عبد الله في أطرف البلاد وذلك ليبعث في أهلها الأمل،ولينتخب من أبنائها أنجب الطّلاب ليقوموا بعد ذلك ببثّ فكره أحسن قيام. وقد كان ذلك شأنه في سائر فصول العام إذ لكلّ فصل مستقرّ. والمهمّ أنّ أبا الرّبيع ما أن توفّي شيخه حتّى أحسّ بثقل الأمانة فقام بها أحسن قيام في تمولست الّتي كان قد مرّ بها شيخه أثناء رحلته إلى جزيرة جربة، فنهل النّاس من معارفه الشّيء الكثير، وعلموا أنّ أبا الرّبيع من أجلّ طلاّبه.

وفعلا لقد واصل مسيرة شيخه، وكان كثير التّرحال في ربوع جبل دمّر وغيره من بلاد الإباضيّة إلى أن كانت رحلته إلى جربة، ونرجّح أنّها كانت في أواسط القرن الخامس/ ١١ – ٤٥٠/ ١٠٥٨.

* **قصّة تأليف كتاب التّحف:** تتّفق كتب السّير على أنّ أبا الرّبيع تاقت نفسه إلى الاستزادة من علم الفقه، ذلك أنّ هذا الفنّ عليه مدار حياة النّاس، ولا سبيل إلى الفتوى إلاّ بالنّسبة إلى من تضلّع فيه وكان فقيها بحقّ.

فلم يكن منه إلاّ أن قصد مدرسة أبي مسور فحطّ بها الرّحال، واستأذن من شيخها أبي محمّد ويسلان المسوريّ (ق ٥/ ١١) ليجلس بين يديه وينضمّ إلى حلقة طلاّبه.

وبما أنّ أبا الرّبيع لم يكن شخصا مغمورا بل سبقته شهرته في الاهتمام بفنّ أصول الدّين فلم يكن من الشّيخ أبي محمّد ويسلان، وهو أوّل ما انتظمت حوله حلقة العزّابة في جربة، إلاّ أن يعقد مجلس الشّورى مع بقيّة أعضاء الحلقة، فأسفر الأمر عن القرار التّالي: وهو ألاّ يقبل أبو الرّبيع سليمان متعلّما في حلقة الفقه إلاّ إذا قبل أن يجلس لتعليم الأصول.

وما كان لأبي الرّبيع أن يرفض للمشائخ طلبهم، وبهذا انشطر يومه بين التّعلّم والتّعليم، وقد انبثق من كلّ من الحلقتين تأليف.

**أمّا الأوّل**: فهوفي الفقه، وتذكر المصادر أنّه في **الوصايا** لكنّه ما يزال في عداد المفقود، وقد انبثق من دروس الشّيخ أبي محمّد ويسلان. **وأمّا الثّاني**: فقد انبثق من دروس الشّيخ أبي الرّبيع، وهو كتاب التّحف في الأصول.

تلك هي حينئذ قصّة تأليف هذا الكتاب، حيث تحوّلت تقريرات الشّيخ شيئا فشيئا إلى نصوص تكامل بناؤها بتكامل حلقات الدّرس، وليس مثل هذا بغريب على الفكر الإسلاميّ خاصّة والفكر الإنسانيّ عامّة. إذ قلّ من المؤلّفين من لم يجمع بين التّدريس والتّأليف.

ثمّ يرجع أبو الرّبيع إلى تمولست بعد أن تفقّه في دينه،ويستمرّ في رئاسة حلقة العزّابة هناك، ونشر العلم في أطراف جبل دمّر ينتقل بين قراه كما كان يفعل شيخه، يصدر الفتوى، ويصلح أحوال النّاس، ويجمع الشّمل ويوحّد الصّفّ.

ويستمرّ على هذه الحال شيخا من شيوخ الإصلاح في أطراف جبال دمّر إلى أن يتوفّاه الأجل متأثّرا بجراحه إثر هجوم رجل عليه يقال له منجار بن عقيل كما تشير إلى ذلك المصادر وكان ذلك سنة ٤٧١ / ١٠٧٨ في تونين.

**تلاميذه:**

ولقد أخذ العلم عنه خلق كثير نذكر منهم الشّيخ أبا العبّاس أحمد بن بكر النّفوسيّ (٥٠٤- ١١١١) والّذي أثرى المكتبة الإباضيّة بخمسة وعشرين مؤلّفا في شتّى فنون العلم. والشّيخ تبغورين بن عيسى الملشوطي (٦/ ١٢) الّذي برع خاصّة في علم الكلام بعدّة مؤلّفات أهمّها كتاب « أصول الدّين » والشّيخ أبا عمروعثمان بن خليفة السّوفي (٦/ ١٢) الشّهير بكتابه السّؤالات، ورسالة الفرق.

**٣) تقديم كتاب التّحف المخزونة في إجماع الأصول الشّرعيّة ومعانيها:**

**أ- التّعريف بالمخطوطة البارونيّة:**

النّسخة البارونيّة خطّها في منتهى الوضوح وهوخطّ مغربيّ إلاّ أنّ الناسخ لم يذكر اسمه.

وتقع النّسخة في ١١٠ صفحة من الحجم المتوسّط، وبكلّ صفحة ٢٤ سطرا = ٢٦٤٠ من السّطور. وقد تمّ نسخها بتاريخ ١٢٦٩/ ١٨٥٣. وهي النّسخة الوحيدة فيما نعلم من هذا الكتاب.

ب- القضايا الّتي عالجها الكتاب:

١) ما يسع جهله وما لا يسع جهله. ٢) الولاية والعداوة والوقوف. ٣) الجملة وتفسيرها. ٤) كلام الله وقضيّة خلق القرآن. ٥) الإيمان والكفر. ٦) الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. ٧) الإمامة ومسالك الدّين. ٨) المعرفة ووسائلها. ٩) الجواهر والأعراض. ١٠) الحركات والسّكون. ١١) الخوف والرّجاء. ١٢) التّوبة والإصرار. ١٣) النّبوّة والرّسالة. ١٤) صفات الله تعالى.

يكشف هذا الكتاب من خلال ما عرض من القضايا الكلاميّة، وما يتّصل بها من الإشارات الفلسفيّة، عن إلمام الفكر الإباضيّ بهذه القضايا وتأصّلها فيه.

أمّا عن **الإلاهيّات** فيعرض الكتاب ما استقرّ في الفكر الإباضيّ من أنّ التّفكير يجب أن يكون في المخلوق لا في الخالق، ومن أنّ الصّفات ذاتيّة وفعليّة ومن أنّ الصّفات الذّاتيّة هي عين الذّات، وفي كلّ ذلك نلمس رغبة في التّنزيه خاصّة عند تحليل المتشابه والقول فيه بالمجاز، إذ يد الله تعني القوّة والقهر والسّلطان، وعين الله تعني الرّعاية والإحاطة، والله تعالى لا يمكن أن يرى لا في الدّنيا ولا في الآخرة، والقرآن مخلوق لأنّه يستحيل وجود قديمين، ولا شكّ أنّ هذه الرّغبة في التّنزيه كانت وسطا بين التّجريد والتّجسيم، فالله تعالى ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**﴾. (٤٢ الشّورى ١١)

وأمّا عن **الرّساليّات** فيقرّ الإباضيّة أنّ الرّسل هم حجّة الله على الخلق، وأنّ التّعلّم عن طريق ما جاء به الأنبياء والرّسل من وحي هو سبيل معرفة الله ومعرفة

دينه، هؤلاء الأنبياء والرّسل معصومون عن الزّلل وإن وقعوا في الخطإ فلا يستقرّون عليه، وإنّما قولهم الفصل يقوم على الصّواب الّذي يأتيهم من الوحي المؤيّد بالمعجزة، ويجب في حقّهم التّبليغ والأمانة والصّدق، ويستحيل في حقّهم الخيانة والكذب، ويجوز في حقّهم الأكل والشّرب وإتيان النّساء لأنّهم بشر.

وأمّا **الإنسانيّات** فيبيّن الكتاب أنّ الإنسان مكتسب لأفعاله محاسب عليها، ولله في شأنها الخلق وللإنسان الفعل، كما يثبت أنّ الإيمان عقيدة وقول وعمل وأنّ الكفر نوعان:

كفر شرك وكفر نعمة، وتترتّب على هذه الأسماء أحكام في الدّنيا والآخرة.

فالمؤمن الموفّي يتولّى، وإذا مات على هذه الحال فهو مخلّد في جنّة النّعيم.

والمشرك في البراءة، وإذا مات على شركه فهو مخلّد في جهنّم.

والكافر كفر نعمة، وقد يوسم بالنّفاق، يكون في البراءة إلى أن يتوب فيتولاّه المسلمون، أمّا إن مات على معصيته فهو مخلّد في النّار.

بقي أنّ من لم يتّضح أمره فهو في الوقوف وأمره إلى الله.

وليس للإنسان الّذي يقرّ بالجملة « لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله وما جاء به حقّ من عند الله »، وقد يعبّر عنها بالجمل الثّلاث، إلاّ أن يسعى إلى التّمييز بين ما يسع جهله وما لا يسع جهله، وأن يكون بين الخوف من عقاب الله والرّجاء في رحمته.

ويوجب هذا الفكر الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر كلّ حسب استطاعته، إمّا باليد أو باللّسان أو بالقلب.

كما يربط الفكر الإباضيّ بهذه القضايا الأصوليّة قضيّة من الأصول الاجتماعيّة وهي قضيّة الإمامة ومسالك الدّين، فالإمامة واجبة على أن يتولاّها من تتوفّر فيه شروطها مهما كان جنسه، وقد تكون إمامة ظهور، ويسمّى هذا المسلك **مسلك الظّهور**: وهوالمسلك الّذي تقام فيه الحدود والدّولة الإسلاميّة بمفهومها الواسع، وقد تكون **إمامة دفاع** ويسمّى هذا المسلك مسلك الدّفاع حيث يعيّن الإباضيّة عندما يداهمهم خطر إماما يتولّى أمرهم إلى أن ينتهي ذلك الخطر بالنّصر فيختارون إمام ظهور، وإلاّ يتحوّلون إلى مسلك آخر وهو**مسلك الكتمان** حيث تحافظ الجماعة على كيانها دون إقامة الحدود، وهذا هوالمسلك الّذي عاش فيه أبو الرّبيع بعد أن تكوّن نظام العزّابة في المغرب مراعاة للأحوال السّيّئة الحرجة الّتي عرفها الإباضيّة طيلة القرن الرّابع / ١٠.

بقي أنّ الكتاب شمل إشارات أخرى تخرج عن فروع أصول الدّين، منها بعض الإشارات الفلسفيّة ولها صلة بعلم الكلام كقضيّة المعرفة، وكقضيّة الجواهر والأعراض. كما شمل بعض مسائل أصول الفقه وبعض المسائل الفقهيّة.

ومن مؤلّفاته أيضا: « **كتاب في طلب العلم وآداب التّعلّم** » طبع بعنوان كتاب السّير. وكتاب « **الفضائل والتّعريف بالخير**» حسب بكلي (قواعد ١ / ١٤).

### ٤) عمل الأستاذ محمود الأندلوسيّ في التّحقيق:

لقد عرفت الأستاذ محمود الأندلسيّ رحمه الله ميّالا إلى علوم الكلام بسجيّته، فكثيرا ما كان يقبل على المؤلّفات الأصوليّة بشغف إلى أن يسّر الله له الالتحاق

بالدّراسات العليا بكلّيّة الشّريعة وأصول الدّين بتونس، وكان بحثه المنجز لاختبار مرحلة من مراحل الدّكتوراه عن قضيّة الوعد والوعيد عند الإباضيّة فكان المنطلق من هناك.

منذ أن تمّ تسجيل موضوع دكتوراه المرحلة الثّالثة وارتأينا معا أن يكون عن كتاب التّحف.

انطلق رحمه الله في مثافنة الكتاب من قريب، فحقّقه تحقيقا علميّا دقيقا، واكب فيه فكر الشّيخ أبي الرّبيع مواكبة كاملة، فكشف ما فيه من غوامض، وذلك بما أردفه من هوامش تدلّ دلالة واضحة على ما بذله من عناء في إخراج النّصّ في المستوى الّذي يليق به، كما حرص إلى جانب الشّرح والتّحليل على التّعريف بما ذكر في النّصّ من الأعلام والفرق وما إلى ذلك ممّا جعل القارئ يعيش في محيط أبي الرّبيع بدون كبير عناء.

وقد قدّم لهذا التّحقيق بدراسة موسّعة وضع خلالها المؤلّف في إطاره التّاريخيّ العام والخاصّ، وعمل على تقويم الكتاب شكلا ومضمونا، ثمّ بعد ذلك حلّل القضايا الكلاميّة التّالية تحليلا سريعا معلّلا ذلك بأنّها حلّلت في أطروحات سابقة:

- الإيمان والكفر.
- نفي الرّؤية عن الله تعالى.
- خلق القرآن.
- الولاية والبراءة.

وأرسى في النّهاية عند القضايا التّالية، فغاص في أغوارها جامعا في ذلك بين التّحليل والمقارنة ممّا مكّنه من أن يضع المدرسة الإباضيّة في إطارها الصّحيح في تعايشها مع بقيّة المدارس الكلاميّة أخذا وعطاء:

**أ- نظريّة المعرفة:**

المبحث الأوّل: تعريف العلم والفرق بينه وبين المعرفة.

المبحث الثّاني: وسائل المعرفة.

المبحث الثّالث: أقسام العلم.

المبحث الرّابع: الجملة وتفسيرها.

المبحث الخامس: الحجّة وكيفيّة قيامها.

**ب- النّبوّة والرّسالة:**

١) مفهوم النّبيّ.

٢) مفهوم الرّسول.

٣) الفرق بين النّبيّ والرّسول.

٤) حاجة النّاس إلى الرّسل.

**- المعجزة:**

**مفهومها:** لغة واصطلاحا.

الفرق بين المعجزة والشّعوذة والسّحر والتّحيّل.

(للتّعرّف على المصادر والمراجع انظر معجم أعلام الإباضيّة عدد ٤٧٢ وتحقيق محمود الأندلوسيّ مرقون بمكتبتي).

# تبغورين بن عيسى بن داود الملشوطي

## (حوالي ٤٤٠ / ٥٢٠ - ١١٢٦)

بقدر ما توسّعت المصادر الإباضيّة في الحديث عن شيخه أبي الرّبيع سليمان بن يخلف (٤٧١ - ١٠٧٨) وصنوه أبي العبّاس أحمد بن بكر(٥٠٤ - ١١١٠) وغيرهما من مشائخ تلك المرحلة من تاريخ الإباضيّة (أواخر القرن ٥ وأوائل السّادس ٦/ ١١-١٢) غفلت عن تبغورين أوتكاد إذ تعرض له الوسياني لماما، وكذلك الشّماخي، وقد سكت عنه كلّ من أبي زكريّاء والدّرجيني.

ومع ذلك سنبذل ما في وسعنا لنستغلّ هذه الإشارات القليلة لنلمّ بشتات حياة هذا العالم الّذي ترك مؤلّفا في أصول الدّين أجمع كلّ من جاء بعده على الشّهادة له بالنّبوغ في هذا الفنّ كما سنبيّن ذلك بعد حين. فماذا عن المحيط الّذي عاش فيه تبغورين؟ وماذا عن مراحل حياته؟ وعن مؤلّفه الموسوم بأصول الدّين والشّهير **بأصول تبغورين؟**

**وادي أريغ:** جاء في كتاب السّير: « وأمّا عائشة الّتي هي أحسن نساء آجلوفأخذت العلم عن الشّيخ تبغورين بن عيسى » (الشّماخي ط مصر ٤٢٢)

وتبغورين هذا ملشوطي نسبة إلى ملشوطة وهي إحدى قرى أريغ، وكذلك آجلو.

وقد أكّد ذلك معجم أعلام الإباضيّة « عالم من ملشوطة بأريغ، سكن آجلو » (عدد ٢٢١).

فأين تقع أريغ؟ وما هو دورها في الحركة الثّقافيّة عند الإباضيّة إلى عهد تبغورين (مطلع ق ٦ - ١٢).

ينقل محقّق كتاب السّيرة وأخبار الأئمّة عن ابن خلدون للتّعريف بأريغ ما يلي: (مجموعة الواحات الّتي يطلق عليها اليوم وادي ريغ وتوجد بين الزّاب ووارجلان، راجع ابن خلدون، ملحق ٥٢٤) (عبد الرّحمان أيّوب: ص ٢٠٢).

ويذكر إبراهيم بحّاز أنّ البكري وصاحب الاستبصار لم يذكرا أريغ، هذا لأنّ الأوّل يذكر أنّه لا يعرف وراء قسطيليّة عمرانا، ويذكر الثّاني أنّ آخر بلاد الجريد درجين وبالقرب منها بلاد سوف (الدّولة الرّستميّة ص ١٥٣ - ١٥٤).

ثمّ يقول: « هكذا يبدولنا أنّ بلاد سوف وأريغ كانت من المناطق الّتي أحياها الرّستميّون بواسطة أتباعهم من الإباضيّة فغرسوا فيها النّخيل واهتمّوا بالتّمور وأجروا المياه، وهي إلى يومنا هذا (٢٠٠٤) من أكبر مناطق الجزائر إنتاجا للتّمور » (ص ١٥٤).

وهي المسلك الّذي يربط تاهرت بوارجلان ثمّ الصّحراء الكبرى حيث يذكر الإدريسي أنّ مسيرة اثني عشر يوما تفصل مدينة المسيلة عن وارجلان مرورا بوادي أريغ على أكبر تقدير. (بحّاز ٢١٥)

فأريغ أوريغ، أو وادي أريغ، أوبلاد أريغ هي ما يقابل حاليّا تقرت جنوب شرقيّ بلاد الجزائر، وهي من تأسيس رستميّ، وقد ذكر الشّماخي أنّ أبا جمال المدوني كان عاملا على وارجلان وأريغ، وقد عرفت زمن الرّستميّين ازدهارا اقتصاديّا وفكريّا (بحّاز ٢٦٢ و٢٧٨).

كما لا نغفل عن أنّها المنطقة الرّابطة بين شرقيّ الدّولة الرّستميّة وغربها (نفوسة. قسطيليّة. أريغ. الزّاب. أوراس. تاهرت)

والمتتبّع لكتب السّير والطّبقات يلمس أنّ قسطيلة لعبت دورا هامّا في القرن الرّابع - ١٠ في محاولة إحياء إمامة الظّهور بثورتي أبي يزيد (٣٣٦ - ٩٤٧) وأبي خزر (٣٩٨ - ٩٦٩) إلاّ أنّها توالت عليها الضّربات من العبيديين ثمّ الصّنهاجيّين مع ما عرفه معهم المدّ المالكيّ من بسط النّفوذ ممّا جعل أهلها ينزاحون عنها إلى أريغ.

وفعلا نتبيّن أنّ هذه المنطقة كانت محطّ الثّقل طيلة القرن الخامس ومطلع السّادس / ١١ و١٢ حيث ستتوجّه الأنظار نحووارجلان.

وقد واكب تبغورين هذه المرحلة الزّاهرة من حياة أريغ ودورها الحركيّ والفكريّ الزّاهر عند تبنّي مسلك الكتمان بعد اليأس من مسلك الظّهور.

لقد صارت أريغ محطّ الأنظار منذ أن انتقل إليها أبو عبد الله محمّد بن بكر الفرسطّائي (٤٤٠ - ١٠٤٩) سنة ٤٠٩ - ١٠١٨ بعد أن لم يطب له المقام في قسطيلة لكثرة ما يصيب الوافدين عليه من بلاء من قطّاع الطّريق.

وقد استقبله بنوويليل من بني مغراوة أحسن استقبال،وقد كان لهم شأن من قبل في التّحريض على إحياء نظام الحلقة، وأحسنوا وفادته مع الطّلبة إلى أن انقلبوا إلى الغار الّذي استقرّت فيه الحلقة نهائيّا بتينيسلي وتسمّى أيضا آجلوا وهي تقابل الآن قرية بليدة عمر وتقع على ٢٠ كلم جنوب تقرت شرقيّ الجزائر، وهذه شهادة أبي عبد الله في أهل أريغ: « إنّ هاهنا - أريغ - أناسا رقاق القلوب أرجوأن ينتجع فيهم الإسلام، ويتلقّوا ما نحن عليه بالقبول،ويكونوا لهذا الخير أهلا » (نظام: ٣٥)

وعن هذه الحلقة الأمّ انبثقت جميع الحلقات الّتي عرفها الإباضيّة عبر تاريخهم من ذلك الحين في بلاد المغرب وما تزال تمثّلها اليوم الحلقات القائمة في وادي مزاب، مع العلم بأنّ هذا الوادي من تأسيس أبي عبد الله وإذا عرفنا أنّ تبغورين تتلمذ على أحد المتخرّجين من هذا الغار وجب أن نتعرّف على شيوخه وهم في حركيّتهم في وادي أريغ خاصّة.

**شيوخ تبغورين:** يقول الشّماخي: « ومنهم الشّيخ تبغورين بن عيسى أخذ العلم من أبي الرّبيع (٤٧١ - ١٠٧٨) » (سير بارونيّة ٤٣٢).

وإن اكتفى الشّماخي بذكر أبي الرّبيع فلعلّه قد أخذ عنه تبغورين أكثر من غيره لأنّه لا يعقل ألاّ يستفيد تبغورين من بقيّة تلاميذ أبي عبد الله من أمثال أبي العبّاس أحمد بن أبي بكر (٥٠٤ - ١١١٠) وأبي الخطّاب عبد السّلام بن منظور وغيرهما ممّن كانوا يتردّدون على مدرستهم الأولى.

والمتتبّع لسيرة هؤلاء الأعلام خاصّة في أريغ يجد أنّهم كان لهم الأثر الفعّال في هذا المحيط.

والوسياني خصّص لـ« روايات أسوف وأريغ » حرسهما الله بأهلهما ما يقارب الخمسين صفحة مرقونة، لأنّه رتّب سيره حسب البلدان، كما أنّ ذكر أريغ ورد عشرات المرّات في كلّ من كتاب السّيرة والطّبقات وسير الشّماخي بالنّسبة إلى القرن الخامس / ١١. وهي المرحلة الّتي تهمّنا مع تبغورين بداية من سيرة أبي عبد الله مرورا بأبي العبّاس ابنه وأبي الرّبيع سليمان ابن يخلف وأبي الخطّاب عبد السّلام وأبي محمّد ماكسن بن الخير، ومعاذ بن أبي عليّ، وصولا إلى تبغورين وعدد المذكورين يصل إلى ٣٧ عالما.

وقد عرفت أريغ في هذا القرن من الرّخاء والأمن الكثير كما عرفت من المحن ما شاء الله لها، والوقوف على هذه السّير يحتاج إلى دراسة مستقلّة لكن نكتفي بذكر بعض الملامح عن هذا وذاك.

أمّا عن **جانب الرّخاء والعطاء** فقد عرفت هذه المرحلة تحوّلا واضحا إلى الاعتناء بالنّظام الدّاخليّ للجماعة الإباضيّة وذلك بكثرة التّزاور بين أهل الدّعوة لتثبيتهم والسّعي إلى زيارة آجلوحيث ما تزال حلقات القرآن والعلم على حالها كما أسّسها أبو عبد الله الّذي توفّي وقبر هناك (٤٤٠-١٠٤٩). وكان هؤلاء العلماء يسترجعون أصول سلفهم فمن ذلك أنّ أبا محمّد عبد الله قال: كنّا في آجلو فكان عزّابيّا يقرأ كتاب آثار الرّبيع (١٧٥-٧٩١) عن ضمام (٢/ ٨) عن أبي الشّعثاء جابر

بن زيد (٩٣ - ٧١١) رواية أبي صفرة عبد الملك بن أبي صفرة رحمه الله (١٣١ مرقون). كما كانوا ينوّهون بثورة طالب الحقّ (١٣٠ - ٧٤٧)، ويتبرّأون من الخارجيّة ويستحضرون أحداث صفّين وما إلى ذلك.

كما كانوا يتنافسون في اقتناء الكتب مهما كلّف ذلك من النّفقة والعناء ومن ذلك تنافس وهبيّ ونكّاريّ على اقتناء تفسير الإمام عبد الرّحمان بن رستم وفوز النّكاريّ به. « مرّ سليمان بن مدرار النّفوسيّ بأبي محمّد عبد الله وذكر له أنّه ترك تفسير الإمام عبد الرّحمان بن رستم ينادى به في السّوق فسافر إليه مبادرا لم تكن له حاجة فيها غير التّفسير » (وسياني مرقون ١٤٨).

كما عرفت الحركة عديدا من المؤلّفات نذكر منها كتاب التّحف لأبي الرّبيع وكتب أبي العبّاس وعددها ٢٥ وديوان مشائخ أريغ في الفقه في ٢٥ جزءا على غرار ديوان غار مجماج بجربة.

أمّا عن **جانب الشّدّة والبلاء** فقد ذكر الوسياني عدّة فتن داخليّة بين الوهبيّة والنّكار (١٤٩)، كما ذكر هجوم عنان بن ديلم المطرفي على أريغ سنة ٥٠٢ « وقد أفسد الغابة والنّخيل » (١١٣)، كما ذكر محاصرة حمّاد بن بلقّين كدية مغراوة « وكان نزل بعسكر عظيم » (٩٧).

وكما ذكر غارة بني يوجين على رأس وادي أريغ «وأخذوا غنم الجماعة» (٩٧).

مثل هذه الفتن وغيرها ستضعف أريغ شيئا فشيئا إلى أن اتّجهت الأنظار إلى وارجلان في القرن السّادس/ ١٢.

والمهمّ أنّ المحن في تلك الفترة لم تفتّ في ساعد أهل الدّعوة، ومن بينهم تبغورين، ذاك الّذي نرجّح أنّه أخذ عن جلّ من ذكرنا من تلاميذ أبي عبد الله، وبيّنا أنّ القائمة تطول، كما نرجّح أنّه كان ينتقل في أطراف البلاد للتّعلّم والتّعليم ولتثبيت أهل الدّعوة « من أشدّهم عملا » (سير ٤٢٣).

وهذا الوسياني يثبت كثرة العلماء في تيجديت في هذه المرحلة و« ذكر أبو الرّبيع قال: اجتمع في تيجديت خلق كثير، اجتمع فيه من أهل الفضل والعدل والخير والحبر والعلم والزّهد والعبادة والأدب ما لم يجتمع في سائرها من أهل الدّعوة في ذلك الأوان حتّى عدّوا في الحلقة ثمانين توأمين من العزّاب، وحتّى عدّوا في الحلقة مائتين قد حفظوا مائتي دفتر. وفيها مائة عالم لا يردّ أحدهم مسألة إلى الآخر إلاّ من جهة الأدب... وقالوا إذا اجتمعوا في الصّلاة وصفّوا وكبّروا تكبيرة الإحرام فزعت وذعرت ونفرت المواشي من مرابطها... » وسياني ح ١٨٢ - ٢٧٤.

وكلّ من الوسياني والشّماخي ينوّهان بجلالة قدر تبغورين فيذكران رؤيى له تتمثّل في أنّه رأى حين دخل الحلقة (عند أبي الرّبيع) أنّه لجم بلجام من ذهب، « فلمّا تفقه وأراد أهله رأى أنّه لجم بلجام من فضّة » (شمّاخي ٤٣٢).

ومثل هذه الرّؤيى الصّالحة عند أصحاب السير تدلّ على أن للرّجل درجة عالية في العلم فهو كالذّهب بالنّسبة إلى بقيّة المعادن من حيث الدّرجة والقيمة.

كما يذكران أنّه كان من أعظم النّاس قدرا ومن أكثرهم علما ومن أشدّهم عملا، تعلّم العلوم وعلّمها، واستفاد وأفاد، وطلب العلا فساد (شمّاخي ص ٤٣٢)

**تلاميذه:** يقول الشّماخي: « وأمّا عائشة الّتي هي أحسن نساء آجلوفأخذت العلم عن الشّيخ تبغورين بن عيسى » (سير: ٤٢٢). إنّها عائشة بنت الشّيخ معاذ بن أبي عليّ الّذي كان يسكن بقصر بني ويليل من بلاد قفلة أريغ (سير ٤٢١)، وقد كانت عالمة أهل زمانها، وتروى عنها طرائف تبيّن مدى حرصها على طلب العلم، منها أنّها عندما أدركت سنّ البلوغ صار يستحيل عليها حضور مجلس تبغورين الّذي يغشاه كبار المتعلّمين فـ « كانت إذا قعد المجلس جاءت بحصير وتدوّره على نفسها تستتر به وتقعد في المجلس » (سير ٤٢٢). وهي من عالمات القرن السّادس وتذكر لها كتب السّير بعض المواقف مع شيوخ عصرها (سير ٤٢٢).

وإن لم تذكر المصادر إلاّ عائشة من تلاميذه كما فعلت مع شيوخه فإنّنا نرجّع أنّه تتلمذ على يديه خلق كثير.

من الّذين نعرف أنّهم سادوا في ما بعد في وارجلان من أمثال أبي عمروعثمان بن خليفة السّوفي وأبي عمّار عبد الكافي وأبي يعقوب الوارجلاني (٥٧٠ - ١١٧٤) وغيرهم. والشّماخي يرجّح ذلك أيضا حيث يقول: « وأخذ عنه جماعة » (٤٣٢).

**وفاته:** وإن لم تضبط المصادر تاريخ وفاة تبغورين فإنّنا نرجّح أنّه يكون في أواخر الثّلث الأوّل من القرن السّادس، إذ نرجّح أن تكون ولادته قريبة من تاريخ وفاة الشّيخ أبي عبد الله بن بكر (٤٤٠ - ١٠٤٩) لأنّ تبغورين لم يدرك التتلمذ عليه وإنّما تتلمذ على تلاميذه يقول الشّماخي: « وهوفي زمن أبي العبّاس بن بكر (٥٠٤) » فيكون تبغورين عاش تقريبا من ٤٤٠ - ١٠٤٩ إلى ٥٢٠ - ١١٢٦؟.

**مؤلّفاتـه:** « يلحّ كلّ من الوسياني والشّماخي على أنّ لتبغورين تآليف في العقائد تدلّ على نباهة شأنه ورفع درجته » (شمّاخي ٤٣٢) كما يقول الشّماخي أيضا: « ونقلت عن تبغورين مسائل في الكلام وهوالغالب عليه وإن كان له قوّة في غيره » (٤٣٢)

١- **أصول الدّين الشّهير بأصول تبغورين**، وقد حقّقه النّامي تحقيقا علميّا ملحقا بأطروحته، ما يزال مرقونا، وبه ٧٦ صفحة، ويقول تبغورين في خطبته ما يلي: « سألتني رحمك الله أن أكتب لك كتابا أبيّن فيه أصول الدّين الّذي اختلفت فيه الأمّة حتّى صاروا طرائق قددا وفرقا مختلفة... وسأكتب لك في ذلك إن شاء الله ما لا يعتري معتر معه الشّكوك، ولا يتعذّر على المبتدئ حفظه بأبلغ ما حضرني من البيان...»

ثمّ بيّن فضل الله على الأمّة بالقرآن الكريم إذ لا سبيل إلى الخروج من الخلاف إلاّ عن طريقه، ولذلك قال المصنّف: « إنّ أولى النّاس بالحقّ من اتّبع كتاب الله، وجعل محكمه إماما لمتشابهه، ولم يؤثر عليه القياس وما تهوى الأنفس »

وقد اعتبر أصول الدّين عشرة وهي: التّوحيد، والقدر، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وألاّ منزلة بين المنزلتين، والولاية والبراءة، والأمر والنّهي، والأسماء والصّفات، والأسماء والأحكام.

ثمّ وقف عند خمس مسائل: في الحجّة، في الاستطاعة، في العون والعصمة، في القرآن والكلام، في الرّؤية وختم الكتاب بالحديث عن الشّفاعة والميزان والصّراط وضغطة القبر وعذابه وفي حكم من أكل الحرام هل أكل من رزقه أم لا؟

وقد سلك منهجا واحدا في كلّ هذه القضايا حيث ينطلق بعرض ما اتّفقت عليه الأمّة، ثمّ يتعرّض للفرق الّتي نقضت هذا الإجماع وهي: المجسّمة، والمشبهة، والمعتزلة، والمجبرة، والمرجئة، والحشويّة، والشّكاك، والجهميّة، والرّافضة، والصّفريّة، والمزيلة. ثمّ يردّ عليها فرقة فرقة مبيّنا موقف الإباضيّة منها، مدعّما ذلك بالقرآن الكريم والحديث الشّريف. كما لا يغفل عن الرّدّ على الملحدين والدّهريّة والثّنويّة والمجوس.

جاء الكتاب في لغة خالية من التّعقيد، يغلب عليه الاختصار واللّهجة الجدليّة (البعد ص ١٤٠ - ١٤١).

ونظرا لأهمّية هذا الكتاب عند الإباضيّة فقد شرحه كلّ من أبي ستّه المحشّي (١٠٨٨ - ١٦٧٩) خ بمكتبة محمّد مطهري. ويوسف المصعبي (١١٨٨ - ١٧٧٤) حقّقه حمّوالشّيهاني ماجستير بجامعة محمّد الخامس مرقون. وعمروالتّلاتي (١١٨٧ - ١٧٧٣) وسمّى الشّرح: مرآة النّاظرين في أصول تبغورين خ البارونيّة. والمحمّد اطفيّش (١٣٣٢ - ١٩١٤) خ مكتبة القطب مزاب ومكتبة محمّد بابانومزاب: كما اختصره عمروالتّلاتي وسمّاه نخبة المتين من أصول تبغورين ط ضمن مجموع بعنوان العقيدة المباركة ص ١٤٤ - ١٦٨ الفجالة الجديدة القاهرة.

٢- **كتاب الجهالات أوالرّدّ على الجهالات**: لقد ألمّ تبغورين في هذا الكتاب بأهمّ قضايا أصول الدّين: الله تعالى وجوده وصفاته الذّاتيّة، كلام الله. اسماؤه، الأنبياء والرّسل. الملائكة الولاية والبراءة. ثمّ ألحّ على العلاقة بين الدّين والإسلام والتّوحيد معتمدا على العلاقة بين الخصوص والعموم أوالعكس. كما بيّن حكم الرّادين على الله ورسوله والكاذبين عليهما والمستحلّين لما حرّم الله وحكم من يدفع الإجماع.

كما وضّح مختلف معاني الكفر والشّرك والنّفاق ومقابلتها للإيمان وحدّد أيضا ما لا يسع جهله وما يسع جهله.

وقد انطلق المؤلّف للنّظر في هذه القضايا من السّؤال التّالي: « ما دليلك على أنّك مخلوق؟ » ثمّ تدرّج من المخلوق إلى الخالق.

منهج الكتاب تعليميّي وفّر الحجج للمناظرة عن آراء الإباضيّة وقد ختم الكتاب بفصل سمّي كتاب الدّلائل نسبه أبو عمّار عبد الكافي (قبل ٥٧٠ - ١١٧٤) إلى غير تبغورين. ومحوره المطالبة بالتّدليل على صفات الله تعالى مثل العلم والقدرة...

والتّحليل الدّاخلي للنّص يجعلنا نرجّح أنّ الكتاب تداولت على تأليفه عدّة أقلام يصعب التّعرف على أصحابها. خ بالبارونيّة ٣٥ صفحة. نسخ سعيد بن عبد الله الباروني.

شرحه أبو عمّار عبد الكافي وحقّق الشّرح عمر ونيّس دكتوراه المرحلة الثّالثة بالكلّية الزّيتونيّة للشّريعة وأصول الدّين ١٩٨٦، مرقون.

٣- كتاب الأدلّة والبيان في أصول الفقه خ من نسخة مصوّرة بمكتبة مصطفى باجو القرارة.

عن المصادر والمراجع معجم أعلام الإباضيّة عدد ٢٢١.

# أبو عمرو عثمان بن خليفة الميرغني السّوفي

## (١٢/٦)

السّوفي نسبة إلى « سوف » أو« أسوف » أو« وادي سوف » أو« بلاد سوف » إنّها تقابل وادي سوف حاليا جنوب شرقيّ بلاد الجزائر بمدينتها العامرة سوف.

يذكر إبراهيم بحّاز أنّه توجد « إشارة إلى بلاد سوف في الاستبصار إذ يذكر أنّ آخر بلاد الجريد مدينة درجين، وبالقرب منها بلد سوف، ولا يضيف شيئا أكثر من هذا (الدّولة الرّستميّة ١٥٤).

كما يعتبرها من الواحات الّتي كانت تابعة للدّولة الرّستميّة (قسطيليّة. وادي سوف. وادي ريغ، وارجلان)، وهي تشكّل شريطا عموديّا في الصّحراء الكبرى الشّرقيّة، على الحدود الجزائريّة اللّيبيّة التّونسيّة حاليّا، مع انقطاع في ما بينها بسيط إذ لم تكن سلسلة متواصلة » (١٥٢)

وسوف من المناطق الّتي أحياها الرّستميّون بواسطة أتباعهم من الإباضيّة، فغرسوا فيها النّخيل واهتمّوا بالتّمور وأجروا المياه » (١٥٤).

وقد عرفت رخاء اقتصاديّا وازدهارا ثقافيّا زمن الرّستميّين ثمّ استمرّ بعدهم هذا الازدهار يتراوح بين المدّ والجزر إلى أن تبوّأت مع أريغ المنزلة العليا في القرن الخامس/ ١١ بعد أفول نجم قسطيليّة بعد ثورتي أبي يزيد(٣٢٦ - ٩٣٨) وأبي خزر (٣٥٨/ ٩٦٨).

وقد جمع الوسياني في سيره الّذي بناه على أساس الجمع بين أخبار علماء البلدان بين أسوف وأريغ وخصّص لهما ٤٠ صفحة مرقونة. كما ورد ذكر أسوف عشرات المرّات في كتاب السّيرة والطّبقات وسير الشّماخي بداية من الحديث عن أبي نوح مرورا بأبي عبد الله (٤٤٠ - ١٠٤٩) وتلاميذه وصولا إلى أبي عمروعثمان السّوفي، وإنّه بحقّ ينسحب عليها من الأحوال ما ينسحب على وادي أريغ (راجع ترجمة تبغورين بن عيسى) إذ مثّل الواديان المرحلة الانتقاليّة بين تراجع قسطيلة (ق ٤- ١٠) وبين ازدهار وارجلان (٦ - ١٢).

فهذا أحد المشائخ يشهد أنّ أبا نوح سعيد بن زنغيل توجّه من قنطرارة نحوأسوف. فلمّا وصل إليها اجتمع مع من بها من أهل الدّعوة، فوفّوا له ما قدروا عليه. (السّيرة ٢٣١) وهذا بعد أن استأمنه أبو تميم وقرّر البقاء في بلاد المغرب ليثبت أهل الدّعوة، ونعلم من سيرته أنّه ظلّ لا يستقرّ في موطن رغبة في كثرة الإفادة. وهؤلاء أهل أسوف يستقبلونه أحسن استقبال ويكرّمونه أيّما إكرام فينشر علمه بينهم وهو في أحسن حال.

كما أنّ تلميذه أبا عبد الله محمّد بن بكر سلك نفس المسلك في التّنقّل بحلقة الطّلبة في ربوع الإباضيّة وقد نالت سوف نصيبها إذ يذكر ماكسن بن الخير، رضي الله عنه، أنّه قال: أبو الرّبيع سليمان بن يخلف (٤٧١ - ١٠٧٩): « توجّهت من طرابلس قاصدا إلى أبي عبد الله محمّد بن بكر، فالتقيت معه في أسوف يريد الوصول إلى

طرابلس. فقال لنا: لا تكثروا ولا تضيق صدوركم فإنّي إن شاء الله راجع على أثري » (سيرة ٣٢٩).

كما أنّ الدّرجيني يروي أنّ تلاميذ أبي الرّبيع يفدون إليه من كلّ جهات الإباضيّة (من أهل سوف، وأريغ، ووارجلان، ومزاب، وقسطيليّة) فجعل سوف على رأس هذه البلدان (طبقات ٢ / ٤٨٢).

وهذا أبو الرّبيع نفسه يحطّ الرّحال أحيانا في سوف وإن كان مستقرّه في تمولست (الجنوب التّونسيّ حاليّا) ويمنع من كان معه من الاستعجال في الخروج منه ويقول: « اصبروا حتّى يأتي قوم يريدون مرادكم ». فمكثوا في أسوف ما شاء الله (سيرة ٢٧٢).

كما أنّ عبد السّلام بن منظور هوالآخر « شخص بأهله من القلعة إلى أسوف » (سيرة ٣٠٥) وذلك سنة (٤٤٠ - ١٠٤٩) حين حدث هجوم على القلعة. فكان وادي أسوف حينئذ خير ملاذ وإن كان مؤقّتا إذ انتقل بعد ذلك إلى آجلو بأريغ حيث أكرم أيّما إكرام (سيرة ٣٠٥).

فلا شكّ إذن أنّه كان لمثل هذه التّنقّلات من أجل نشر العلم وتثبيت أهل الدّعوة الأثر الفعّال في محيط وادي سوف الّذي نشأ فيه أبو عمروعثمان بن خليفة السّوفي فماذا عن حياته وشيوخه وتلاميذه وأعماله ومؤلّفاته؟.

**حياة أبي عمرو**: إنّ الأخبار عن حياة أبي عمروضنينة جدّا، وغاية ما نعلم أنّه عاش مخضرما بين القرن الخامس والسّادس ١١ و١٢ في ربوع وادي سوف ووارجلان وأنّه لم يدرك أبا عبد الله محمّد بن بكر وإنّما أخذ عن تلاميذه.

وندرك من خبر رواه الدّرجيني ثمّ نقله عنه الشّمّاخي أنّ أكثر تلقّيه العلم كان بوارجلان: « وقال عثمان: خرجت من وارجلان أريد ناحيته بلادنا (سوف) فخرج معي أيّوب بن إسماعيل وموسى بن عليّ يَرْدَعَانِي فقال لي أيّوب: « يا عثمان العلم والوطوطة لا يجتمعان ». وقال لي موسى: « الحجر المتقلّب لا يثبت على بناء ». فرأيت ما أشارا به هوالصّواب. (طبقات ٢ / ٤٨٤ - ٤٨٥).

وفعلا هاتان النّصيحتان دفعتا عثمان إلى الصّبر على طلب العلم، ممّا جعل الشّمّاخي يشهد له بأنّه « كان إماما في العلوم لا سيّما الكلام » (سير ٤٤٠).

ولا نشكّ من خلال ما نعرف عن سير أهل الاستقامة أنّ أبا عمرو ظلّ يسعى إلى حلقات العلم حيثما كانت وتذكر المصادر أنّه أخذ عن أبي العبّاس أحمد بن بكر (٥٠٤ - ١١١٠) وأبي الرّبيع سليمان بن يخلف (٤٧١ - ١٠٧٨)، وأبي سليمان أيّوب بن إسماعيل المذكور آنفا، والأخبار تثبت غزارة علم أبي العبّاس وأبي الرّبيع من خلال ما نعرف من كتب **الأوّل** الخمسة وعشرين ومن خلال كتاب **الثّاني** الموسوم بالتّحف المخزونة وهي تآليف جمعت بين مختلف علوم الشّريعة وأبرزها هنا علم الكلام وعلم الفقه.

وما أن حصل على هذا الرّصيد الوافر من العلم حتّى صار ممّن يشار إليهم بالبنان في مدينة وارجلان الّتي ستزدان برفاق له كان لهم شأن عظيم في المدرسة الإباضيّة الّتي بلغت بهم أوجها وهم أبو عمّار عبد الكافي (قبل ٥٧٠ - ١١٧٤) وأبو يعقوب يوسف الوارجلاني (٥٧٠ - ١١٧٤) وأبو يعقوب يوسف بن خلفون (ق ٦ - ١٢) (انظر تعريف وارجلان مع ترجمة أبي عمّار).

ولم يكن أبو عمرو ليستقرّ في وارجلان، ولكنّه هوالآخر كان ينتقل في أطراف المحيط الإباضيّ لتثبيت أهل الدّعوة، وها نحن نجده في حامّة قسطيليّة « فأراد أن يذاكر من هناك من أهل المذهب بما يثبّتهم في الدّين، ويمسّكهم في عقائدهم على يقين » (طبقات ٢ / ٤٨٣). ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان فاحتال عليه المخالفون وهم على يقين أنهم لا قبل لهم على مقارعته بالحجّة فاستفتوه استفتاء الماكرين في شأن جواز زواج الإباضيّ بالمالكيّة فلمّا أجاب بأنّه إن جاز الزّواج بالكتابيّة فمن باب أولى الزّواج بالمخالفة في المذهب، فاعتبروا أنّه يقارن المالكيّة بأهل الكتاب - وكان الأمر مبيّتا - وانهالوا عليه وعلى من معه ضربا ثمّ أطردوا من الحامّة من بقي من أهل الدّعوة.(الشّماخي ٤٤١)

وإن كانت قسطيليّة في حالة إدبار فإنّ وارجلان كانت في حالة ازدهار وبها كانت له كما يقول الشّماخي « مناظرات مع المخالفين وفي كلّ ذلك يفحمهم ويبكتهم » (٤٤١).

وتذكر المصادر أنّه تتلمذ عليه كلّ من المعزّ بن جنّاو ابن الفتوح الّذي عرض عليه كتاب السّؤالات لأبي عمروفصحّحه، وأبي موسى عيسى بن عيسى النّفوسيّ، وميمون التّكنيصي الورغمي.

**مؤلّفاته:** يقول الشّماخي: « وله من التّآليف كتاب السّؤالات، وهو تأليف مفيد أظهر فيه منزلته من العلم » (٤٤١).

ويذكر النّامي ما يلي:« ويورد الشّماخي ملاحظات أخرى حول كتاب السّؤالات لا بأس بإيرادها هنا لأنّها تصوّر لنا من ألوان التّآليف المعروفة عند علماء هذه الدّيار (وارجلان)، قال الشّماخي: وأبو موسى عيسى بن عيسى النّفوسيّ هو الّذي ألّف (جمع) كتاب السّؤالات الّتي رويت عن أبي عمرو عثمان بن خليفة إملاء الشّيخ أبي يعقوب يوسف بن محمّد، وعرض الكتاب على الشّيخ أبي صالح نوح بن الشّيخ إبراهيم، وعلى الشّيخ المعزّ بن جنّاو(من أئمّة الكلام واللّغة والفقه)» (٥٢٤ - ٥٢٩) وقد نسخ الشّماخي هذه المعلومات من كتاب السّؤالات كما سنبيّن ذلك.

وكتاب السّؤالات مزيج من البحوث الكلاميّة واللّغويّة غاية في التّحقيق والتّفصيل، وتوجد منه مخطوطات عديدة في جبل نفوسة وجربة ومزاب وعمان، وعليه شروح وحواش للمتأخّرين. (مقال: ملامح عن الحركة العلميّة بوارجلان. مجلّة الأصالة الجزائريّة السّنة السّادسة فيفري مارس. ١٩٧٧ العدد ٤٢/٤٣ ص ١٤-٣٥.

وأملك صورة من كتاب السّؤالات عن مكتبة الهادي بوشدّاخ فاتوجربة. عدد صفحاتها ٢٧٧ بكلّ صفحة ٢٤ سطرا نسخها عبد الله بن سليمان بن يحيى بن عيسى النّفوسيّ في ٧ شوّال ١١٨٤ - ٢٥ جانفي ١٧٧١ بخطّ مغربيّ واضح.

إنّ نزعة هذا الكتاب تعليميّة وهوروايات عن الشّيخ أبي عمروالسّوفي. وعدد السّؤالات سبعة وتسعون سؤالا.

مع العلم أنّ الاستفادة من هذا الكتاب تحتاج إلى صبر طويل لأنّه خال من التّبويب المنطقيّ المتكامل لكنّه كشكول في أصول الدّين وأصول والفقه واللّغة والسّير والأخلاق.

إنّه بحقّ يصوّر واقع الإباضيّة في القرن السّادس/ ١٢وكيف أنّ سقوط إمامتهم لم يفتّ في جهدهم الثّقافيّ بفضل إقامتهم لنظام الحلقة أساس مسلك الكتمان والتّنظيم الدّاخليّ لتثبيت الكيان والحفاظ على الهويّة.

ويبدأ الكتاب كما يلي: بسم الله الرّحمان الرّحيم وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما. كتاب سؤالات الشّيخ أبي عثمان بن خليفة السّوفي رحمه الله وأسكنه فسيح جنّته.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (٦ الأنعام).

باب في فضل بسم الله الرّحمان الرّحيم.

قال النّبيّ ﷺ لجابر بن عبد الله: كيف تفتتح الصّلاة يا جابر؟ «. قال: بالحمد لله ربّ العالمين ». « قال: قل بسم الله الرّحمن الرّحيم ».

قال أبو هريرة عن النّبيّ ﷺ قال: « أتاني جبريل عليه السّلام فعلّمني الصّلاة فقرأ بسم الله الرّحمان الرّحيم فجهر بها. »

ونجد داخل هذا الباب فصلين يمتدّان إلى ص ٧.

فصل في إعرابه (اسم) ومعناه (البسملة) ٣ - ٤.

فصل في: « ومن سألنا في أسماء الله وصفاته ٤ - ٧ ثمّ يأتي السّؤال الأوّل: عن الشّيخ أبي عمروعثمان بن خليفة المارغني رحمه الله، وزيادات من سماع عنه عن بعض تلاميذه رحمة الله عليهم: إن سأل سائل: ما دليلك على أنّك مخلوق » ص ٧.

وقد ورد لتعريف الكتاب من حيث الرّواية ما يلي: « وحكى عيسى بن حمدان عن إسماعيل بن الميغر (كذا) عن أبي زكريّاء يحيى بن أبي بكر... » (وأبو زكريّاء هوصاحب كتاب السّيرة وأخبار الأئمّة) ص ٥.

« عن أبي عمروعن أبي محمّد رحمه الله، فافهم رحمك الله سؤال الشّيخ أبي عمرورحمه الله، وقد عرض على عدد من تلاميذه، وعلى كتب الشّيوخ رحمهم الله، فصحّ.

فهوالأمّ إن شاء الله عرض عرضتين:

١. على الشّيخ أبي محمّد بن سجميمان والميغر (كذا) ابن جناو وأبي الفتوح.

٢. على الشّيخ أبي نوح صالح بن الشّيخ إبراهيم رحمة الله عليهم.

أملاه أبو يعقوب يوسف بن محمّد وألّفه (جمعه) عيسى ابن عيسى النّفوسيّ وزاد فيه بعض طالبي الأجر.

وكلّ ذلك عن الشّيخ أبي عمرو، وعن تلاميذ الشّيخ أبي الرّبيع سليمان بن يخلف عن أبي الرّبيع سليمان بن يخلف رحمة الله عليهم. » ص ٧.

وبعد هذا الباب انطلق في طرح الأسئلة بدون ترقيم، نكتفي بذكر ثلاثة منها على سبيل المثال:

السّؤال عدد ٤٦: ما حدّ التّكليف؟ ص ١١٩.

السّؤال عدد ٦٨: ومن طلّق امرأته ثلاثا؟ ص ١٩١.

سؤال التّمام عدد ٩٧ فإن قال قائل ما الحكم في دار الشّرك؟ فقل ثلاثة أوجه. ص ٢٧٥.

ويقول الشّماخي أيضا: « وله غيرها من التّآليف » (٤٤١) وتوجد من هذه التّآليف رسالة مختصرة بعنوان: « في بيان كلّ فرقة » طبعت في الجزائر ضمن مجموع بدون تاريخ ص ٥٣ - ٧٠. وحقّقها تحقيقا مفيدا عامر ونيّس ونشرها بمجلّة جامعة الزّيتونة عدد. ٣. ١٤١٤ - ١٤١٥ - ١٩٩٤.

ثمّ طبعها طبعة مستقلّة بدار الجّويني للنّشر. دت. بعنوان: رسالة في فرق النّكار السّتّ وما زاغت به عن الحقّ، وبعض الفرق الأخرى. ١٧٣ صفحة وهذه الفرق هي: النّكار، النّفاثيّة، الخلفيّة. العمريّة والحسينيّة. السّكاكيّة. مع الفرق الأخرى الأزارقة. الجهميّة، النّجديّة، الصّفريّة. المرجئة، القدريّة، الجبريّة.

وتكمن أهميّتها رغم اختصارها في تعريفها للفرق الإباضيّة وإثبات مقالاتها كما أنّه ذكر فرقا إسلاميّة أخرى.

وقد استفاد من هذه الرّسالة لويسكي في مقاله عن الفرق الإباضيّة (STUDIA ISLAMICA ٩ , ٧١ – ٨٢ , ١٩٩) وعلي يحيى بن معمّر في كتابه: « الإباضيّة بين الفرق الإسلاميّة » (المطبعة العربيّة ط ٣ نشر جمعيّة التّراث ١٤٢٣ – ٢٠٠٣. ص ٣٢١ – ٣٥٤). والنّامي في « دراسات عن الإباضيّة » (دار الغرب الإسلاميّ ٢٠٠١) ص ١٩٢ – ٢١٩.

عن المراجع: معجم أعلام الإباضيّة: عدد ٦٢٠.

# الدّرجيني أبو العبّاس أحمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن يخلف

## (٦٠٤/ ٦٧٠ - ١٢٠٧/ ١٢٧١)

**أسرة الدّرجيني:** إنّها أسرة إباضيّة المذهب صاغرا عن كابر أمازيغيّة العرق، نفوسيّة الجذور ذلك أنّ أصلها من تميجار إحدى قرى جبل نفوسة الّذي كان منطلق الدّعوة الإباضيّة الأساس في بلاد المغرب.

الرّاجح أن جدّه الأعلى يخلف بن يخلف التّميجاري أوّل من نزح من جبل نفوسة عندما أفل نجمه في القرن الرّابع والخامس لما توالت عليه من نكبات في أواخر القرن الثّالث / ٩. ليستقرّ في مدينة نفطة في بلاد قسطيليّة الّتي عرفت أوج عزّها في القرن الرّابع / ١٠ مع أبي القاسم الحامّي وأبي خزر وأبي نوح ثمّ في القرن الخامس مع أبي عبد الله (٤٤٠ - ١٠٤٩) مؤسّس نظام الحلقة وتلاميذه كأبي العبّاس أحمد وأبي الرّبيع سليمان بن يخلف المزاتي.

وإذا اعتبرنا أنّ عمر الجيل ثلاثون سنة يكون نزوحه إلى نفطة في الرّبع الأخير من القرن الخامس/ ١١. إذ أربعة أجيال في الثّلاثين سنة يساوي مائة وعشرين سنة يعني في حدود (٤٨٠ - ١٠٨٨).

وقد أثبت الدّرجيني نفسه أنّ هذه الأجيال الأربعة من سلفه توارثت العلم عن بعضها البعض صاغرا عن كابر، فالدّار حينئذ دار علم بالمفهوم الإسلامي للعلم من قرآن وحديث وتفسير وأصول وفقه وما إلى ذلك من العلوم الإسلاميّة، إزاء ما

اشتهر به هؤلاء من قدرة على فنون الشّعر باللّغتين العربيّة، والأمازيغيّة، والملحون، ومن سيرة فاضلة، وورع، وتقوى.

ويكفي هذه الأسرة فضلا أنّ أحد أجدادها كان أوّل من أوصل الإسلام إلى مملكة مالي وذلك سنة (٥٧٥-١١٨٠) وهوجدّ أبيه علي بن يخلف وقد أورد الدّرجيني نفسه أخبار هؤلاء السّلف في آخر كتاب الطّبقات (٢/ ٥١٣-٥٢٢).

أمّا جدّه سليمان فقد كان مفتي بلدة كنومة بقسطيليّة إذ كان بارعا في علم الفرائض، كما كان شديد السّخاء فلم يزل مبسوط اليد فيه (ماله الوافر) حتّى أنفذه، ولم يبق لنفسه غير دويرة وبساتين (طبقات ٢/ ٥١٩). وقد تناقل النّاس عنه عديدا من الكرامات. (٥٢١).

وأمّا أبوه سعيد فقد استقرّ في درجين السّفلى الجديدة (انظر باجيّة، الإباضيّة بالجريد: ١٩٥)، وبها ولد الدّرجيني وإليها ينسب، وقد روى الدّرجيني عن أبيه عديدا من الأخبار تبيّن أنّه ثبت في معرفة أخبار إباضيّة ذلك العصر.

**مراحل حياة الدّرجيني: في درجين:** وإن دفن جدّ أبي العبّاس بكنومة تلك البلدة الّتي يغلب عليها النكّار وقد فتنوه في ماله وجسده لكنّه صبر على أذاهم فإنّنا نجد والده سعيد يستقرّ بدرجين السّفلى الجديدة لأنّها يغلب عليها الوهبيّة وهي الفرقة الإباضيّة الّتي ينتمي إليها الدّرجيني حفاظا على مذهبه وعقيدة أولاده.

في ربوع هذا المحيط نشأ أبو العبّاس في كنف والده الّذي كان يناضل مع القلّة الباقية في هذه الرّبوع أمام الأكثريّة المالكيّة الغالبة، ومعلوم ما لمثل هذه الأقليّات من

حرص شديد على نقل الأخبار والحفاظ على المبادئ الّتي نشأوا عليها، وهم يحسّون أنّها في طريق التّلاشي والذّوبان.

إنّها اثنتا عشرة سنة قضّاها كما هوشأن المحيط الإسلامي عادة في حفظ القرآن الكريم وسنّة المصطفى عليه السّلام ومتون العقيدة واللّغة، وهنالك بدأت تتفتّق قريحته الشّعريّة الأدبيّة، وقد ظلّت بلاد قسطيليّة (الجريد التّونسي حاليّا ٢٠٠٤) منبع الشّعراء والأدباء إلى يومنا هذا، أليس هوالّذي يروي عن أبيه أنّه كان يمتنع عن رواية شعر أبيه ويقول لابنه أحمد « أنا أشعر من أبي وأنت أشعر مني » (طبقات ٢/ ٥٢١).

ولمّا تبيّن والده ما عليه أحمد من نجابة ورغبة في طلب العلم أرسله إلى وارجلان وقد كانت تزخر بتلاميذ الجيل الّذي ملأ الدّنيا علما في القرن السّادس/ ١٢. من أمثال أبي زكريّاء وأبي عمار وأبي يعقوب.

**في وارجلان:** ينقل البرّادي عن أبي العبّاس ما يلي: «... وذلك أنّي دخلت حلقة وارجلان حرسها الله تعالى سنة ستّ عشرة وستمائة ٦١٦ - ١٢١٩ في ربيع الآخر منها في أوّل ما وجب عليّ الصّوم والبال خال من الهمّ، وكنت أعجب ممّن ينفرد فلا يجتهد، ومن يخلوبالمفيد كيف لا يستفيد، وكان لي إذّاك فهم أزرى بذلك الآن شغل البال وتغيّر الأحوال... وأقمت بوارجلان حولين كاملين وشهرين » (الجواهر ٢١٥ - ٢١٦).

بهذا ندرك يقينا أنّه رجع إلى درجين ليصوم شهر رمضان المعظّم ٦١٨ - ١٢٢١ مع أهله وذويه بعد أن قضّى هذه المدّة وهي ليست بالطّويلة بالنّسبة إلى طلب

العلم - بعد أن نهل من معارف علماء وارجلان ومكتباتها بجدّ منقطع النّظير كما يشهد هوبذلك « وكنت أعجب ممّن ينفرد فلا يجتهد ».

وكان بذلك قرّة عين والده الّذي كان يحظّه على الجدّ والاجتهاد قولا ونثرا وشعرا ومن ذلك هذه الأبيات: [طويل]

مضت سنةٌ واستقبلتُ بعدها أخرى

فياليت شعري ما تجيءُ به البشرى

... فحاسِبْ أبا العبّاس نفسَك، جاهدا

وناقشْ ولا تنسَ الصّغيرةَ والكبرى

ألا فانتَهِزها يا أُحَيْمِدُ فرصةً

فمَن لك دأبا في استِقامتِها دَهْرا

... فما عذرُ من أستاذُه فذُّ عصرِه

« أبو سهل » الحبرُ الّذي قد علاَ فخرا

... به «ورقلا » تزْهو جَمَالا وبَهْجَة

به أشرقَتْ نورا، به ابتَسَمتْ فخرا

(طبقات ١/ ك. ل تقديم بكلي عبد الرحمان (١٤٠٦/ ١٩٨٦).

مضى قرابة النّصف قرن على وفاة أبي يعقوب الوارجلاني (٥٧٠/ ١١٧٤) رمز العصر الذّهبي لوارجلان وما تزال حلقات العلم قائمة أحسن قيام، وكما تشير قصيدة والده أبي العبّاس إلى أنّ واسطة العقد هو أبو سهل يحيى بن إبراهيم ابن

سليمان بن إبراهيم بن ويجمن الوارجلاني، وقد عدّه الدّرجيني من علماء الخمسين الأولى من المائة السّابعة «... فمن الأموات... أبو سهل يحيى...» (قواعد ج ١/ ١١)، وأكدّ البرادي أنّه شيخ الدّرجيني: « والمحصول من اختلافهم ما ذكر الشّيخ أبو سهل الوارجلاني أستاذ الشّيخ أبي العبّاس مؤلّف كتابنا في هذا العلم في العقيدة » (الجواهر ٩) ويشير بهذا إلى كتاب أبي سهل الموسوم بـ « العقيدة في علم التّوحيد والسّير » وقد حقّقه تحقيقا أوّليّا بيار كوبرلي [P. Cuperly] في ملحق أطروحته

Introduction à l'étude de l'ibâdisme Algérie ٩١ p. ٩٣-١٢٠.

ومن يعرف ما تمتاز به حلقات العزّابة من عطاء علمي وتربوي خاصّة عندما يشرف عليها شيخ قدير من أمثال أبي سهل - وهوالغوث - يدرك ما جناه أبو العبّاس من زاد علمي على صغر سنّه وهولم يدرك بعد الخامسة عشرة من عمره، دون أن نغفل عن أن أباه قد أوصى به هذا الشّيخ القدير.

وبرنامج مثل هذا الحلقات وضّحه أبو العبّاس في طبقاته ونقله عنه الشمّاخي ثمّ صاغه معمّر صياغة تربويّة لطيفة (الإباضيّة في موكب التّاريخ قسم ٢، ١٣٧/ ١٤٧) وصغته في كتاب نظام العزّابة صياغة علميّة دقيقة موثّقة.

**في بلاد الجريد:** بعد هذه الرّحلة الأولى في طلب العلم يضن علينا الدّرجيني بأخبار حياته - وذلك تواضع مألوف عن جلّ العلماء - فغاية ما نعرف أنّنا نجد من خلال خبر يرويه في كتاب الطّبقات أنّه كان في توزر سنة (٦٣٣ - ١٢٣٦) ينقل

الخبر التّالي: « ولقد حدّثني رجل من لمتونة يعرف بابن القابلة ورد توزر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة قال...»

فأين قضّى هذه السّنوات من رجوعه من وارجلان سنة ٦١٨ - ١٢٢١ وهي خمسة عشر عاما؟ يعتبر لويكي أنّه يكمل العمل على مؤلّفاته التّاريخيّة (المؤرّخون الإباضيّون دار الغرب الإسلامي ٥٣) لكنّه اعتبار لا يثبت عند التّمحيص، فمتى بدأ حتّى يكمل وهوما زال في الخامسة عشرة من عمره على أقصى تقدير عندما رجع من وارجلان.

والسّؤال المطروح هل بدأ في العمل التّاريخي قبل الرّحلة إلى جربة أوبعدها؟ المؤكّد أنّه بدأ بعدها إذ يثبت البرّادي أنّه كتب كتاب الطّبقات نزولا عند رغبة عزّابة جربة (الجواهر ١١).

لذلك نرجّح أنّ الدّرجيني عاد إلى بلاد الجريد حيث بدأت الإباضيّة تلفظ أنفاسها، وفي الأثناء بلغه خبر تخريب الميورقي لمدينة وارجلان الّتي قضى فيها أجمل أيّام التعلّم (سنة ٦٢٧ - ١٢٢٩).

وفي تصوّرنا أنّه حاول مع أبيه ومن في محيطهم ممّن بقي أن يتداركوا ما يمكن أن يتدارك بين التّعليم والحفاظ على ما تجمّع لديهم من كتب عبر أكثر من قرن من الزّمن يتوارث فيها العلم الصّاغر عن الكابر.

والرّجل من القدرة البلاغيّة بمكان والموهبة الشّعريّة أكثر، ذلك أنّ قريحته تفتّقت قبل أن يدرك سنّ البلوغ (الشمّاخي:٤٦١).

كلّ هذا مع ما علمنا عن ذكائه الّذي يجعله يتبوّأ مكانة عالية في فنون العلوم الإسلاميّة ستتجلّى في كتابه الطّبقات.

**في جزيرة جربة:** ويقرّ لويكي اعتمادا على البرّادي أنّ الدّرجيني سكن لبعض الوقت في جزيرة جربة حيث احترمه العزّابة احتراما كبيرا بسبب معرفته العميقة باللّغة والأدب والتّاريخ (المؤرّخون ٥٣ - ٥٤).

وإن لم نجد أيّ تفصيل عن هذه الإقامة بجزيرة جربة فإنّها كانت على الرّاجح. في النّصف الأوّل من القرن السّابع - ١٣ زمن تحوّل الرّئاسة من أسرة أبي مسور إلى الصّدغياني والمغراوي، ومن الجامع الكبير إلى جامع تاجديت حيث كان الإشراف العام لأبي محمّد عبد الله الصّدغياني والتّدريس لصالح ابن نجم المغراوي (نظام ٢٠٣ - ٢٠٤).

المهمّ أنّ هذه الإقامة مكّنته من سمعة طيّبة عند العزّابة دفعتهم إلى انتدابه لتأليف كتاب الطّبقات.

**في درجين وتأليف كتاب الطّبقات:** يرجع الدّرجيني ليستقرّ نهائيّا في بلاد الجريد فتناط به عهدة كان لها الأثر الفعّال في تاريخ الإباضيّة بالمشرق والمغرب خاصّة، ويرجّح أنّ ذلك كان بعد (٦٥٠ - ١٢٥١).

يقول الدّرجيني في مقدّمة كتابه: « وقد سأل من وجبت طاعته ولم يسع إهمال أمره وإساءة طاعته أن أجمع من سير أسلافنا وأخبارهم ما تيسّر لي جمعه، وأضع في ذلك تصنيفا... » (٢).

وأثناء شرح البرّادي لهذه المقدّمة عند تصنيفه لكتاب « **الجواهر المنتقاة لما أخلّ به كتاب الطّبقات** » قال: (وقد سأل من وجبت طاعته) ذكر لي بعض العزّابة أنّ سبب تأليف أبي العبّاس هذا الكتاب لمّا وصل الحاج عيسى بن زكرياء من بلاد عمان بما معه من الكتب الّتي ورد بها أرض المغرب كَحِلِّ ابن وصّاف، وجامع الشّيخ أبي الحسن (البسيوي)، وجامع ابن جعفر (وهي كتب مطبوعة اليوم)، وغيره، فكان ممّا رغب إليه فيه إخوانه أن قالوا: « وجّهوا لنا كتابا يتضمّن سير أوائلنا، ومناقب أسلافنا من أهل المغرب، من لدن وقع فيه مذهبنا إلى هلمّ جرّا، فإنّه قد عميت علينا أنباؤهم، وغابت عنّا آثارهم من بعد الشّقّة ».

فشاور من بجربة يومئذ من العزّابة والفقهاء، ومن يشار بالبنان إليه من الحذّاق والنّبهاء، وقرّر طلبة إخوانهم إليهم، ووصف لهم الكتاب المشروط عليهم، فنظروا في كتاب الشّيخ أبي زكرياء بن أبي بكر (٤٧٤ - ١٠٨١) فوجدوه مخلاّ ببعض التّفصيل، قاصرا دون أمد التّحصيل، مع أنّ لسان البربريّة أورد ألفاظه موارد التّكلف، وقلّة تحفّظه على قوانين العربيّة أدخل ببعض معانيه مجاهل التعسّف، فاهتمّوا بتصنيف كتاب يشتمل على سير الدّولة الرّستميّة، ومناقب الأسلاف كما طلب ذلك إليهم، فلم يروا أهلا لهذا التّصنيف غير أبي العبّاس الدّرجيني، فعندها طلبه الحاج المذكور، وهوالسّائل الّذي وجبت طاعته، والله أعلم إن وصل الكتاب إلى عمان أم لا (١١).

هذه قصّة كتاب الطّبقات تعاون مثمر بين إباضيّة المشرق وإباضيّة المغرب، تراث عظيم يوضع بين يدي أبي العبّاس، وياليت البرّادي عدّد هذه الكتب الّتي

وصلت من عمان وهوبذلك قدير، وإن كان تدارك ذلك في ما أثبته في آخر الكتاب من ثبت لمؤلّفات الإباضيّة المشرقيّة والمغربيّة كان وما يزال الملجأ الأساس للتّعرّف على مؤلّفات الإباضيّة الموجودة منها والمفقودة.

ولا أراني مضطرا أن أطيل في التّعريف بكتاب طبقات المشائخ بالمغرب فهواليوم مطبوع في متناول كلّ باحث.

يتضمّن الكتاب جزأين: الجزأ الأوّل ٢٠٠ ص يكاد يكون صياغة جديدة لكتاب السّيرة وأخبار الأئمّة لأبي زكرياء، والجزء الثّاني ٣٤٦ صفحة عدّد أسماء مشائخ الإباضيّة حسب طبقاتهم مخصّصا لكلّ طبقة نصف قرن. فالمجموع اثنتا عشرة طبقة آخرتها من ٥٥٠ - ٦٠٠. وكانت الطّبقات الأولى الأربع من نصيب مشائخ المشرق والبقيّة لمشائخ المغرب. مع الملاحظ أنّ الدّرجيني التزم بأن يقدم لسيرة كلّ شيخ بمقدمة تتميّز بأسلوب أدبي راق يرسم فيها أهمّ سمات ذلك الشّيخ الخلقيّة والعلميّة والأدبيّة والاجتماعيّة.

ولم يتردّد في نقل عديد من الوثائق التّاريخيّة المفيدة،والنّوادر الطّريفة مع تصدير الكتاب بلمحة دقيقة عن جملة من مصطلحات إباضيّة المغرب في شأن نظام الحلقة.

ويكفي القول بأنّ كتاب الطّبقات وثيقة لا يمكن لأيّ باحث في أخبار إباضيّة المغرب أن يستغني عنها.

وهذا النّصّ المطبوع اعتنى بتخريجه إبراهيم طلاّي من أساتذة وادي ميزاب وشيوخها اعتمادا على مخطوطين تحرّى فيه الأمانة العلميّة بقدر الإمكان، دبّج حواشيه

بعناوين لجميع فقراته، وأردفه بفهرس للأعلام، وآخر للأماكن، ممّا يسّر الاستفادة تيسيرا مقبولا، ودعا المجدّين إلى تحقيقه تحقيقا علميّا يليق بقيمته التّاريخيّة الفذّة، وقدّم له عبد الرّحمان بكلّي شيخ حلقة بلدة برّيّان بميزاب في زمانه ومفتي المزابيّين، وقد ترجم للدّرجيني في هذا التّقديم ترجمة طريفة استفدنا منها لإعداد هذا العمل.

وقد اعتنى بهذا النّصّ والتّعريف به كلّ من سمقرفسكي (L. Smougvrzwski) وموتيلنسكي (A. Motylinski)، ولويسكي (T. Lewiski) خاصّة من المستشرقين، كما قدّم حوله الحبيب الجنحاني - أستاذ جامعي تونسي - دراسة بعنوان: « كتاب طبقات المشائخ للدّرجيني مصدر للتّاريخ الاقتصادي والاجتماعي المغربي ضمن كتاب له بعنوان» دراسات في التّاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي ص ١٧٩ - ٢٠٢ ط دار الغرب الإسلامي ١٩٨٦، واعتمده اعتمادا كليّا صالح باجيّة - أستاذ جامعي تونسي أيضا - في كتابه الإباضيّة بالجريد وقد عرّف به وبصاحبه ص ٢٠٦ - ٢١١ ط تونس ١٩٧٦.

**بقيّة مؤلّفاته:** يقول الشمّاخي: « وله قصائد كثيرة وشعره فائق، وله أجوبة بالشّعر، وفي الألغاز ألغاز الفرائض جمع منها أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي (٧٥٠ - ١٣٥٠) في كتاب الفرائض والحساب جملة (والكتاب ط بالمطبعة البارونيّة بالقاهرة مع كتاب الجراحات ١٣٠٥ - ١٨٨٧)، وله ديوان فيه قصائد ذكر في بعضها أنّه أنشدها قبل البلوغ...» (٤٦٠ - ٤٦١).

**وفاته وضريحه:** لقد وثّق إبراهيم طلاّي على غلاف كتاب الطّبقات بـ ٦٧٠ - ١٢٧٠ وهوتاريخ معقول في رأينا لكن لسنا ندري على ما اعتمد في هذا الإثبات الدّقيق.

أمّا عن ضريحه بنفطة فيذكر باجيّة أنّه « يوجد بالصومعة وبأسفلها القوس الأوّل كتّاب (لتحفيظ القرآن الكريم). والقوس الثّاني... مسجد صغير للصّلوات الخمس... ملاصق لجبّانة قديمة جدّا أرجّح أن تكون جبّانة (قنطرار السّفلى) » (٢١٢) وقد حدّد هذا المكان بالخريطة ص ١٩٦.

وفي الأخير يمكن أن نقول إنّ الدّرجيني شاعر فقيه أديب فرضيّ مؤرّخ إباضي كان يمثّل ثقافة عصره، في بيئة أفل نجمها في بلاد الجريد خاصّة فظلّت حريصة على نقل ثقافة السّلف بكلّ أريحيّة لتأصيل الكيان والحفاظ عليه.

عن مراجع التّرجمة انظر معجم أعلام الإباضيّة عدد ٨١ مع إضافة صالح باجيّة: الإباضيّة بالجريد في العصور الإسلاميّة الأولى. دار بوسلامة للطّباعة والنّشر والتّوزيع تونس ١٣٩٦ - ١٩٧٦ والدّكتور الحبيب الجنحاني دراسات في التّاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي. دار الغرب الإسلامي ١٩٨٦.

# عمر بن جميع بن واسين اليهراسني

## (٦٤٥/٧٢٠ - ١٢٤٧/١٣٢٠)

ولد بحومة والغ بجزيرة جربة بالبلاد التّونسيّة، تنحدر أسرته من قبيلة بني يهراسن أويراسن وهي من كُبْرَيَات القبائل الّتي كانت تسكن الجنوب الشّرقيّ للمغرب الأدنى وقد كان لها الفضل في نشر المذهب الإباضيّ على المسلك الوهبيّ مع يسجا بن يوجين في جزيرة جربة.

هذه الجزيرة الّتي تتفق المصادر على أنّ الصّحابيّ رويفع ابن ثابت الأنصاريّ (٥٦ - ٦٧٦) فتحها سنة ٤٧ - ٦٦٧ لكنّها تبخل علينا بأخبار هذه الجزيرة في ما بقي من القرن الأوّل وفي قسم من القرن الثّاني إلى أن يذكر الشمّاخي أنّها كانت تابعة لإمامة الإمام عبد الوهّاب بن رستم (١٧١/ ٢٠٨ - ٧٨٧/ ٨٣٥): « وغيرها تحت ولايته وكذا جربة.» (سير: ١٦١). كما يذكر الدّرجيني أنّها خضعت لخلف بن السّمح أحد المنشقّين على والي الإمام عبد الوهّاب بجبل نفوسة بالبلاد اللّيبيّة وهوالّذي ينسب إليه الخليفة إحدى الفرق الإباضيّة ببلاد المغرب، كما انضمّ إليهم النّكار فصارت جربة خليفة نكّاريّة. (الدّرجيني: طبقات: ١/ ٨٦).

استطاع يسجا بن يوجين اليهراسني بمساعدة إباضيّة جبل نفوسة وجبال الحوايا وغيرهم أن ينشر المسلك الوهبيّ في مناطق من الجزيرة بفضل ما أوتي من

حكمة، وشيئا فشيئا تقاسمت هذه الفرق الإباضيّة جزيرة جربة فكان القسم الشّرقيّ للنّكار وقد اندمج فيهم الخليفة والبقيّة للوهبيّة (ر. الجّعبيري: نظام العزّابة. الخريطة).

لقد أرسى يسجا بن يوجين الّذي عرف فيما بعد بأبي مسور (تعني الأوّل بالأمازيغيّة) أسس حركة علميّة اجتماعيّة محورها مدرسة الجامع الكبير وتفرّعت عنها مدارس أخرى في أطراف الجزيرة.

من هذه المدارس مدرسة تيفروجين، ومدرسة التّالبي ومدرسة تاقومين وهي المدارس المجاورة لمسكن عمر بن جميع الكائن بحومة والغ القديمة أوالشّماليّة الّتي تقع شمال جزيرة جربة.

لم نعرف عن أسرة عمر بن جميع سوى ما ذكر من أنّها سليلة الأسرة المسوريّة المنحدرة من بني يهراسن.

لا شكّ أنّ عمر بن جميع كان ينتقل بين هذه المساجد الثّلاثة ليتلقّى ما يبث فيها من علوم الشّريعة وقد كانت عادة أهل الجزيرة أن يخصّصوا بعض المساجد لبعض فنون العلم (السّالمي: تحفة الأعيان ٢/ ٨٠)، لكن نرجّح أنّ مستقرّه كان بمسجد تيفروجين لأنّه كان أهمّها.

تذكر المصادر أنّ هذا المسجد أسّس في أواخر القرن الثّالث هجريّا - بداية العاشر ميلاديّا - ويبدوأنّه بقي مدرسة فرعيّة لتحفيظ القرآن الكريم ولتعليم العلوم الأوّليّة إلى أن سطع نجمه في القرن السّابع/ ١٣ حيث صار عمر بن جميع هذا أبرز

المدرّسين فيه. وقد استمرّت في أداء وظيفتها التّعليميّة إلى الثّلث الأوّل من القرن الرّابع عشر/ ٢٠. وقد ابتعد العمران عن هذا المسجد فهواليوم في حالة خراب يلفظ أنفاسه الأخيرة.

لم تذكر المصادر شيئا عن شيوخه في هذه المساجد ولكنّها ذكرت أنّه أخذ عن عبد الله الصّدغيّاني وصالح بن نجم المغاروي بمدرسة جامع تاجديت بحومة فاتوبجزيرة جربة وهي أقرب القرى إلى قريته والغ (الجّعبيري: نظام العزّابة)، ولا نستبعد أن يكون عمر بن جميع قد تردّد على ما كان يلقى من دروس في مدرسة الجامع الكبير تلك الّتي تفوّقت عليها مدرسة تاجديت، وسيعود إليها مجدها في القرن الثّامن/ ١٤ مع حلول الشّيخ إسماعيل الجيطالي بها (٧٥٠ - ١٣٤٩).

وكشأن طلبة العلم لم يكن عمر بن جميع ليكتفي بالتّلقي على أهل الجزيرة وإنّما قرّر الرّحلة إلى بلاد الجريد (قسطيليّة) تلك البلاد الّتي عرفت فيها الحركة العلميّة الإباضيّة ازدهارا كبيرا إلى أواخر القرن السّابع/ ١٣ ويكفي أنّها اشتهرت بأبي العبّاس أحمد الدّرجيني صاحب كتاب طبقات المشائخ بالمغرب (٦٧٠ - ١٢٧١).

ولا شكّ في أنّ قصّة تأليف كتابه الطّبقات معروفة لدى عمر بن جميع وإسناد علماء جربة هذه المهمّة للدّرجيني بعد أن وصل الحاج بن زكريّاء المسوريّ بأحمال الكتب من عُمان مع طلب علماء المشرق من الإباضيّة إخوانهم المغاربة لتدوين سيرهم وتحسين أسلوب كتاب السّيرة وأخبار الأئمّة لأبي زكريّاء الوارجلاني (ق ٥، ٦ - ١١ و١٢) (ط تحقيق عبد الرّحمان أيّوب تونس ١٩٨٥).

يعلم عمر بن جميع أنّ ببلاد الجريد تراثا إباضيّا زاخرا (الجّعبيري: عمر بن جميع. تونس ٢٠٠٠) وشيخا فاضلا فشدّ إليه الرّحال صحبة أخيه عيسى، ولم نعثر على أيّ تفصيل عن هذه الرّحلة في طلب العلم، لكن من المؤكّد أنّها كانت قبل وفاة الدّرجيني ٦٧٠ - ١٢٧٧ وقد يكون عمره في حدود الخامسة والعشرين، لذلك يمكن أن نقدّر أنّ ولادته في حدود ٦٤٥ - ١٢٤٧، وبعد هذه الرّحلة العلميّة تذكر المصادر أنّه صار كبير المدرّسين بجامع تيفروجين. يقول الشّماخي: « كان إماما مشهورا وكان بين العلماء منظورا » (السّير: ٥٦١)، ويذكر سعيد بن تعاريت أنّ عمر بن جميع صار كبير المدرّسين بجامع تيفروجين من جهة والغ القديمة (رسالة في تراجم علماء جربة خ بمكتبة الشّيخ سالم بن يعقوب ص ٥٤).

يثبت هذان النّصان أمرين أساسيّن:

**أوّلهما**: تضلع عمر بن جميع في علوم الشّريعة إذ هوإمام مشهور ذكرنا عن تعلّمه بجربة ورحلته إلى بلاد الجريد.

**وثانيهما**: توليّه التّدريس بالمدرسة الّتي تعلّم بها بل ارتقى إلى درجة كبير المدرّسين بها.

معنى ذلك أنّ الرّجل لم يكتف بجمع العلم، وإنّما عمل على بثّه في صدور الرّجال، وإن كان ملمّا بجميع فنون الشّريعة كشأن أهل عصره فإنّه كان متضلّعا أكثر في علم أصول الدّين إذ قد ترجم متنا في العقيدة من الأمازيغيّة إلى العربيّة صار عمدة

الفكر الإباضيّ العقديّ خاصّة في جربة وفي وادي مزاب معاضدا أخرى في نفس الجزالة بجبل نفوسة وعُمان.

وقد كان في كلّ ذلك يتعاون مع أخيه عيسى ومع مدرّسين آخرين لم تسعف المصادر بذكر أسمائهم. وقد واصل أخوه عيسى هذا أداء هذه الرّسالة في نفس الجامع.

وقد تتلمذ عليهما أبو الفاضل قاسم بن أيّوب الجنّاوني وأخوه يخلف بن أيّوب الجنّاوني. وقد واصلا التّدريس بهذه المدرسة إلى أواخر القرن التّاسع / ١٥ ليرفع راية التّدريس بعدهما فرع من فروع أسرة الباروني النّازح من جبل نفوسة، وسيتوارث هذا الفرع هذه المهمّة بمدرسة تيفروجين إلى سنة ١٣٣١ / ١٩١٣ مع الشّيخ أبي محمّد عبد الله الباروني.

وبما أنّ المصادر لا تذكر أنّ ابن جميع عمّر طويلا أومات صغير السّن فإنّنا نقدّر تاريخ وفاته في حدود ٧٢٠ - ١٣٢٠ وقبره معروف بروضة جامع تيفروجين والغ جربة.

عمر بن جميع وكتاب عقيدة التّوحيد: كنّا ننتظر من عمر ابن جميع بعدما تمكّن من الاطّلاع عليه من نصوص بجربة وبلاد الجريد أن يترك عدّة مؤلّفات لكن يبدوأنّ الرّجل اشتغل بالإصلاح الاجتماعيّ والتّدريس ولم يترك إلاّ كتابا واحدا مترجما عن الأمازيغيّة وهومتن عقيدة التّوحيد كان له من الأهميّة في الفكر الإباضيّ مشرقا ومغربا ما لا يتصوّر.

إنّ هذا النّص على اختصاره يطرح عديد الإشكاليّات يقول ابن جميع في مقدّمته: « وبعد فإنّي وجدتّ هذه النّكتة منسوخة بالبربريّة، في توحيد خالق البريّة، سألني من لا أردّ قوله، ولا أجهل فضله، أن أنقلها من لسان البربريّة إلى لسان العربيّة ... فأجبته إلى ما طلب ...» (عقيدة التّوحيد: ص ٢٨ - ٣٠)

إن كان سبب النّقل واضحا فلماذا اختيرت هذه « النّكتة » دون غيرها؟ ومن المؤلّف الأصليّ لهذا النّص؟ ومتى ألّف؟

لا عجب أن يكتب الأمازيغ بلغتهم الأمازيغيّة وأن يقبلوا تسميتها بالبربريّة إذا ما ارتفع عن هذه اللّفظة ما بها من هجنة، وقد كان للإباضيّة شأن في هذا ولعلّ من أقدم النّصوص الّتي تذكرها كتب السّير ما كتبه مهدي النّفوسيّ في النّصف الأوّل من القرن الثّالث/ ٩ للرّد على نفاث بن نصر، ثمّ تليه نصوص أخرى كما أنّ كتب السّير الأولى تجدها طافحة بالنّصوص البربريّة (ر. مقران البغطوري: سير مشائخ نفوسة. خ مكتبة الشّيخ سالم بن يعقوب جربة). وإنّنا نفترض أنّه وقع اختيار هذا النّص لترجمته لكثرة تداوله بين النّاس وذلك لشموله لأهمّ قضايا العقيدة بل لقضايا أخرى فقهيّة وأصوليّة وتاريخيّة وأخلاقيّة، ممّا يمكّن من الإلمام بأهمّ متركزات الفكر الإباضيّ، ولاختصاره، وسهولة لفظة (مائتان وعشرون ٢٢٠ سطرا)

إنّ سكوت ابن جميع عن ذكر المؤلّف يدفعنا إلى أن نرجّح أنّ النّص، وهومجموعة وحدات، لا ترجع إلى مؤلّف واحد،وإنّما هي نصوص مختارة ضمت إلى بعضها البعض مع الزّمن فتكوّنت منها شبه وحدة، والتّحليل الدّاخليّ للنّص المنقول

يؤكّد ذلك إذ لا نجد وحدة موضوعيّة متكاملة، ولا تسلسلا منطقيّا بين العناصر المكوّنة لهذا النّص. ومهما يكن من أمر فإنّ عدم معرفة المؤلّف الأصليّ لا تنقص من قيمة هذا النّص في تعبيره عن أهمّ أسس الفكر الإباضيّ خاصّة وقد صار ينسب إلى ناقله عمر بن جميع وقد تبنّاه الإباضيّة تبنّيا كاملا.

أمّا عن زمن تأليف هذا النّص فلست أوّل من أثار هذه الإشكاليّة بل قد أثارها المستشرق كوبرلي ورجّح أنّها ترجع إلى القرن الثّالث/ ٩ ذلك أنّها تذكّر في منهج بعض فقراتها بمسلك أهل الدّعوة الأول في توفير الجواب مباشرة على بعض الأسئلة في العقيدة، والسّؤال الأوّل واضح في ذلك: « إن سأل سائل فقال: ما أصل الدّين؟ فقل: ... »، كما أنّها لم تتعرض لقضيّة الرّؤية وقضيّة الصّفات وهما من القضايا الّتي لم تتبلور إلاّ بعد القرن الثّالث/ ٩.

وهذه مرجّحات معقولة تؤيّد ما ذكرناه من أنّ النّص البربريّ مجموعة وحدات تكاملت في الارتباط بينها عبر القرن الثّاني والثّالث هـ ٨ - ٩.

والأساس بالنّسبة إلينا أنّ هذه النّكتة متقدّمة عن عصر النّاقل ما لا يقلّ عن خمسة قرون، ومع ذلك لم تفقد قيمتها بل ما تزال إلى اليوم عمده إباضيّة أهل جزيرة جربة وأهل وادي مزاب، ذلك أنّها أوّل ما يحفظه النّشء بعد كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ.

إنّ التّحليل الدّاخليّ للنّص يثبت أنّه يعالج ٣٤ قضيّة: ١٨ تمحّضت للعقيدة. ٣ مزيج من العقيدة والفقه. ٨ تمحّضت للفقه. ١ لأصول الفقه. ٤ للقضايا الأخلاقيّة.

والملاحظ أنّ تسمية النّكتة بعقيدة التّوحيد مقبول ذلك أنّ الغالب على المسائل القضايا العقيدة، وإن وقع الوقوف عند الإلهيّات فقد غلب جانب الإنسانيّات والرّساليّات على القضايا المطروحة مع عدم معالجة القضايا المجرّدة سوى قضيّة خلق القرآن وقضيّة علاقة الاسم بالمسمّى. كما نجد في النّص دليلا يثبت ما ذكرنا إذ أنّ مجموعة من الوحدات نسبت إلى أحد علماء جربة في النّصف الثّاني من القرن الخامس/ ١١.

ويواكب الجانب الشّكليّ للنّص المترجم ما ذكرنا، ذلك أنّ القضايا جاءت متداخلة بين العقيدة والأخلاق والفقه، كما أنّ الأساليب جاءت متعدّدة بين التّقريري المباشر والاستفهاميّ التّعليميّ إلى جانب مسلك التّعداد في أحيان أخرى.

وممّا يدلّ على اعتناء علماء الإباضيّة بهذا النّصّ المنقول إلى العربيّة ما سنذكر الآن من شروح له.

**شروح مقدّمة التّوحيد:**

**١- شرح أبي العبّاس أحمد الشمّاخي (٩٢٨/ ١٥٢١)**

لقد حقّق المتن والشّرح أبو إسحاق إبراهيم اطفيّش (١٣٨٦/ ١٩٦٦) وطبعهما مع شرح أبي سليمان التّلاتي (٩٦٧/ ١٥٦٠) بالقاهرة ١٣٥٣ هـ. وقد أعيد تصوير هذه الطّبعة مرّات عديدة في عُمان وتونس وليبيا والجزائر.

وقد بيّن الشّارح الغاية من التّأليف في مقدّمة الشّرح حيث قال عند وصف المتن: « احتوت على نكت ولطائف يفتقر إلى تعلّمها المبتدئ، وربّما يحتاج إلى إيضاح بعضها المنتهي، فاستخرت الله في شرح ما بدا لي من مشكله... إسعافا لمن طلب، ومساعدة لمن رغب، ولا أزيد على ما يزيل الإبهام إلاّ نادرا، لأنّه رحمه الله لم يضعها لتقرير المباحث وتهذيب الأدلّة».

وقد جاء شرح الشمّاخي معتدلا بين الاختصار والطّول إذا قورن بشرح أبي سليمان التّلاتي، وشرح امحمد اطفيّش قطب الأئمّة (١٣٣٣/ ١٩١٤).

**٢- شرح أبي سليمان داود بن إبراهيم التّلاتي (٩٦٧/ ١٥٦٠):**

ذكرنا أنّه طبع مع شرح الشمّاخي، وهذا أبو سليمان نفسه يضبط منهجه في شرح العقيدة في المقدّمة كما يلي:

« فهذه تذكرة لشيء من مسائل على بعض كلمات العقيدة، عقيدة التّوحيد من حدود وآيات وأحاديث وآثار، مناسبة لتلك الكلمات، كان التّلامذة في بعض المجالس يكتبونها كما يكتبون العقيدة ».

وقد جاء الشّرح وفيّا للمنهج المقترح في الخطبة، ذاك أنّه اصطبغ بصبغة وعظيّة واضحة بعيدة عن النّزعة الجدليّة والاحتجاج العقلي.

فطريقة هذا الشّرح حينئذ نقليّة توفّر للقارئ ما يحتاج إليه من الآيات والأحاديث للتأكّد من مفهوم المتن وقيمته، مع عدم الاستغناء عن بعض الشّروح اللّغويّة والاصطلاحيّة عندما يلزم الأمر لفهم النّصّ المشروح.

٣- **عمروبن رمضان التّلاتي** (١١٨٧/ ١٧٧٣) وقد تناول العقيدة بالشّرح ثلاث مرّات:

أ- الشّرح الأوّل سمّاه:« اللّؤلؤة المضيئة على متن العقيدة » وقد ذكر ذلك في مختصره الموسوم « بنخبة المتين على أصول تبغورين ». ضمن مجموعة بعنوان العقيدة المباركة، طبع بالقاهرة دتا: ص ١٤٨ إلاّ أنّنا لم نعثر عليه.

ب- « عمدة المريد لنكتة التّوحيد » طبعة حجريّة مع شرح عقيدة التّوحيد لأبي سليمان التّلاتي. قسنطينة ١٣٢٣ يضمّ ١٩٨ صفحة إلاّ أنّنا لم نطّلع عليه.

ج- « نظم التّحقيق في عقود التّعليق »: وهو شرح لشرح الشمّاخي على عقيدة ابن جميع.

وهذا التّلاتي نفسه يشير إلى غرضه من هذا الشّرح: «... مزيل لما فيه من الصّعوبة الشّديدة، ومشيد لما فيه من الفوائد الأنيقة، يرتاح له أولو الألباب السّالمة صدورهم من الحقد، لعذوبة لفظه المتين وما حواه من التّدقيق والتّبيين ».

والنّاظر في هذا الشّرح يدرك أنّ التّلاتي قصد الشّرح اللّغوي، عدا بعض الإشارات السّريعة للتّعريفات الأصوليّة، كما يلاحظ أنّه لم يفرد فصولا لبعض القضايا كما يفعل عادة في الشّروح الأخرى.

والنّصّ مخطوط بالمكتبة البارونيّة بحومة الحشّان جربة بخطّ مغربي واضح. لم يذكر النّاسخ، ويقول مؤلّفه في آخره إنّه فرغ منه في ٢٨ ذي القعدة ١١٨١/ أفريل ١٧٦٨.

**٤- شرح عقيدة التّوحيد للشّيخ احمد بن يوسف اطفيّش (١٣٣٣/ ١٩١٤):**

- وقد طبع طبعة أولى حجريّة القاهرة سنة ١٣٢٦ وتضمّ ٤٥٨ صفحة من الحجم الكبير.

- ثمّ طبع طبعة ثانية من قبل وزارة التّراث بسلطنة عمان سنة ١٤٠٣/ ١٩٩٨ وتضمّ ٢٣٢ صفحة من الحجم المتوسّط وقد جاءت بدون أيّ تحقيق.

لقد انطلق الشّارح مباشرة في متابعة النّصّ دون أن يضبط منهجه في ذلك لكنّ المتتبّع للنّصّ يدرك أنّ القطب رحمه الله سلك في شرحه مسلك التّوسع بحيث يتبحّر في المرحلة الأولى في عرض الشّروح اللّغويّة، ثمّ بعد ذلك يبحر مع القضايا المطروحة في نصّ العقيدة فيلمّ بآراء علماء الإباضيّة عبر الزّمان وعبر المكان فيذكر أسماءهم أحيانا ويسكت عن ذلك أحيانا أخرى، ولا يغفل بعد ذلك عن عرض آراء بقيّة الفرق الإسلاميّة خاصّة منها الأشاعرة وأهل العدل والتّوحيد، وبهذا تتكامل المعاني في ذهن القارئ من خلال هذا المنهج المقارن بحيث يمكن أن يستغني عن الرجوع إلى المصادر الأخرى إلاّ من قبيل التثبّت وزيادة التّحرّي.

وهذا مثال من هذا الشّرح:

يقول عمر بن جميع: « وعلينا معرفة الكبائر وفرز ما بينهنّ اللّواتي للشّرك أو اللّواتي للنّفاق ».

فينطلق الشّيخ اطفيّش في الشّرح كما يلي: عطف لازم على الملزوم، فإنّك إذا عرفتهنّ فقد فرزت أي ميّزت، وثبت أنّك علمت، والمعنى فرز الّذي ثبت معتبرا بينهنّ يميّز به حكمهنّ.

والكبيرة ما جاء فيه الوعيد ما لم يجئ فيه الجامع، كما جاء الوعيد في التّطفيف والسّرقة، فيقاس عليهما الإخبار بأنّ هذا من عمل بلد كذا، أومن عمل فلان، ممّا فيه جودة، وليس كما قال فيعطي فيه لذلك أكثر ممّا يستحقّ، وغير ذلك صغائر، وذلك هو المشهور في المذهب، وليس المشهور أنّ كلّ ذنب كبيرة كما قيل، بل يذكرون أنّ كذا كبيرة، وأنّ كذا معصية، فنعرف أنّهم أرادوا معصية كبيرة، أو أرادوا معصية لا ندري ما هي عند الله أصغيرة أم كبيرة. « اللّواتي للشّرك أواللّواتي للنّفاق »: يعني يلزمنا أن نعلم أنّ الكبائر قسمان، كبائر شرك وكبائر نفاق، لنمتاز عن الصّفريّة والنّجديّة والأزارقة، القائلين أنّ الكبائر كلّها شرك، أو المعاصي كلّها شرك... ».

ويستمر الشّارح في تحليل هذه القضيّة إلى الصفحة ٢٠٤ ومن ذلك مثلا أنّه خصّص ٨ صفحات لتفسير قول المؤلّف « وليس منّا من قال إنّ القرآن غير مخلوق » من ص ٢٠٤ إلى ص ٢١١.

هذه هي شروح عقيدة التّوحيد فماذا عن التّرجمة؟

**ترجمة العقيدة إلى اللّغة الفرنسيّة:**

لقد ترجم المستشرق موتيلنسكي هذا النّصّ إلى اللّغة الفرنسيّة ونشره بالمجلّد الّذي جمع البحوث الّتي ألقيت بندوة المستشرقين الرّابعة عشرة بالجزائر سنة ١٩٠٥ من ص ٥٠٥ إلى ص ٥٤٥.

وقد درس كوبرلي نصّ هذه العقيدة دراسة تحليليّة نقديّة في أطروحته مع مقارنتها خاصّة بعقيدة نفوسة لأبي زكريّاء يحيى بن الخير الجنّاوني (٥/ ١١) وقد خصّص لذلك كامل الباب الثّاني: ٤٧-٧١.

أبو حفص عمر بن جميع كبير المدرّسين بجامع تفرّوجين ومترجم نصّ عقيدة التّوحيد عن البربريّة ذاك النّصّ الّذي ملأ محيط الإباضيّة في جربة ووادي مزاب وما يزال، تحفظه النّاشئة أوّل ما تحفظ بعد كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه عليه السّلام، وقد اعتنى به الشّرّاح غاية الاعتناء فغدا أسّا من أسس التّكوين العقدي في هذا المحيط لم ينازعه في ذلك ما جاء بعده من مؤلّفات غاية في الدّقّة والتّوسّع. لم يشتغل بالتّأليف بعد أن تشبّع بعلوم عصره وإنّما جلس للتّدريس وسعى للإصلاح الاجتماعي فأثمرت جهوده مع جهود بعض معاصريه نهضة علميّة واضحة المعالم في القرن ٨ و٩ / ١٤-١٥ م كان رائدها أبو القاسم البرّادي ٩ هـ/ ١٥ م ومن معه في مدرسة جامع وادي الزّبيب تلك المدرسة الّتي كان الغزو الصّليبي يقرأ لها ألف حساب رغم بعدها عن السّواحل الّتي كان يجتاحها من حين لآخر، ذاك أنّها كانت مرسومة في خرائطه ضمن القلاع الأساسيّة في جزيرة جربة.

[فرحات الجّعبيري: عمر بن جميع حوالي (٦٤٥/ ٧٢٠ - ١٢٤٧/ ١٣٢٠) وكتاب عقيدة التّوحيد. دار الجّويني للنّشر ٢٠٠٠. ١٤٤ صفحة + ١٢ صفحة نصّ عقيدة التّوحيد المنقول عن البربريّة.]

# الجيطالي أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي النّفوسي

## (٧٠٠/٧٥٠ – ١٣٠١/١٣٤٩)

عاصر الجيطالي مرحلة حرجة من مراحل حياة الإباضيّة في جبل نفوسة وفي طرابلس وجزيرة جربة وجنوب إفريقيّة وقسطيليّة ووادي أريغ ووارجلان.

فبعد أن بلغ العطاء العلمي أوجه في وارجلان في القرن السّادس/ ١٢ عرفت الحركة العلميّة تراجعا واضحا في القرن السّابع/ ١٣ إذ لا نجد من تراثهم في هذا القرن سوى منظومتين تعليميّتين لأبي نصر فتح بن نوح الملوشائي (ق ٧ – ١٣) النّونيّة في العقيدة والرّائيّة في الصّلاة مع ترجمة عقيدة العزّابة من البربريّة إلى العربيّة لعمر بن جميع وكتاب طبقات الدّرجيني (٦٧٠/ ١٢٧١).

هذا مع ما عرفه المدّ المالكي من سعي إلى السّيادة (٧٢٠ – ١٣٢٠) في أطراف بلاد المغرب، ومحاولات النّصارى المستمرّة للسّيطرة على إفريقيّة وطرابلس وغيرهما.

هذه الأحوال مجتمعة جعلت الأوضاع متردّية في جبل نفوسة، وقد سعى الجيطالي كما سنرى بعد قليل إلى إصلاحها بكلّ ما أوتي من قوّة في المرحلة الأولى من حياته، وعندما حلّ بجربة لم يجد الوضع أحسن حالا إذ كان الصّراع الدّاخلي بين الوهبيّة والنّكار واضح المعالم وكذلك الصّراع مع النّصارى.

ويكفي أن نذكر استيلاء النّصارى على جربة سنة ٦٨٩ – ١٢٩٠ وتأسيسهم برج القشتيل، وحملة اللّحياني على جربة سنة ٧٠٦ – ١٣٠٨ زمن أبي عصيده الحفصي

١٢٩٥ - ١٣٠٠ م، وطرد النّصارى سنة ٧٣٨ - ١٣٣٨ زمن أبي بكر الثّاني الحفصي ٧١٨ - ٧٤٧/ ١٣١٨ - ١٣٤٦، وتولية أحمد بن مكّي على جربة في نفس السّنة ٧٣٨، واستيلاء النّصارى على طرابلس ٧٥٥ - ١٣٥٦.

إنّ مثل هذه الأوضاع المزرية سيكون لها الأثر الواضح في حياته الخاصّة وفي مؤلّفاته خاصّة عند تحليل موضوع الولاية والبراءة.

واستنادا إلى ما ذكر وما جاء من تفصيل عن سيرة الجيطالي في سير الشّماخي ٥٥٦ - ٥٥٩ يمكن أن نقسّم حياته إلى مرحلتين: مرحلة الحركيّة العمليّة ومرحلة التّأليف والاستقرار.

١- **مرحلة الحركيّة العمليّة**: جبل نفوسة وطرابلس

أ) **النّشأة والتّعلم**: ولد الجيطالي كما تؤكّد ذلك هذه النّسبة بجيطال وهي إحدى قرى جبل نفوسة تقع بين « أَمْسين » و« إينر» (معمّر الإباضية في موكب التّاريخ، قسم ٢ حلقة ٢ ص ١٠٧)، وبهذا نشأ النّشأة الأولى، كما هومعروف في البيئة الإسلاميّة، مع حفظ القرآن الكريم والحديث الشّريف وما يتعلّمه المبتدئون. وإن كنّا لا نعرف عن والديه شيئا فإنّ الشّماخي قال إنّه انتقل إلى « طرميسة » ليلتحق بمدرسة شيخه أبي موسى عيسى الطّرميسي (٧٢٠ - ١٣٢١)، ثمّ بمدرسته الثّانية بمزغورة، والمعروف عن هذه المدارس (الجعبيري نظام) أنّها تستقطب طلبتها استقطابا كاملا وتقحمهم في الحياة الاجتماعيّة إزاء ما تمكّنهم من زاد علمي موسوعي، خاصّة إذا ما علمنا ما وفّره الشّيخ الطّرميسي من مكتبة علميّة زاخرة أوقفها للمطالعين عند وفاته.

مع ملاحظة ما تسنده المدرسة من مهّام للنّبغاء منهم إزاء الدّراسة والتّدريس في باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ومن إشارة عند الشّماخي ندرك أنّ الجيطالي من هذا الصّنف « ومن كثرة حفظه أنّه يقرأ ويحفظ كتاب العدل والإنصاف في أصول الفقه لأبي يعقوب الوارجلاني (٥٧٠ - ١١٧٤)، ويدرس جمل الزّجاج في النّحو، ومقامات الحريري، وكتاب الدّعائم لأبن النّضر العماني (ق ٥ - ١١) في أصول الدّين والفقه، والأشعار الستّة [المعلقات] وغير ذلك » (سير ٥٥٦).

وقد صاحب في هذه المدرسة - مزغورة - كلاّ من أبي ساكن عامر الشّماخي (٧٩٢ - ١٣٩٠) وأبي عزيز الباروني (٧٤٦ - ١٣٤٦) ويدراسن الأزاجي (٧٣٢ - ١٣٣٢) (سير ٥٥٦) وقد كان لهذه الثّلاثي شأن في المدرسة الإباضيّة (تراجمهم معجم أعلام الإباضيّة بالمغرب).

وممّا يبرز نبوغه العلمي في محيطه قبل أن يؤلّف ما ألّف هذا الخبر وذكر أنّه دخل العشاء الآخر إلى مسجد بلده جيطال وكان عمّنا عامر {الشّماخي} ينظر في كتاب فقعد إليه يسأله عن المشكلات والمبهمات إلى انفجار الصّبح، ولم يقف في واحدة، فإذا سئل عنه بعد ذلك يقول: « عامر وحيد عصره » (سير: ٥٥٩).

واضح من خلال هذه الإشارات وغيرها أنّه نهل من الزّاد المعرفي ما يمكّنه من التّصدّي إلى الإصلاح الاجتماعي المنتظر في بيئة دبّ إليها الوهن من جرّاء الصّراع الدّاخلي والخارجي، وإلى الإنتاج الفكري وقد برع الجيطالي في هذين الرّكنين اللّذين يقوم عليهما إصلاح كلّ مجتمع.

**ب - مرحلة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر:** الواضح في هذه المرحلة من حياته أنّه لم يستقرّ به قرار في موطن واحد. جاء في السّير: « وذكر أنّه وطّن غريان لمّا رجع أهله إلى مذهب الحشويّة، وكانوا قبل إباضيّة »(٥٥٦) وجاء فيه أيضا: « نزل ومعه عبيد أراد بيعهم بمدينة طرابلس » (٥٥٦) كما جاء فيه: « وسكن فرسطّاء من بلاد نفوسة تسعة أعوام وحملهم على السّبيل المستقيم » (٥٥٨) كما جاء فيه: « وذكر عنه أنّه كان بمزغورة بعد موت أبي عزيز (٧٤٦ - ١٣٤٦).»

وممّا نعرف من سير مشائخ الإباضيّة أنّه كان دؤوبا (٥٥٨) في الاتّصال المباشر بالنّاس يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر « وكان يكثر على النّاس التّذكير والأمر والنّهي حتّى يأتي الأسواق ويعظ » (سير ٥٥٨).

فلا شكّ أنّ ما ذكره الشمّاخي قليل من كثير من المواطن الّتي عرفت صوته الآمر والنّاهي، وصرامته في ذلك، وهويرمي من وراء ذلك إلى إحياء ما اندرس ممّا عرفه جبل نفوسة من حياة إسلاميّة سامية في القرون الخالية حيث كانت لا تحتاج أسرة إلى أخرى في الفتوى لكن أنّى للجيطالي أن يحقّق ذلك.

إنّه كابد من أجل هذه الجرأة في قول الحقّ مكابدة شديدة تستشفّ من القليل ممّا أورده الشمّاخي ممّا بلغه من أخباره.

من ذلك أنّه « طعن الحاسدون فيه وقالوا علّم السّوقة مسائل الغشّ، يعنون أنّه ينهاهم عنها فتعلّموها ». (سير ٥٥٨)، ومن ذلك أتاه آت ذكر له أنّ خمرا عند بعضهم فخرج إليه في الفقهاء وأهل الصّلاح فأرسل إليه أهل المتهوم بعض الأعراب

فردّوه، فأراد الارتحال فتعلّق به النّاس فقال: « لا أقيم ببلد لا أقيم فيه الحقّ ولا آمر ولا أنهى » (سير ٥٥٨).

ويذكر الشمّاخي في هذا الصّدد عددا من الأخبار الّتي تثبت ما وجده من عنت من الحائدين عن طريق الحقّ حيث ما حلّ يُنْهِيهِمَا بذكر دعائه عليهم فيستجيب الله لدعائه، أكتفي بذكر خبر منها على سبيل المثال: « وذكر أنّه دعا على أرض لقوم تكلّموا في طلبته أنّهم يلعبون وأفسدوا بعض الجسور بعدم البركة فغرسوها مرارا فلم تثمر ». (سير ٥٥٩).

وتأتي الحادثة الّتي تفيض الكأس وتحوّل مجرى حياته تحويلا كلّيّا، ذلك أنّه كثرت الوشايات في الجيطالي لدى قاضي طرابلس وحاكمها، فما كان من الحاكم إلاّ أن « جمعه والفقهاء بمجلسه فوجدوه كنز العلوم والمعارف ومعدن الفضائل » (مؤنس الأحبة ٩١)، ويذكر الشمّاخي أنّه تحدّاهم عندما تفوّق عليهم في المناظرة بقوله: « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ». (سير ٥٥٦).

ثمّ يذكر أنّه « مازال قاضيها {طرابلس} وأميرها يلتمسان عليه الأسباب حتّى سجناه وأخذا ما معه » (سير ٥٥٦).

لم تحدّد المصادر المدّة الّتي قضاها في السّجن لكن تذكر أنّه توسّط له مشائخ جربة من أسرة أبي مسور لدى ابن مكي (٧٦٦ - ١٣٦٥) والي قابس لدى الحفصيين، وجربة تابعة لها كما أرسل إليه قصيدة في مدحه، فشفع له لدى والي طرابلس، فأطلق سراحه بأن تحمل عنه المِسْوَرِيُّون مالا (سير ٥٥٧)، وفيهم يقول

الشمّاخي: « وأولاد أبي زكرياء ابن أبي مسور بيت علم قديما وحديثا ورأس الفقهاء بجربة وإليهم الإشارة ومرجع الأمر » (سير ٥٥٧).

٢ - **مرحلة الاستقرار والتّأليف**، لم تكن جربة غريبة عن الجيطالي إذ يفهم من خبر أنّه « قدم مرّة إلى جربة في أيّام العنب » (سير ٥٥٧)، لكنّ وصوله في هذه المرّة ليس لمجرد الزّيارة وإنّما هوللاستقرار إلى الوفاة.

إنّ النّاظر في خريطة جربة يعرف أن القسم الشّرقي وجزء من الجنوبي نكّاري والقسم الباقي وهبي. ومن قدر الجيطالي أن نزل جربة بحرا من جهة الجنوب منطقة النّكار « فاستهزأ به وبمن معه بعض أغنيائهم، لكن وجدوا من أكرمهم من فقرائهم واستضافهم فدعا لهم البركة فبارك الله في أموالهم وبقي فيهم أثر الغنى والبركة إلى يومنا » (سير ٥٥٧).

ورجا منه هؤلاء الإقامة عندهم إلاّ أنّه « امتنع لكونهم خالفوا » وانتقل إلى الوهبيّة واستقر عند أولاد أبي مسور الّذين تسبّبوا في إطلاقه من السّجن، وذلك في الجامع الكبير في حومة الحشّان.

وتجدر الملاحظة هنا أنّ شيخ عزّابة جربة عند وصول الجيطالي كان يعيش بن موسى الزّواغي وكان ثقل الحركة العلميّة في جامع وادي الزّبيب الّذي أسّسه محمّد بن أحمد الصّدغياني في أواخر القرن السّابع/ ١٣ ليكون منارة علميّة وقلعة دفاعيّة أخرى في مكان استراتيجي جنوب الجزيرة على بعد خمسمائة متر عن أعلى نقطة فيها.

وتسكت المصادر تماما عن علاقة الجيطالي بمشائخ الجزيرة سوى استقراره عند أولاد أبي مسور وهم بقيّة أسرة علم لهم جاه عند أهل السّلطة.

وقد قضى الجيطالي بقيّة حياته مستقرّا بالجامع الكبير بين التّدريس والتّأليف ويبدوأنّه اضطّر إلى التّخلّي عن مسلكه السّابق.

ولا بأس قبل أن نعرّف بمؤلّفاته من أن نذكر ما أورده الشمّاخي من اعتذاره لابن مكي عن مدحه « ويخبره أنّه لا يستحقّ ذلك المدح كلّه ، ويعلّق على ذلك » وذلك من تحفّظه وورعه ألاّ يكون كذب في شعره وألاّ يكون من الّذين يهيمون في كلّ واد » (سير ٥٥٧).

**وفاته:** يقرّر الشمّاخي أنّه مات عام خمسين وسبعمائة بجربة (٥٥٩) وقبره معروف بروضة الجامع الكبير مع عدد من مشائخ مدرسة الجامع الكبير، وإن صحّ ما تذكره سناء الباروني أنّه توفّي ولم يتجاوز العقد الأربعين من عمره تكون ولادته في مطلع القرن الثّامن.

**مؤلفاته:**

**١ - شرح الأصول الدّينيّة مشتملا على تلخيص معاني القصيدة النّونيّة،** والقصيدة النّونيّة من تأليف أبي نصر فتح بن نوح الملوشائي (النّصف الأوّل من القرن ٧ - ١٣) من قرية تملوشايت من جبل نفوسة، واعظ، شاعر، متكلّم، زاهد. له عدّة قصائد ومقامات (معجم عدد ٧٣٠). وأهم قصائده النّونيّة لأنّها كان يردّدها الطّلبة بمثابة النّشيد الرّسمي بعد حفظ كتاب الله العزيز والسنّة الشّريفة، وهي متن

يحتوي على ١٢٨ بيت، شمل جميع مواضيع العقيدة، بناه صاحبه بناء ثلاثيّا، فيه مقدّمة وإهداء، فعرض لأصول العقيدة ومبادئها، فرثاء للذّات بعد دعوة إلى محاسبة النّفس وإصلاح حالها « (سناء الباروني علم الكلام عند إسماعيل الجيطالي مرقون ص ١٠١ وقد حلّلت القصيدة تحليلا مستوفى ص ٩٩ - ١٢٠ وختمته بقولها: « وإجمال القول في جوهر هذه القصيدة إنّ الملوشائي قد وعى باستحالة تحقيق الاستقرار في الحياة دون التمسّك بعقيدة أصولها ثابتة، وأدرك أنّ المناعة الاجتماعيّة والحضاريّة لا تتحقّق إلاّ بالمناعة العقديّة الإيمانيّة » ص ١١٩ وطبعت القصيدة عدّة طبعات. أمّا شرح الجيطالي للقصيدة فما يزال مخطوطا، والنّسخة البارونيّة تقع في مجلّدين اثنين، **المجلّد الأوّل**: ٢١٨ ورقة بكلّ صفحة ٢٥ سطرا المقاس ٢١ / ١٥,٥ بخطّ مغربي واضح والنّاسخ هوسعيد بن عيسى الباروني (انظر زيادة تفاصيل ورقة ١٩٣ وجه). **المجلّد الثّاني**: ٤٢٢ ورقة بكلّ صفحة ٢١ سطرا نفس مقاسات مجلّد ١، نسخ عبد الله بن سعيد السّدوكشي (رمضان ١٠٣٣ - ١٦٢٤). وقد اعتنت سناء الباروني بهذه الشّرح من ص ١٢٠ - ١٣٢. وبدأت ذلك بما يلي: يمثّل شرح النّونيّة نصّا واسعا يدور حول تحليل الأصول العقديّة الّتي تمثّل قوام الاعتقاد الإباضي بأصوله التّسعة، وقد قسّم الجيطالي شرحه إلى ثلاثة فصول اندرجت ضمن باب التّوحيد جعل **الفصل الأوّل** منها في معرفة الله بالاستدلالات العقليّة بألفاظ وجيزة، وجعل **الثّاني** في ما لا يسع جهله جميع العقلاء... أمّا **الفصل الثّالث** فقد لخّص فيه ما جاء في هذا الباب ليحصل المقصود وإن طال الكتاب... ثمّ قسّم كلّ فصل إلى فصول

صغرى جعلها تنقسم بدورها إلى مسائل فرعيّة كثيرة.» ص ١٢٠. وقد انتهى الجيطالي من تأليفه في ضحى يوم الجمعة من أيّام جمادى الآخرة من سنة ٧٣٠ - ١٩ أفريل ١٣٣٠.

إزاء هذه النّسخة توجد نسخة منه كاملة بمكتبة جمعيّة عمّي سعيد بغرداية الجزائر نسخة مصوّرة وقد شرحت النّونيّة بعد شرح الجيطالي شروحا عديدة (البعد الحضاري ١٦٠).

٢ - **كتاب قواعد الاسلام** وقد انتهى الجيطالي من تأليفه يوم الخميس بعد العصر لسبع ليال خلون من شهر شعبان ٧٣٣ - ٢٣ أفريل ١٣٣٣ وهذا الجيطالي يعرف كتابه في المقدّمة كما يلي: « رأينا أن نقصر الكلام في هذا المختصر على سبعة أركان تحتوي على جمل من الفرائض والمظالم الّتي يلزم بها الإنسان، وكلّ ركن منها يشتمل على أبواب مرتّبة مبانيها، وفصول مشروحة معانيها » (بكلي ص ٢).

ويحتوي **الجزء الأوّل** على التّوحيد والطّهارات والصلاّة ٣٨٣ صفحة، ويحتوي **الجزء الثّاني** على الزّكاة والصّوم والحجّ والعمرة، والحقوق ومظالم العباد والآداب ٢٩٦ صفحة. صحّحه وعلّق عليه بكلّي عبد الرّحمان بن عمر(١٤٠٦ - ١٩٨٦) ط ١ المطبعة العربيّة. غرداية، الجزائر ١٩٧٦.

ونذكر أنّ النّامي حقّق قسم العقيدة من الجزء الأوّل القسم التّكميلي من أطروحته مرقون.

كما حقّق هذا القسم أيضا - ركن التّوحيد - مع حاشية أبي ستّة (١٠٨٨ - ١٦٧٨) بشير بن موسى الحاج موسى. يضمّ ٤٣٧ صفحة المطبعة العربيّة. غرداية. الجزائر ١٤١٨ - ١٩٩٨. وقد ذكر في المقدّمات كلّ من اشتغلوا بهذا الكتاب شرحا واختصارا وتحقيقا مع التّعريف بمخطوطات متن القواعد ومخطوطات الحاشية. ص ٢ - م.

والملاحظ أنّ كتاب القواعد يورد آراء مختلف المذاهب ويقارن بينها مع إبراز الموقف الإباضي بأدلّته النقليّة والعقليّة.

**٣- قناطر الخيرات - في فلسفة الشّريعة وتزكية النّفس**، انتهى من تأليف أوّل سفريه يوم الجمعة ٥ محرّم ٧٣٨ - ٣ أوت ١٣٣٧ طبعة حجريّة ٣ أجزاء المطبعة البارونيّة بمصر ١٣٠٧ - وحقّق منه عمروالنامي قنطرتي العلم والإيمان (٣٠١ صفحة من الطبعة الحجريّة) مكتبة القاهرة ١٣٨٥ - ١٩٦٥. ٤٠٨ صفحة. ويعمل على تحقيق باقي القناطر طلبة قسم الشّريعة بمعهد عمّي سعيد بغرداية الجزائر.

وهذا الجيطالي يعرّف كتاب القناطر كما يلي: « فلمّا كان الأمر على ما وصفنا، كان ينبغي {لنا} أن نرتّب على طريق الإسلام قناطر {كما قدّمنا} ليسلك المسترشدون عليها. ونهيّئ لهم سلاحا من العلم ليقاتلوا بها، وندلّهم على عقاقير من الصّبر ونظام النّفس والقناعة إلى غير ذلك حتّى يتجرّعوا مرارة الدّنيا بالزّهد فيها...» (خ النّامي ص ٧).

٤- **كتاب مناسك الحجّ**. خ. اختصره إبراهيم بن يوسف اطفيش (١٣٠٣ - ١٨٨٦) وسمّاه « **مختصر المناسك ومهذّب المسالك**. ط بارونيّة ١٣١٠.

٥- **كتاب الفرائض**. ٦- **كتاب حساب قياس الجروح**. ٧- **كتاب حساب مسائل البيع والشّراء** و٥ و٦ و٧ ط جربة بارونيّة ١٣٠٥ مع حاشية يوسف بن محمّد المصعبي (١١٨٨ - ١٧٧٤) على كتاب الفرائض. ٨- **كتاب جمع فيه جوابات الأئمّة** (سير الشمّاخي ٥٥٦ ويذكر أنّه في ثلاثة أجزاء مفقود. ٩- **كتاب ضمّنه مجموعة من الرّسائل** (سير ٥٥٦). مفقود. ١٠- **قصائد شعريّة طبعت مع مجموع قصائد بارونيّة**. دت. ١١- **تذكرة النّسيان وأمان حوادث الزّمان**، وهي وصيّته خ. توجد نسخة منها بمكتبة دار التّلاميذ بالعطف الجزائر. ١٢- **عقيدة الجيطالي** (مختصرة). طبعت عدّة طبعات.

والملاحظ أنّ الجيطالي قد سلك في مؤلّفاته ثلاثة مسالك متكاملة، فانطلق من الشّرح وما يمتاز به من حشد وجدل وتوسّع وتعريف، ثمّ سلك مسلك التّنظير العقلي والتّبويب كما هوالشّأن في كتاب القواعد وغيره من مؤلّفاته، أمّا المسلك الرّوحي الوجداني فكان ميزة كتاب القناطر. إلى جانب ذلك عمل على تجميع نصوص هامّة وقدّم نصّا مختصرا في العقيدة ليسهل حفظه على المبتدئين. ولم تخنه قريحة الشّعر فجادت بقصائد في الدّعوة إلى الخير والصّلاح.

هكذا كان الجيطالي «من دعاة الإسلام المخلصين الّذين عاشروه « حركة » ثمّ عبّروا عنه بيانا ، كما يقول النّامي (تح ١٤) وصدق الشمّاخي عندما افتتح سيرته بـ: كان شيخا حافظا وعالما محافظا شديدا في الأمر والنّهي» (سير ٥٥٦).

**المراجع:** معجم أعلام الإباضيّة عدد ١١٠. قواعد الإسلام مذيلا بحاشية المحشّي تحقيق وتعليق بشير بن موسى الحاج موسى. الجزء الأوّل يحتوي على ركن التّوحيد. المطبعة العربيّة غرداية الجزائر. ١٤١٨ - ١٩٩٨. ٤٣٧ صفحة. سناء الباروني: علم الكلام عند إسماعيل الجيطالي، بحث لنيل شهادة الدّراسات المعمّقة إشراف الأستاذ كمال عمران. قسم العربيّة، كليّة الآداب جامعة منّوبة، سنة ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤. الجامعة التّونسيّة. مرقون ٣٠٦ صفحة.

P – Cuperly: Introduction à l'étude de l'ibâdisme et de sa thèlogie. Office des publications universitaires. Alger ١٩٨٤ – p ١٢١ – ١٤٤.

# الشمّاخي عامر

## (٦٨٠/ ٧٩٢ - ١٢٨٢/ ١٣٨٩).

الشّمّاخي عامر بن عليّ بن عامر بن يسِّفَاوْ. أبو ساكن، لقّب يَسِّفَاوْ، ومعناها بالعربيّة: ضياء الدّين.

يبيّن حفيده أبو العبّاس الشّماخي صاحب كتاب السّير أنّ جدّه الأعلى هذا عمّر طويلا وأنّه قضى كلّ حياته في جبل نفوسة متعلّما ومعلّما ومصلحا.

ذاك أنّ الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة لم تكن مستقرّة في هذا القرن الثّامن/ ١٤ بجبل نفوسة، فهذا الشّيخ عليّ والد مترجمنا « كان يعدّي القوافل من اللّصوص والمحاربين » (سير ٥٦١)، فهذا عامر نفسه يقول في مقدّمة كتابه الإيضاح: « وقد جمعته في أيّام دهش وهراش وبلوى » (١/ ٥).

لكن رغم ذلك فقد استطاع أبو موسى عيسى الطّرميسي (٧٢٠ - ١٣٢١) أن يحرص على إحياء ما اندرس، وذلك بالاقتداء بمؤسّس نظام العزّابة بالمغرب أبي عبد الله بن بكر الفرسطّائي (٤٤٠ - ١٠٤٩) فأسّس مدرسته الشّهيرة في مزغورة وطبق فيها نظام التّعليم كما طبّقه أبو عبد الله من قبل، وكان همّه الأكبر إلى جانب إحياء ما أسّسه الأول بعث حركيّة علميّة جديدة همّها مدّ المدرسة الإباضيّة بعطاء علميّ زاخر يستفيد ممّا سبق ويضيف إليه ما تحتاج إليه المجموعة الإباضيّة لتحافظ على كيانها أمام محاولات الاستئصال الّتي انتابتها من هنا وهناك، ولقد تحقّق للشّيخ الطّرميسي ما

كان يصبو إليه إذ تخرّج على يديه عالمان من أجلّ علماء الإباضيّة هما الشّيخ الجيطالي (٧٥٠ - ١٣٤٩) وعامر الشّماخي هذا. فماذا عن نشأته وتعلّمه، وما بذله من جهد في التّعليم والإصلاح والتّأليف؟.

**نشأته وتعلّمه:** « الشّماخي نسبة إلى جبل شمّاخ، وهوربوة تقع في أرض الرّبابة الآن، وتنسب إليها أسرة الشّماخي لأنّها كانت مقرّا لها، ومنها انتقلت لتستقرّ في يفرن » (ص: هـ الإيضاح).

ويفرن اسم يطلق الآن على مجموعة من القرى المتجاورة وقد كان عدد منها متّصلا يكوّن مدينة عظيمة تسمّى «البيضاء»، ومن هذه المجموعة تنتأ قرية إلى الشّمال الغربيّ تسمّى « ديسير ». (معمّر الإباضيّة حلقة ٢ قسم ٢/ ١١٣). في هذا المحيط العامر بخصبه وآثاره نشأ عامر الشّماخي في أسرة عريقة في العلم وهذا أبوه كما ذكر أبو العبّاس « كان مشهورا بالصّلاح مستجاب الدّعاء يهابه كلّ مخالف وموافق، وكان يعدّي القوافل من اللّصوص والمحاربين، وإذا أبصروه مع عير رجعوا هيبة » (سير ٥٦١).

محضن العلم هذا جعل الولد يهاب الحرام من نعومة أظفاره، وهذا أحد الأعراب يراه يمسك زمام بقرته وهي ترعى، بينما يسرّح أقرانه أبقارهم ترتع حيث شاءت، فسأله عن ذلك، فأجاب بأنّه يخشى أن تأكل من متاع النّاس « فأتى أباه فقال إنّ ابنك يصلح للعلم والقراءة لا لرعي البقر » (سير ٥٦١).

وما كان أبوه ليغفل عن الأمر، وإنّما أراد من ذلك أن يقحمه الحياة العمليّة إلى جانب العلم النّظريّ. لكنّه في النّهاية محضّه للحياة العلميّة.

وبعد أن تلقّى المبادئ الأولى في مدرسة « البخابخة » (معمّر. ١١٤) قرآنا وسنّة ومتونا التحق بمزغورة بمدرسة الشّيخ الطّرميسي بعيدا عن الأسرة ودلالها، وهنالك صاحب أترابا أجلاّء تعاونوا على طلب العلم أشهرهم إسماعيل الجيطالي(٧٥٠ - ١٣٤٩) وأبو عزيز الباروني (٧٤٦ - ١٣٤٦)، ويدراسن الأزاجي (٧٣٢ - ١٣٣٢) وغيرهم كثير. ويكفي أن نذكّر بشهادة الجيطالي في أبي ساكن: « عامر وحيد عصره » وبقولة أبي العبّاس الشّماخي « كان - أبو ساكن - مع أبي طاهر الجيطالي كفرسي رهان يتسابقان في ميدان » (سير ٥٥٩)، وبإيثار شيخه له، وإعانته له حين سافر إلى الحجّ وبوصيّته التّالية له: « هذا المذهب أبلغته إليك، فإن أحسنت سياسته بقي وإلاّ افترق. » (سير ٥٥٩).

فماذا بعد النّهل من مثل هذا المحيط الإيماني الزّاخر بالعلوم الإسلاميّة والتّجربة العلميّة إذ طلبة هذه المدارس يأخذون عن شيوخهم ويشاركونهم في التّدريس والتّأليف والسّهر على شؤون الأمّة في إطار نظام الحلقة الّتي يسوس المشرفون عليها جميع شؤون الأمّة؟ إنّه تحمّل المسؤوليّة وكذا كان الأمر بالنّسبة إلى أبي ساكن.

**الحياة العمليّة:** يقول أبو العبّاس عنه « واسطة العقد ومنتهى القصد » (٥٥٩) « وكان أوّل عمره يقرأ العلم وآخره يقرئ » (٥٦٠). وفعلا لقد كانت حياته زاخرة بتأسيس المدارس العلميّة لما لها من قيمة في تخريج الأجيال.

يقول أبو العبّاس: « ولمّا فارق الشّيخ أبا عزيز أقام بميتيون يقرئ العلم ثلاثة عشر عاما، ثمّ تحوّل إلى يفرن عام (٧٥٦ / ١٣٥٤) وأقام بالمسجد الكبير إلى أن مات » (٥٥٩).

المدرسة الأولى: بيفرن موطنه الأصليّ.

المدرسة الثّانية: مدرسة أبي يزيد المزغورتي مع زميله أبي عزيز بمزغورة، ثمّ بعد موت زميله أنشأ:

المدرسة الثّالثة: ميتيون بأرض الرّحيبات وقد أقام فيها ١٣ عاما من ٧٤٣ إلى ٧٥٦ - ١٣٤٣ / ١٣٥٤.

الاستقرار النّهائيّ بالمدرسة الأولى بيفرن:

من ٧٥٦ إلى ٧٩٢ - ١٣٥٤ إلى ١٣٩٨

المدرسة في المحيط الإسلاميّ هي المسجد حيث محور حياة الأمّة، لذلك فشيخها والمشرف عليها هوقطب الرّحي في الفتوى، والتّوجيه، والإصلاح بين النّاس، وفضّ الخصومات وما إلى ذلك من الشّؤون الدّينيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة (من ذلك أنّ منطلق مواسم الزّرع والحصاد وما إلى ذلك لا تنطلق إلاّ بإذن شيخ المسجد).

**تلاميذه:** يقول أبو العبّاس: « وساد ممّن أخذ عنه » (٥٦٠) ويذكر أحد عشر عالما، فما بالك بمن لم يسد ! ويحسن أصحاب السّير التّعبير عن ذلك بقولهم: « أخذ عنه خلق كثير » وهؤلاء العلماء هم:

١) ولده موسى بن عامر الشّماخي أبو عمران (٨٠٧ - ١٤٠٤) وله مؤلّف اسمه « لقط موسى بن عامر» خ ولمحمّد اطفيّش (١٣٣٢ - ١٩١٤) ترتيب له بعنوان « تفقيه الغامر، بترتيب لقط أبي عامر » ط حجريّة.

٢) حفيده سليمان بن موسى الشّمّاخي توفّي قبل أبيه بقليل، وهوالّذي تولّى منزلة جدّه ومرتبته، قيل قرأ على جدّه ثمانين كتابا (سير ٥٦٢) ويكنى أبا الرّبيع. عن سيرتهما انظر سير الشّماخي ص ٥٦٢.

٣) أبو يعقوب يوسف بن مصباح (لم يترجم له الشّمّاخي).

٤) الشّيخ بن محمّد بن الشّيخ الباروني « مشهور في الخير وباسط اليد، اتّخذ في داره مسجدا يغشاه المتعلّمون وأصحاب الحاجات » (سير ٥٦٨).

٥) أبو عمران موسى بن أبي يوسف « أوقفه شيخه بأمسين وبها توفّي » (سير ٥٦٣).

٦) أبو يحي بن زكريّاء (لم يترجم له الشّمّاخي) (سير ٥٦٥).

٧) أيّوب الجيطالي « درس على الشّيخ إسماعيل الجيطالي وعندما رحل إسماعيل إلى جربة انتقل إلى أبي ساكن وقرأ عليه كتاب العدل والإنصاف للوارجلاني (٥٧٠ -

١١٧٤) وكتبا أخرى... وساد بعد ذلك وله مجلس عظيم يأوي الغرباء من الطّلبة ويكلّف من يطعمهم ويكسوهم » (سير ٥٦٣).

٨) أبو الفضل أبو القاسم البرّادي (٨١٠ - ١٤٠٧) وهوأغزر تلاميذه إنتاجا علميّا، ساد بمدرسة وادي الزّبيب بجربة (انظر سيرته في هذه الموسوعة وسير ٥٧٥).

٩) نوح بن حازم المرساوني (١٢ رمضان ٨٠٦ - ٢٤ فيفري ١٤٠٤) أخذ العلم عنه كثر وساد في أيّامه. سير (٥٦٦ - ٥٦٨) وتلبية لطلبه ألّف أبو ساكن كتاب الدّيانات.

١٠) أبو عبد الله محمّد التفجاني الجّربي. سكن بعد أن فارق شيخه تساكت، والرّاجح أنّ له باعا في المناظرة. (سير ٥٧٦).

١١) أبو الضّياء يسّفاو الطّرميسي. لم يترجم له صاحب السّير.

هكذا حقّق أبو ساكن رجاء شيخه الطّرميسي في باب التّعليم حيث كوّن جيلا استطاع أن يسود بعده، وبهذا تصحّ عبارة أبي العبّاس: « فساسه (المذهب) بل جدّده بعد أن خلق » (سير ٥٥٩)، وسيستمرّ هذا النّفس العلميّ النّابض إلى عصر الشّمّاخي أبي العبّاس (٩٢٨ - ١٥٢٢) إذ يقول: « إذا أطلق الشّيخ في عرف زماننا فهوالمعني » (سير ٥٦٠)، وهذه العبارة في المحيط الإسلاميّ لا تعني المشيخة في العلم فحسب وإنّما تعني أيضا السّيادة في الإصلاح الاجتماعيّ.

ويذكر في هذا الشّأن « أنّ حربا وقعت بين قريتين من قرى يفرن فأصلح بينهما » (سير ٥٦١)، ولا نشكّ في أنّ الأمثلة على هذا كثير لكن أبا العبّاس اكتفى بهذا

الحادث مثلا، وإن كان أبوه وهودونه علما « يهابه كلّ مخالف وموافق » (سير ٥٦١) فهوعلى هذه الشّاكلة، ويلخّص أبو العبّاس سيرة أبي ساكن كما يلي: « وما يذكر عن اجتهاده في الإقراء والعبادة والحزم والتزام الطّريقة وإحياء السّير أمر كبير » (سير ٥٦٠).

ويستوحي معمّر ممّا أورده أبو العبّاس من سيرته (سير ٥٦٠ – ٥٦١) وممّا عرفه من تآليفه، وممّا هوبه مشهور في الجبل ما يلي: « وكان متخلّقا بالقرآن، حكيما، وقورا، عفيفا، ليّن العريكة، سهل الخلق، يحبّ النّاس ويحبّونه،ويألفهم ويألفونه، إلاّ أن تنتهك حرمة من حرم الله، فإنّه لا يقرّ له قرار حتّى يقوم فيها بأمر الله » (م.س ١١٩).

**وفـاتـه:** يقول أبو العبّاس: « ومات عام اثنين وتسعين ٧٩٢ وهوشيخ كبير، قيل مع هرمه لم ينتقص من عقله » (سير ٥٥٩).

ويذكر له كرامة تثبت أنّه ظلّ ملتزما بصلاة الجماعة والتّعليم إلى آخر رمق من حياته (٥٦٠).

**مـؤلّـفـاتـه: ١) كتاب الإيضاح،** نعتمد في التّعريف بالكتاب الطّبعة الثّانية الّتي حقّقها فريق من علماء جبل نفوسة (٢٥ ربيع الثّاني ١٣٩٠ - ٢٩ يونيو١٩٧٠) كما هومثبت في التّقديم ص د: عن اللّجنة: علي صالح الشّاوش. النّاشر دار الدّعوة نالوت مطبعة الوطن بيروت.

**الجزء الأوّل**: ٧٧٨ صفحة: « قال الشّيخ الإمام العلاّمة أبو ساكن عامر بن عليّ الشّمّاخي النّسب في **إيضاح** ما قدّر الله له من أبواب الفقه، ونسأل الله العون والتّوفيق.(باب في إيضاح الصّلاة بدلائلها وجميع وظائفها المعلّقة بأصولها ومسائلها) ص ١ ثمّ تأتي المقدّمة ص ٢-٥ وقد أثبت فيها ما يلي: فإنّه قد دعاني إلى إيضاح ما ألّفت في هذا الكتاب من مسائل الصّلاة ووظائفها بجميع الأسباب، وما عليه عوّلت إن شاء الله وقدر سلامة وأعان على هداه ممّا قد اعتنيت به وألّفته، من أقوال أصحابنا (الإباضيّة) خاصّة جمعته، بدلائل مسموعات مستندات، وقياسات مستنبطات مستخرجات، طلبي لمرضاة الله تعالى وابتغاء ما عنده لا لشيء سواه لا. لا. وأن أكون في ذلك عونا للمتعلّمين، ومتّبعا سبيل من سلك هذه الطّريقة من صالح المؤمنين لأنّ الله تعالى قال: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ** ﴾ (٥ المائدة ٢٠) ولأنّ من لم يتحكّم على الأصول قلّما تتحصّل عنده الفصول كما قال بعضهم، إنّما منعهم من الوصول تضييع الأصول فلمّا بطلوا تعطّلوا... ».

ثمّ يقول مبيّنا منهجه في التّمييز بين المواقف: « ولنقل في كلّ موضع قلت في كتابي هذا فعندي، والله أعلم أنّ سبب اختلافهم أوالعلّة كذا وكذا أنّه عندي في غالب الظّنّ لا بمعنى علم مسموع قد ثبت واستن، وكذلك إذا قلت: والدّليل كذا وكذا وإنّ العلّة كذا وكذا فإنّما هوفي الأكثر استدلال واعتلال منّي لا من صاحب القول

الّذي على طريقته أسيّ، وصلّى الله على سيّدنا محمّد النّبيّ الكريم وعلى آله وصحبه. »
الإيضاح ١/ ٥.

ويبدأ الكتاب بباب في أدب الإنسان ص ٦ وينتهي بباب في دفن الأموات.
وطبعت أسفل الصّفحات حاشية عبد الله السّدويكشي (١٠٦٨ - ١٦٥٨) وتتفرّع الأبواب إلى مسائل.

**الجزء الثّاني**: ٦٣٩ صفحة. يحتوي على كتاب الزّكاة، وكتاب الصّوم، وكتاب الحجّ وما يتعلّق به، وكتاب الأيمان والكفّارت، وكتاب الذّبائح، وكتاب الحقوق.
بدون حاشية.

**الجزء الثّالث** ٦٣٠ صفحة: ويحتوي على كتاب البيوع (ما يجوز منها وما لا يجوز). كتاب الإجارات.

وطبعت أسفل الصّفحات حاشية محمّد بن أبي ستّة الشّهير بالمحشّي (١٠٨٨ - ١٦٧٩).

**الجزء الرّابع**: ٧٧٨ صفحة، ويحتوي على كتاب الشّركة، وكتاب القسمة، وكتاب الرّهن، وكتاب الشّفعة، وكتاب الهبة، وكتاب الوصايا.

**ملاحظة**: طبع الكتاب طبعة أولى بالمطبعة البارونيّة ٤ أجزاء، وأعادت وزارة التّراث العماني طبعه طبعة الثّانية في ٨ أجزاء.

يقول أبو العبّاس في شأن هذا الكتاب: ثمّ امتنع من تكميل الفقه. وهذا التّأليف ما أظنّ ألّف في المذهب مثله جمعا، وتعليلا، واختصارا غير مخلّ، وتطويلا

غير مملّ ولا مكرّر. وهواعتماد أهل المغرب في وقتنا خصوصا نفوسة، وبعده ديوان أبي زكريّاء يحيى بن الخير الجناوني (ق٥ و٦) ويعني كتاب الوضع مختصر في الأصول والفقه ط بتحقيق إبراهيم اطفيّش (١٣٨٦ - ١٩٦٦).

وبعدهما ديوان الأشياخ (ويعني ديوان غار مجماج، انظر هذه الموسوعة).

وقد درس جمعة بن سعود الكندي منهج الشّمّاخي في كتاب الإيضاح من خلال الجزء الرّابع فأثبت أنّه منهج يعتمد فيه الاستدلال بالقرآن الكريم والسّنّة الشّريفة، والإجماع والقياس، والأدلّة التّبعيّة من عرف، واستحسان، ومصالح مرسلة، وسدّ الذّرائع. وهوبحث أحرز به على شهادة الدّراسات المعمّقة من الجامعة الزّيتونة بتونس (١٤٢٣/ ١٤٢٤ - ٢٠٠٢/ ٢٠٠٣) بإشراف الدّكتور عثمان بطّيخ. مرقون بمكتبة الجامعة ١١٢ صفحة.

والمهمّ أنّ كتاب الإيضاح يعتبر عمدة الفقه الأساسيّة عند الإباضيّة في المشرق والمغرب إلى حدّ أنّه صار يذكر في كتب الفقه اللاّحقة بـ « **الكتاب** ».

٢) **كتاب الدّيانات**: لقد أحسّ طلبته أنّ كتاب الإيضاح ينقصه الباب الّذي أَلِفَ الفقهاء تصدير كتبهم به على أساس أنّ الفرع لا يفهم إلاّ بأصله، وهوباب العقيدة لذلك طلب منه تلميذه نوح بن حازم المرساوني أن يكتب في هذا الفنّ فلبّى طلبه وجاء كتاب الدّيانات، وهومختصر في غاية الاختصار أثبت فيه عقيدة الإباضيّة الوهبيّة. ويبدأ كما يلي: « وإنّما جاء اختلاف النّاس من قبل تسعة أصول، وهي

التّوحيد والعدل، والقدر، والولاية والبراءة، والأمر والنّهي، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، وألاّ منزلة بين المنزلتين، والأسماء والأحكام ».

وهكذا اتّضح مضمونه، وسمّي بكتاب الدّيانات لأنّ صاحبه يبدأ كلّ معتقد بقوله ندين مثل: « **ندين** بأنّ الله واحد ليس كمثله شيء في صفة ولا في ذات ولا في فعل ».

وقد طبع عدّة طبعات أهمّها الطّبعة الّتي ضمن أطروحة النّامي: دراسات عن الإباضيّة. دار الغرب الإسلاميّ ٢٠٠١ من ص ١٩٧ - ٢٠١. التّرجمة العربيّة. وقد ترجمه إلى الإنقليزيّة في النّص الأصليّ للأطروحة. والطّبعة الّتي جعلها ملحقا ثانيا لأطروحته بيار كوبرلي ص ٣٣٥ - ٣٣٧. وقد ترجمه إلى الفرنسيّة.

وقد حشّى على الكتاب كلّ من عبد الله السّدويكشي ويوسف المصعبي، والحاشيتان تكمّل الثّانية الأولى.

كما وضع عليه حاشية أخرى عمروالتّلاتي (١١٨٧ - ١٧٧٣) سمّاها اللآلي المنظومات في عقود الدّيانات. (انظر عن هذه الحواشي كتابنا البعد الحضاري ص ١٥٠-١٥٥).

٣) **قصيدة في الأزمنة**، وهي منظومة في حساب الشّهور والفصول.خ. شرحها الشّيخ قاسم بن سليمان الشّماخي (قواعد الإسلام تح بشير الحاج موسى ١٩٨٨ ص ٣٢٦.)

ذاك هو عامر الشمّاخي أصل الشّجرة الشمّاخيّة، تلك الأسرة الّتي لا تخلوقرية من قرى نفوسة وجربة من فروعها، وقد ظلّ أبناؤها يرفعون لواء العلم إلى عهد ليس ببعيد. عن المراجع انظر معجم أعلام الإباضيّة عدد ٥٢٩.

# البرّادي أبو الفضل أبو القاسم

## (٧٢٠/٨١٠ - ١٣٢١/١٤٠٧)

**البرّادي أبو الفضل أبو القاسم** بن إبراهيم البرّادي ابن سليمان بن إبراهيم بن أبي عمران الدمّري نسبة إلى دمّر، و**البرّادي** لقبه الّذي اشتهرت به أسرته. (٧٢٠/ ٨١٠ - ١٣٢١/ ١٤٠٧).

**موطنه:** « جبل دمّر سلسلة جبليّة تمتدّ من جنوب طرابلس إلى جنوب قابس، وهي امتداد لجبل نفوسة، ويطلق على سكّانها: أيت دمّر أوأيد دمّر. راجع ابن خلدون ملحق ٥٠٢» (كتاب السّيرة ١١٥).

يقول عنه التّيجاني: « وهوجبل مرتفع في السّماء قد سهلت فيه طرق ضيّقة لا يسلكها السّالك إلاّ على غرر، وقد تدرّب أهلها على سلوكها فهم ينازون فيها تنازي العصم، وكذلك غنمهم وإبلهم، يسلك البعير منها مسالك لا يستطيع الآدمي سلوكها إلاّ بالحيلة «عن» معمّر الإباضيّة في تونس ٩٦».

ويذكر حسن حسني عبد الوهّاب (١٣٣٨ - ١٩٦٨) أنّ وجود أبي الخطّاب عبد الأعلى (١٤٤- ٧٥٨) سنة (١٤١ - ٧٥٥) بطرابلس سهّل له الاستيلاء على جزيرة جربة وجبل دمّر وكان هذا كلّه في عام واحد. مؤنس الأحبّة تونس ١٩٨٥ ص ٤٤ - ٤٥، نقلا عن بحّاز إبراهيم، الدّولة الرّستميّة، ٦٦.

وجاء عند أبي زكرياء: « وحدّث غير واحد من أصحابنا أنّ الإمام عبد الوهّاب (١٧١/ ٢٠٨ – ٧٨٧/ ٨٢٣)، رضي الله عنه، أراد المسير إلى الحجّ، فأخذ في هيئة السّفر. فمضى حتّى وصل جبل دمّر مع زوجته. فجاز بها واستعمل عليهم رجلا يقال له مدرار (المنتصر الّذي تزوّج أروى بنت عبد الرّحمان ابن رستم وولي سجلماسة في النّصف الثّاني من القرن الثّاني راجع زمبوار ٦٤)، وللإمام بها مصلّى يقال له تلات، وفي موضع المصلّى بلاط يتّكئ عليه الإمام، رضي الله عنه، كقعدة فيستوي رأسه مع رأس البلاطة، وهي اليوم تبلغ للواقف إلى الصّدر (السّيرة ١١٥).

ويذكر الشمّاخي أنّ الإمام عبد الوهّاب عندما غادر جبل نفوسة راجعا إلى تاهرت « أرسل إلى قابس قطعان بن سلمة الزّواغي فحاصرها وكان خارج قابس مطماطة وزنزفة ودمّر وزواغة وغيرها تحت ولاية نظره، وكذا جربة » (سير ١٦١).

ويستمرّ ذكر أخبار جبال دمّر الإباضيّة في كتب السّير إلى القرن التّاسع/ ١٥، فمن ذلك استعداد أهل هذا الجبل إمداد أبي مسور (ق ٤/ ١٠) عندما سخر منه النّكار بجربة أثناء تركيزه الوهبيّة بجيش يكون « أوّله بجربة وآخره بجبل دمّر (طبقات ٣٣٧).

ومن ذلك مؤازرة أهل هذا الجبل لأبي خزر (٣٨٠ - ٩٩١) وأبي نوح في ثورتهما على المعزّ لدين الله الفاطمي، ومن ذلك رحلة أبي صالح اليراسني لنشر العلم هنالك مع ابنه ويسلان (سير ٣٣٧).

إلى أن تأتي أخبار أسرة البرّادي وعلى رأسها أبو القاسم فكان لها الدور الفعّال في تثبيت الإباضيّة هنالك، وبانقراض البرّاديّين انقرض المذهب من هناك، ويعتبر العدّالي أنّ البرّاديّين عايشوا الطّور الثّالث من أطوار الإباضيّة بجبل دمّر وهو طور التّقلّص والانقراض. (البرّادي حياته ومؤلّفاته ص ٤٧).

هذا عن جبل دمّر فماذا عن حياة أبي القاسم ومؤلّفاته؟.

**حياته:** لخّص الشمّاخي حياة أبي القاسم كما يلي: « ونقدّم أنّه أخذ العلم عن أبي ساكن عامر الشمّاخي (٧٩٢ - ١٣٩٠) وأخذ أيضا عن عمّنا يعيش الجربي (٧٥٠ - ١٣٥٠)... سكن بلده زمانا، ثمّ تحوّل إلى جربة فأقام بها بمسجد وادي الزّبيب، وكانت عليه حلقة ومجلس عظيم، ومات بها، وخلّف أولادا نجباء سادوا بجربة وبجبل دمّر. » (٥٧٤)

**النّشأة:** يرجّح الشّيخ سالم بن يعقوب أنّه ولد في حدود ٧٢٠ - ١٣٢١ بجبل دمّر وقد تبيّنا تأصّل الإباضيّة فيه من وقت مبكّر فنهل ممّا بقي في المحيط من علوم هي حفظ القرآن الكريم والسنّة الشّريفة، ومتون العقيدة، والفقه، واللّغة، وما إلى ذلك، ولم تشر المصادر عمّن أخذ هناك، وهي عادة فئة من المؤدّبين، لا يخلومنها محيط من المحيطات الإسلاميّة يحافظ على كيانه، قادرة على تزويد النّاشئة بهذه الأسس الأوّليّة في العلوم الإسلاميّة.

**الرّحلة في طلب العلم:** تثبت هذه الرّحلة أنّ نجم دمّر في أفول إذ لم يجد أبو القاسم ما يشفي غليله من العلوم فيمّم نحومعقلين من معاقل العلم عند

الإباضيّة، وهما جبل نفوسة وجزيرة جربة، وإن قدّم الشمّاخي جبل نفوسة فالقرائن تجعلنا نرجّح أنّ الرّحلة إلى جربة متقدّمة، ومهما يكن من أمر فالثّابت أنّه نهل من الموطنين.

**في جربة:** قرينتان تدفعان إلى أن نعتبر أنّ الابتداء بجربة أقرب إلى الواقع، فالجزيرة أقرب من حيث المسافة من جهة أولى، وللشّيخ يعيش الّذي قصده البرّادي صلة بجبل دمّر إذ يقول الشمّاخي: « إنّه سكن دمّر » (٥٦١)، مع ملاحظة ثالثة تتمثّل في أنّ الشّيخ يعيش دون الشّيخ عامر الشمّاخي شهرة وعلما، وما من شكّ في أنّ أبا القاسم كان يتردّد على المدارس العلميّة بجربة مدرسة الجامع الكبير وقد كانت عامرة بإسماعيل بن موسى الجيطالي (٧٥٠ - ١٣٥٠)، ولسنا ندري لم سكتت المصادر عن هذا الافتراض المعقول إذ لا يمكن لمثل أبي القاسم ألاّ يجلس للجيطالي وأن يتمحّض لشيخه يعيش وهودون الجيطالي علما. ولعلّ ذلك يرجع إلى المنافسة الّتي قد تطرأ بين الأحبّة. ومدرسته (الشّيخ يعيش) جامع تاجديت بحومة فاتو ولعلّه أدرك شيخ شيخه يعيش وهو صالح بن نجم المغراوي (ق ٨/ ١٤) الّذي تمحّض للتّدريس طيلة أربعين سنة بهذه المدرسة.

لكنّه حطّ الرّحال بمدرسة جامع وادي الزّبيب وهي مدرسة ناشئة في عنفوان منافستها للمدارس الأخرى لأنّها أسّست من أجل شيخه يعيش قرب مسكنه بحومة جعبيرة لتخفيف عناء التنقّل اليومي وربحا للوقت إذ المسافة بين الجامعين تقارب

خمسة عشر كيلومترا. فكان أبو القاسم باكورة عطاء هذه المدرسة النّامية الّتي نافست بسرعة بقيّة المدارس خاصّة عندما استقرّ بها أبو القاسم بعد حين.

ونرجّح أن تكون هذه الإقامة لطلب العلم بجامع وادي الزّبيب في حدود ٧٤٠ - ١٣٤٠ إذ كانت وفاة يعيش شيخه في حدود سنة ٧٥٠ - ١٣٥٠.

**في يفرن بجبل نفوسة:** بعد أن نقل معمّر تعريف سليمان باشا الباروني (١٣٥٩ - ١٩٤٠) ليفرن يقول: « وتقع هذه المدينة الكبرى بقراها التّابعة لها على منبسط من الجبل قد تنتأ فيه ربوة غير عالية أوينحدر فيها واد غير عميق، والمنطقة الّتي تقع فيها هذه المدينة تعتبر من أجمل مناطق الجبل وأخصبها أرضا، وأجودها تربة، وألطفها هواء، وأعذبها ماء » (الإباضيّة في ليبيا ج ٢ ص ١١٣).

في هذا المحيط الآمن الّذي يقع شرقي جبل نفوسة درجة ١٢°٣٠ في المدرسة الّتي أسّسها عامر الشمّاخي (٧٢٢ - ١٣٢٢) بعد أن ملأ وطابه علما عن شيخه أبي موسى عيسى الطّرميسي (٧٢٢ - ١٣٢٢) في مدرسة البَخَابْخَة حطّ أبو القاسم الرّحال لينهبل ممّا أوتي الشمّاخي من علوم أبرزها تضلّعه في الفقه، وكتابه الإيضاح يشهد بذلك إذ يرمز إليه بالكتاب في المؤلّفات الفقهيّة الّتي جاءت بعده في المغرب والمشرق، والكتاب مطبوع في لبنان في أربعة أجزاء وفي عمان في ثمانية أجزاء.

إقامته حينئذ في مدرسة ناشئة كما كان الأمر بجربة على مسلك الإباضيّة في نظام الحلقة الّذي يجمع المتعايش فيه بين التّضلّع في مختلف فنون العلوم الإسلاميّة وبين

اكتساب الأخلاق الفاضلة القائمة على الانضباط المحكم، ولولوع البرّادي بهذه التّجربة التّربويّة حرص على نقلها فيما بعد في كتابه الجواهر.

**في دمّر:** نرجّح أنّ البرّادي رجع إلى بلده في أواخر العقد الخامس من القرن السّابع / ١٣ لينشر ما وهبه الله من علم لكنّ المحيط لم يكن ملائما ولا يمكّن من بعث ما اندرس، وقد طغى التيّار المالكي على هذه الرّبوع.

لذلك ما أن توفي شيخه يعيش بعيد ٧٥٠ - ١٣٥٠ حتّى انتدب للاضطلاع بجميع مهام مدرسة جامع وادي الزّبيب حيث استقرّ نهائيّا هناك ومنزل سكناهم ما يزال إلى اليوم ٢٠٠٤ قريبا من هذا الجامع الّذي صار يعرف بجامع ولحي في حومة جعبيرة.

**البرّادي في جربة:** يقول الحيلاتي: « ثمّ تولّى بعده (يعيش ابن موسى المَغْرَاوي) أبو الفضل قاسم البرّادي وهوالمدرّس بالجامع المذكور (وادي الزبيب). وإذا وردت نازلة يجتمع هووأكابر المشائخ عند عمّنا سعيد يامون (٨٠٠ - ١٣٩٧) من حومة غيزن من جانب صدغيان لقدم هجرته وكثرة بركاته، ويخرج الرّأي من جميعهم وذلك في القرن الثّامن - ١٤ » (نظام ٣٢٨).

عرفت الجزيرة زمن شباب أبي القاسم أحداثا جلّى ذاك أنّها ظلّت تتراوح بين أيدي الحفصيّين والمرينيّين والنّصارى فكان « المساكين (أهل جربة) بين نارين، سيطرة النّصارى المحتلّين لأرضهم من جهة، ومطالبتهم من طرف هذه الحملات

الحفصيّة بدفع الخراج للدّولة » على حدّ عبارة محمد المرزوقي (١٤٠٢ - ١٩٨١) محقّق كتاب مؤنس الأحبّة ص ١٠٣ (راجع نظام ٣٠٢ - ٣٠٣).

وظلّت جربة على هذه الحال إلى أن انتزعها أبو العبّاس أحمد الثّاني الحفصي (٧٧٢/ ٧٩٦ - ١٣٧٠/ ١٣٧٥).(نظام ٣٠٣).

وقد كان لمدرسة جامع وادي الزّبيب دور فعّال في هذه الأحداث ذاك أنّ الجامع بني لغرض علمي ولغرض دفاعي ليكون مؤازرا لبقيّة المدارس الأخرى خاصّة منها مدرسة الجامع الكبير وجامع تاجديت وجامع مدراجن الّتي كانت قلاعا على الواجهة الشّرقيّة بينما كان هذا الجامع على الواجهة الغربيّة مع العلم أنّه بني في مكان استراتيجي في منخفض يبعد أقلّ من نصف كلم عن أعلى نقطة في جربة، وبسرعة تفطّن له النّصارى واعتبروه من المراكز الدّفاعيّة الهامّة.

لم تذكر المصادر للبرّادي مشاركة فعليّة في هذه الأحداث لكن اكتفت بذكر دوره العلميّ، وما كانت مثل هذه الأحداث أن تفتّ في نشاط الحياة العلميّة بالمدرسة بل كانت تزيدها إذكاء. وفعلا فقد كان للبرّادي دور فعّال في حفظ نظام العزّابة وعمل على تطبيقه والسّهر عليه لما رأى فيه من فائدة عمليّة وعلميّة، وقد أعدّ الجامع لهذه المهمّة ليأوي الطّلبة من داخل الجزيرة وخارجها (انظر وصف الجامع نظام ٢٤٧). ثمّ إنّه كان إلى جانب التّدريس والتّأليف يشارك في حلّ المشاكل الاجتماعيّة إذ كان يحضر الاجتماعات الدوريّة الّتي يشرف عليها أسنّ الجماعة وهوالشّيخ سعيد بن علي يامون (٨٠٠ - ١٣٩٧).

**رحلتا البرّادي:** ١- يذكر لويكي (Lewisky) أنّ أبا القاسم زار وادي أريغ (تقرت حاليّا ببلاد الجزائر) سنة (٧٦٦ - ١٣٦٤) اعتمادا على إشارة وردت في رسالة تآليف الإباضيّة حيث يقول « وله (أبو يعقوب الوارجلاني (٥٧٠ - ١١٧٥) في تفسير القرآن كتاب عجيب رأيت منه في بلاد أريغ سفرا كبيرا » (أراء الخوارج الكلاميّة ٢ / ٢٩٣).

والرّجل مولع بجمع الكتب وتعريفها، ومثل هذه المهمّة تقتضي التّجوال والتّرحال، وهوبذلك يكون قد مرّ بمن بقي من الإباضيّة عبر قسطيليّة، ووادي سوف، ووارجلان، عسى أن ينقذ ما يمكن أن ينقذ.

٢) **أداء فريضة الحجّ** سنة ٧٧٥ - ١٣٧٣ كما هومثبت في مقدّمة كتاب كشف الغمّة لأحد العمانيّين، وقد أرسل في طلبه فلم يأته إلاّ في الموسم القابل، والنّسخة موجودة بالبارونيّة جربة.

**وفاته:** نساند التّاريخ الّذي افترضه الشّيخ سالم بن يعقوب (وهو٨١٠ - ١٤٠٧) تقريبا، وذلك لأنّ أبا فارس الحفصي (٧٩٦/ ٨٣٧ - ١٣٩٤/ ١٤٣٣) طلب أحد علماء جربة للمناظرة فتعيّن أبو محمّد ولد الشّيخ أبي القاسم ولا يمكن أن يتقدّم على والده لأنّه أغزر منه علما.

**مؤلّفاته:** لقد فصّل الكلام فيها سالم العدّالي في أطروحته عن البرّادي تفصيلا شافيا نختصر منه ما يلي:

١- **التّاريخ: الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخلّ به كتاب الطّبقات** (يعني طبقات الدّرجيني ٦٧٠) ط حجريّة بارونيّة القاهرة ١٣٠٢ - ١٨٨٥، ٢٣٩ صفحة من الحجم المتوسّط.

إن عنوان الكتاب معبّر عن سبب التأليف ذاك أنّ البرّادي لاحظ أنّ الدّرجيني تحاشى الوقوف عند أحداث الفتنة الكبرى لأنّ ظروف بلاد الجريد لا تسمح بذلك فتدارك هذا النّقص لما لمسه من حاجة المجتمع الإباضيّ لذلك، خاصّة في أوساط الطّلبة والعلماء فيما يتعلّق بالمسائل الخلافيّة، وقد شجّعه ذلك على الإقدام على هذا العمل الّذي مثّل أوّل كتاب ألّفه وذلك بجبل دمّر.

وقد تضمّن الكتاب مقدّمة بها عناوين: الحمد والشّكر، وفضل العلم وشرفه، وسبب تأليف الكتاب، وفصول في سيرة الرّسول ﷺ، وخلافة أبي بكر، وعمر، وعلي، وعثمان، والحسن وأهل النّخيلة، وجملة من مآثر أهل الطّبقة الأولى، ثمّ ذكر أهل الطّبقة الثّانية، وأورد رسالة الإمام محمّد بن أفلح حول مسألة خلق القرآن، ثمّ أثبت فصلا سمّاه لمعا من سيرة الحلقة، وأورد رسالة تآليف أهل المغرب والمشرق، وختم بفصلين: الموت وعذاب القبر وأحواله.

وقد عالج الكتاب جملة من المسائل السّياسيّة والكلاميّة والفقهيّة واللّغويّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة.

والكتاب إلى جانب تحليله لأحداث الفتنة الكبرى من وجهة نظر الإباضيّة جمع وثائق نادرة من الأهميّة بمكان أ - **رسالة عبد الله بن إباض (٨٦ - ٧٠٥) إلى عبد**

**الملك مروان** وهي من أقدم الوثائق الّتي وصلتنا بنصّها، وقد سكت عنها جميع المؤرّخين من أمثال الطّبري وغيره.

ب - **رسالة الإمام محمّد بن أفلح الرّستمي (٢٦١ / ٢٨١ - ٨٧٤ / ٨٩٩) في خلق القرآن** وقد بيّن فيها حجج الإباضيّة النّقليّة والعقليّة على أنّ القرآن كلام الله مخلوق. وقد ظلّت هذه الرّسالة عمدة الفكر العقدي عند الإباضيّة إلى يومنا هذا.

ج - **لمع من سيرة الحلقة**: اقتبس هذا النّصّ من كتاب طبقات الدّرجيني وتناوله بالتّحليل مثبتا به جهود الإباضيّة في ميدان التّربية والتّعليم ونشر الدّعوة.

د - **رسالة التآليف** وقد حققها عمّار الطّالبي وبيّن أنّها رسالتان واحدة مختصرة وثانية أوسع منها وقد ذكر فيهما أسماء ما وصله وما سمع عنه من كتب إباضيّة المشرق وأهل جبل نفوسة وأهل المغرب. وقد ظلّت هذه الوثيقة عمدة الباحثين في التّراث الإباضي وما تزال (آراء الخوارج الكلاميّة ج ٢ / ٢٨٢ - ٢٩٤).

٢ - **رسالة الحقائق وحدود العلوم الشّرعيّة والاعتقدات** وقد حقّقها سالم العدّالي تحقيقا علميّا سنة ١٩٨٤ وتوجد نسخة منها مرقونة بمكتبة الكليّة الزّيتونيّة ٩٦ صفحة من الحجم الكبير. ألّفها استجابة لطلب الشّيخ محمّد بن أحمد الصّدغياني. وقد تضمّنت مقدّمة تطرّق فيها للأوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة ناعتا إيّاها بالاضطراب والوحشة ثمّ بيّن في عنصر أوّل آفات طلب العلم، وبعد ذلك عرض جملة الحقائق، وهي في جملتها خمس مجموعات تتوزّع بين علم الكلام، وعلم أصول

الفقه، والفقه، واللّغة، وفي الأخير تأتي الخاتمة قائمة على أسلوب رمزي تضمّنت ما أسماه البرّادي بالأقاليم السّبعة.

**٣ - أصول الفقه: البحث الصّادق والاستكشاف عن حقائق أسرار معاني كتاب العدل والإنصاف لأبي يعقوب يوسف الوارجلاني:** يحتوي الجزء الأوّل من الكتاب (وهوالّذي شرحه البرّادي) على مقدّمة وتسعة أبواب: احتوت المقدمة على تسعة مسائل أهمّها معرفة الفقه وأصوله. باب ١ العلم واستعمال الاثنتي عشرة. باب ٢ أقسام العلوم وفيه ثلاثة عشر فصلا. باب ٣ القول في الرّوح والعقل وفيه ١٣ فصلا. باب ٤ في الأفعال وفيه فصلان. باب ٥ أقسام الأفعال في الشّرع. باب ٦ أحكام الخطاب. باب ٧ الكلام ويحتوي على عشرة فصول.

وقد بيّن أنّ قصده من هذا الشّرح تيسير ما عسر من هذا الفنّ على الطّلبة. خ بالمكتبة البارونيّة جربة.

**٤ - عقيدة وفقه - كتاب شفاء الحائم في شرح بعض الدّعائم. وكتاب الدّعائم تأليف ابن النّضر العماني** (ق ٥ - ١١) منظومة تعليميّة تضمّنت ٤١ قصيدة. طبع ضمن مجموع سنة ١٤٠٠ - ١٩٨٠. نشر وزارة التّراث سلطنة عمان.

يقول الشمّاخي: « وكتاب شرح الدّعائم لم يكمله، السفر الأوّل إلى الطّهارات وهوالمتداول وجمع من الألواح من بعده إلى الزّكاة أظنّ، وهوتأليف مفيد. » (٥٧٤).

وهذه عناوين القصائد الّتي شرحها البرّادي: الدّعامة الأولى في التّوحيد. الدّعامة الثّانية في الحجّة على الخلق ومعرفة الخالق من المخلوق ٧٠ بيتا. الدّعامة

الثّالثة منظومة في خلق الأفعال ١٢٨ بيتا. الدّعامة الرّابعة في الردّ على من يقول بخلق القرآن ٧٥ بيتا. الدّعامة الخامسة في الوضوء والتيمّم ١٦٠ بيتا.

شرح تعليمي تعرّض للقضايا الكلاميّة المذكورة في المتن مع وقفة عند الطّهارات مع الإلحاح على الشّرح اللّغوي. مع العلم أنّ البرّادي استفاد من شرحين سابقين للدّعائم أحدهما لابن وصّاف (ق ٦/ ١٢) والثّاني للرّقيشي (٩ - ١٥)، وقد تناول كتاب الدّعام بالشّرح كلّ من أبي زكريّاء الشّماخي (حيّ ٧٠٤ - ١٣٠٤) والمحمّد اطفيّش (١٣٣٢ - ١٩١٤) بعد البرّادي.

٥ **الأجوبة: الجواب الأوّل:** حول الإقرار والعطيّة والصّدقة. وهواستجابة لسؤال العلاّمة محمّد بن علي بن محمّد النّذري من عمان يقرّ فيها البرّادي أمورا متعلّقة بطريقة الحصول على الأموال فالإقرار يعني الإشهاد أوالصّدقة أوالعطيّة باعتبارها طرقا مختلفة لتلقّي المال وقد تعرّض فيها لقضايا سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة هامّة. خ بالبارونيّة.

**الجواب الثّاني:** الوصيّة وأحكامها وهي في الفرائض جوابا لسؤال العزّابي زكريّاء بن سليمان الجربي.

**الجواب الثّالث:** أثبت فيه كيفيّة انفاق أوقاف المساجد خ بدون تاريخ دفتر رقم ١ ص ١٠٠ مكتبة الشّيخ سالم بن يعقوب غيزن. انظر نظام ٢٣٥ - ٢٣٦.

ويورد العدّالي أنّ للبرّادي كتابا عنوانه **جواب أهل الخلاف** ويذكر أنّه لم يطّلع عليه، ويرجّح من خلال العنوان أنّه آخر تآليف البرّادي. ص ١٥٦.

المراجع: معجم أعلام الإباضيّة عدد ٧٣٥.

سالم العدّالي: أبو الفضل أبو القاسم البرّادي: حياته آثاره أطروحة دكتوراه مرحلة ثالثة مرقونة بالمعهد الأعلى لأصول الدّين جامعة الزّيتونة. تونس.

# الفهارس

# الفهارس

١. مقدمة ..... ٥

## إباضية المشرق :

٢. الإمام عبد الله بن إباض ..... ٩
٣. الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التّميمي ..... ١٩
٤. الإمام عبد الله بن يحيى بن عمر الكندي – طالب الحق ..... ٣١
٥. القائد أبو حمزة الشّاري ..... ٤٤
٦. الإمام الرّبيع بن حبيب الفراهيدي ..... ٥٨
٧. محمّد بن محبوب بن الرّحيل ..... ٧٤

## إباضية المغرب :

٨. عمروس بن فتح النّفوسي ..... ٨٤
٩. أبو خزر يغلا بن زلتاف ..... ٩٦
١٠. أبو نوح سعيد بن زنغيل ..... ١١١

١١. جماعة غار مجماج بجربة..... ١٢٢
١٢. محمّد بن بكر بن أبي بكر الفرسطّائي ..... ١٣١
١٣. أبو الرّبيع سليمان بن يخلف المزاتي ..... ١٥٢
١٤. تبغورين بن عيسى الملشوطي ..... ١٦٥
١٥. أبو عمرو عثمان بن خليفة السّوفي ..... ١٧٧
١٦. أبو العبّاس أحمد بن سعيد الدرجيني ..... ١٨٧
١٧. عمر بن جميع اليهراسني الجربي ..... ١٩٨
١٨. أبو طاهر إسماعيل الجيطالي..... ٢١٢
١٩. عامر الشماخي ..... ٢٢٤
٢٠. أبو الفضل أبو القاسم البرادي ..... ٢٣٦